صحيفه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

١ اللهمّ إنّا نحمدك على ما انزلت من الحكمة وفصل الخطاب * ونستوهبك الهداية الى العمل بما صدع به الكتاب * ونستغفرك من الذنوب يا من لك ملك السموات والارض * ونسألك اللطف يوم ينفخ في الصور ويقال هذا يوم العرض * يوم يقف الانسان مسئولا عن الاحسان * فويلٌ يومئذٍ للظالمين والمعتدين * والذين عتوا في الارض مفسدين * اللهمّ فصلِّ على أنبيائك ورسلك * واغفر ذنوبنا بشفاعاتهم من كرمك وفضلك * وآزر سيفك القاطع وظلك الساطع * عبدك وابن عبدك * وأمينك في عبادك * خليفتك الامين مولانا امير المؤمنين * اللهمّ فانصر عساكره * ونفذ في الورى أوامره * وارفع بالمجد اعلامه * واقرن بالتوفيق ايامه * ووطد اركان دولته العلية * بيدك القوية * وارفع شأنها بالعز والاقبال * مدى الاجيال * اللهمّ فاحفظ لنا هذا الامام * عبد الحميد * كهف الانام * سلطاننا الاعظم * وخاقاننا الافخم * مَن بسط على العباد ظلاً ممدوداً * وأقام البلاد عدلاً مشهوداً * خيرة السلاطين والخلفاء * ومورد الفضل والرشد والوفاء * روح الوجود * جسم الكمال * محيي الوعود * كنز الامال * اللهمّ فاجعل للدعاء له عندك مكاناً * وارأف برعية ترتجيه من فضلك احساناً * انك لتعلم من خلوص سيرته وسريرته * واخلاصنا لعبادتك وطاعته * ما يقوي برحمتك امانينا * ويؤملنا بطول بقائه فينا * وانك السميع المجيب

٢ أما بعد فاذ كان لا راحة للانسان الا اذا عاش على رجاء التعاليم الدينية رأينا ونحن لا نقصد غير الاخذ بأسباب الوقاية من الكفر ان نجعل مدار البحث في هذا الكتاب على ما يصون القلوب من التشدُّق الذي راجت سوقه في هذا الزمان واتخذ من قلوبنا مكاناً لا تقدر على اتخاذه ظبية البان

٣ وبما اننا قد خضنا في مباحث مستغلقة الابواب وعرة المسالك غير مألوفة عند المتدينين اتجهنا بها الى جهتين ونظرنا فيها من وجهين فجعلنا لكل جهة كتاباً قائماً بذاته ولكل وجهٍ بحثاً ينطبق على حيثياته حتى اذا حصحص الدليل وبدت غوامض الانجيل استعنا الله على سبك هذا الكتاب في قالب يرضي الجميع من كل اديب فاضل وجاهلٍ متفاضل

٤ ولما كان الكلام عن احوالنا الدينية يستلزم الاقتصاد فيها تارة والالمام بفروعها تارة أخرى كان لا بد من معاناة التعب في هذا السبيل والوقوف على حيثيات دينية صحيحة لا يضرها التطويل ولا يخفيها القليل . واعمري ان من يبحث في الدين من حيثيات خصوصية غير مراعٍ للاحوال الدينية العمومية يضرُّ به اكثر مما ينفعهُ . فاذا قال الارثوذكسي مثلاً ان الارثوذكسية افضل من المارونية لا يلبث المتشدق أن يسمع قولهُ حتى يزداد ضحكاً على ضحك ذلك ما راعيناهُ في هذا الكتاب حتى جاء بحوله تعالى موافقاً من جميع وجوهه

على اني راضٍ بان احمل الهوى * واخلص منهُ لا عليَّ ولا ليا

٥ وقد قسمناهُ كما اشرنا آنفاً الى كتابين وجعلنا لكل كتابٍ منهما فصولاً تحتوي على مواضيع شائقة ومباحث مستلذة فيها ما يلذ المطالع ويرضيه ولو كانت عليه لانها تبسط له الاحكام الدينية من وجوهها الطبيعية بنوع تتمثل فيه الحقيقة تمثلاً محسوساً تكاد تلمسه الكف وتراهُ العين . ويُفصل كل كتاب

من هذين الكتابين عن الآخر بطبيعة البحث الذي خُصَّ به

٦ ومن خصائص مباحثها انها تستميل الى مطالعتها المتشدقين كما تستميل المؤمنين بلا خلاف لانها ليست من نوع المباحث الدينية المادية التي ينفر منها الكثيرون في هذه الايام ولانها أيضاً قد تألفت مما يُعتقد كله بناصية الحقائق عارية مما يشينها من الاغراض

٧ وكما تقدم اننا لم نقصد من هذه المباحث جميعها على اختلاف مراميها غير خدمة العقائد الدينية اذ ليس لنا هنالك من غرض سوى استئصال جرثومة التشدق الذي سرى سمهُ في بلادنا . وبرهاننا على ذلك هو ان جميع المباحث دائرة على ما من شأنه ان يصون الدين من الاستخفاف به وبالمطالعة يتضح ذلك اتضاحاً جلياً

٨ على ان عدم اقتصارنا في هذه المباحث على المسيحية دليل واضح على صحة ما نقوله فاننا قد تجاوزناها الى المحمدية والموسوية والوثنية بنوع لا يدع سبيلاً للمطالع ايّاً كان دينهُ ان يلومنا على اننا قلنا الصحيح — لان ما نقصده من دفع اسباب الاستخفاف بالدين يقضي علينا ان نخدم الحقيقة الدينية نفسها لا ان نخدم ديناً دون آخر

٩ واذ كان غرضنا كما تقدم دفع اسباب التشدق كان لا بد للمسيحيين وان يجدوا في هذا الكتاب ما ينافي عقائدهم لان الكنائس مشحونة بالعقائد الباعثة على التشدق . ولكن فليعلم المسيحيون قاطبة ان السيد المسيح قد ترك كنيسة واحدة فاذا فرضنا انها اليوم خمسون كنيسة فنحن ليس من قصدنا ان نجعلها احدى وخمسين وانما نقصد ان نبين لهم ان الكنيسة التي تركها السيد المسيح قد فقدت من عالم الوجود

١٠ على اني لست ويمين الله بمتوقع اللوم على ما آتيته من المباحث الدينية لان من يقف على ما هنالك من المقاصد المنزهة عن كل شين فلا يسعه الا الاستحسان . ولا اظن ان الفضلاء ينكرون عليّ ما كلفت نفسي للبحث عنه لان العالم المسيحي قد أصبح اليوم غير مرتاح الى تعاليم يحتف بها الاشكال من كل صوب . فمن الضرورة اذاً ان كان ثمة بقية من الايمان ان يقوم بينهم من يزحزح نقاب الاشكال عن محيا الحقيقة لان الدين لازم للانسان في كل حال ولا يقول بعدم لزومه الا كل من ضربت الحماقة اطنابها في دماغه

١١ ولا سبيل الى القول ان عملاً من هذا النحو مناط بجماعة الاكليريكيين لان هؤلاء (نفعنا الله بهم) لا ينتظر منهم ان يزيلوا اشكالا هم واضعوه . فان كان ولا بد من الانتظار فلننتظر ترك الدين فانه أقرب

١٢ ويعلم الله تعالى اننا ما تعمدنا مس جوارح دينية وجوارحنا منها ولا قصدنا تكدير قوم وصفوهم صفونا ولا تصورنا الاعراض عن احترام معبد طالما سجدنا فيه لله الذي يسجد له من في السموات والارض . بما جئنا به وفي يقيننا انه حسن فان وقع قبيحاً فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

١٣ وغنيّ عن البيان اننا ننشر هذا الكتاب احقاقاً للحق مع قطع النظر عما يتسبب عن ذلك . فان كان ولا بد من عدم الرضى به فليس ذلك مما يؤخرنا عن نشره لاننا قد وصلنا والحمد لله الى عصر لا يأفل بدره حتى يبدو فيه كل غامض . فان لم نكشف نحن الغطاء عن حقائق دينية غامضة فسوف يكشفه غيرنا . اذاً ان من يقول بعدم لزوم التحرش بمثل مباحث هذا الكتاب فقوله ليس بسديد

١٤ وقد كان من أسباب ما حملني على تأليف هذا الكتاب هو انه قد

اتفق لي ذات يوم ان وقع نظري على جريدة مصرية يقول فيها محررها (يجب علينا ان نعلم أولادنا المبادئ الوطنية لا المبادئ الدينية) فطويتها بالحال وقلت لمن تناولتها منه انصح لك يا صاح ان تبتعد عن مطالعة الجرائد المضرّة ومن ثم اخذت اعمل الفكرة بانشاء هذا الكتاب على نوع يفي بالحاجة . ولعمر الحق ان جريدة شرقية تبث في القلوب شرّاً من هذا النحو وتدخل بلادنا بلا حياء لجديرة بالاحتقار والحرق بالنار وان يحكم على محررها بقطع اللسان والانامل حتى لا يعود يتكلم أو يمسك القلم

١٥ وقد قام من علماء الفرنسيس كتباء كثيرون كذّبوا الدين الا انهم قد فعلوا ذلك بدون ان يتكلفوا البحث عن كنه الحقايق الدينية فجاءت مباحثهم أميل الى الاحكام الدنيوية منها الى الاحكام الدينية . فكأنهم والحالة هذه استدلوا على عدم صحة الدين من الدنيا وفي ذلك ما فيه من الشطط . وليس ذلك بغير جائز على فلاسفة مثلهم يتحرون الحقايق وينطقون بالعدل — لانهم اتبعوا خطة زعيمهم ڤولتر الذي أشغله الاهتمام بما فيه اصلاح الدنيا عن التوصل الى حيث تكمن الحقايق الدينية فكان من أمره انه ضحى العقائد الدينية على مذابح الدنيا عفواً

١٦ ومن الواضح ان ما من حقيقة نشرت في العالم الانساني الا وقامت لها القيامة وقد أرانا التاريخ ان هنالك حقايق كثيرة قد أهرقت لاجلها الدماء ومع ذلك فلم تكن تلك المقاومات لتوقف سير التمدن اذ ليس من حقيقة أماتتها المقاومات الا واحياها الله بعد حين لانه تبارك شأنه يأبى الا ان يظل العقل عاملا . فبناء عليه أراني مضطراً الى نشر هذا الكتاب عملا بمطالب العقل غير مبالٍ بما سيلقاه من المقاومات الفادحة لانني أعلم يقيناً انه اذا لم يرض

الناس اليوم فسوف يرضيهم غداً وكل آت قريب

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلها   كفى المرء نبلاً ان تعد معايبه

١٧ واذ كان غرض هذا الكتاب تمحيص الحقايق الدينية والدلالة على اماكن العثرات المودعة في كتب الدين كان لا بد له من ان يرضي فريقاً ويغضب آخر . ولكن فليعلم مطالعوه انه لو كان من غرضنا الاغضاب أو الارضاء لجرت مباحثه الى هذا الغرض بعينه والواقع غير ذلك كما سيتضح للعقلاء من مطالعيه فاننا قد أتينا في مواضع كثيرة منه على ما يسر الفريق الذي يظن اننا نغضبه وهنالك مباحث أخرى قد لا ترضي الفريق الآخر ونحن في كل ذلك قد راعينا الحقيقة غير ناظرين الى غضب زيد أو رضى عمرو لان هذا كله قد لا يكون له دخل في افكار من يتوخى القول الاصح فاذا قلنا مثلاً زيدٌ أفضل من عمرو فانما نفعل ذلك لنبين الفضل نفسه لا لنغضب عمراً أو نرضي زيداً والا فما هو غرضنا من قولنا مثلاً (قد لا تعدم الوثنية من الفضل الديني) هل نقصد رضى الوثنيين . ولعمري لو كان لنا بهذا الكتاب أغراض تنافي موضوعه لما قدرنا على تمحيص حقيقة واحدة من كل ما جئنا به من الحقايق بل كان الفساد متخللاً للكل

١٨ واذ كان الغرض مصروفاً بجملته الى حيث تتوفر صيانة الايمان في القلوب كان لا بد من جعل البحث متجهاً نحو الاصلاح الديني اذ لا يمكن الوقوف على اماكن العثرات الا كذلك . وبما ان بحثاً من هذا النحو لا يكون الا من قبيل المباحث الحديثة فلا يخلو من ان يقع ثقيلاً على ذوي العقول القديمة الذين ما تعلموا ان يقفوا بالعقائد الدينية عند المطالب الدنيوية ولكن الذين يدركون ما وراء عدم الوقوف من الاضرار المحدقة بالدين لا يجدون

ندحة عن البحث فيما يتكفل بدفع هذه الاضرار . ولعل كره المؤمنين للمباحث الحديثة ونفورهم منها ناشئ عن مباحث جاءت لمجرد الكفر فحسبوا كل بحث حديث كفراً في حين ان المباحث تختلف مراميها حديثة كانت أو قديمة فشتان ما بين بحثٍ حديث جاء للكفر وآخر مثله جاء لتعزيز الايمان لاسيما وان مسئلتنا الدينية تمشي اليوم على نحو قولهم „ لكل شيء آفة من جنسه ،، فان لم نقابل الحديث بحديثٍ آخر يقتله فقل على القديم السلام .

١٩ واذ قد علمت ما تقدم فاعلم ان وقوف الجهلاء في سبيل المباحث الحديثة النافعة لا يمنع من البحث عما فيه سلامة الدين من الاستخفاف به . لان الانسان محتاج الى العقائد الدينية كاحتياجه الى الخبز والماء والويل له يوم يدب على وجه الارض بلا دين . وبعد فاي شيء نافع جاء الى الدنيا ولم يقف الجهلاء ضده .

٢٠ ويُقال ان الجاهل عدو نفسه وانا اقول انه عدو الدين ايضاً ولو مؤمناً لان العقائد الدينية لا يستقيم امرها الا بالعلم والمعرفة فلو سُلمت الى الجهلاء لذهبوا بها كل مذهب ولاندرست حقائقها منذ زمان طويل . ذلك ما طرأ على كثيرٍ من العقائد المسيحية .

٢١ ولا يخفى اننا اليوم معاشر الشرقيين نجاري الغربيين في كثير من عوائدهم الجديدة في حين لو استقرينا حوادثهم الماضية لرأينا انهم ما التمسوا الجديد الا بعد ان دفعتهم اليه الحاجة ودلتهم عليه الطبيعة . فان كان ولا بد من اتباعهم في مبتدعاتهم فلنتبعهم فيما كان منها قريباً من حاجتنا وطبيعتنا والا فاننا ننزل بانفسنا في دركات التعاسة من حيث لا نشعر .

٢٢ وأقبح ما اتبعناهم به وجاريناهم فيه هو الاستخفاف بالعقائد الدينية على

علمنا انهم انما فعلوا ذلك كرهاً . فما كان اغنانا عن اتباع قوم حاجتهم غير حاجتنا وطبيعتهم غير طبيعتنا . ولا نعلم كيف تأتت لنا هذه المجاراة المضرة على شدة حرصنا على العقائد الدينية نعم ان اولئك قد كانوا حريصين عليها مثلنا ولكن ربّ متعبدٍ يصلي الليل والنهار بلا انقطاع يترك الدين يوم يشعر بضغط مؤذن بتعاستهِ . ذلك ما كان نصيب الغربيين كما ستعلم .

٢٣ فلا جرم ان هذه العقائد الثمينة قد أضحت اليوم عندنا رخيصة بلا سبب يبعث على الرخص كما حدث هنالك . ألا ترى الى هولاء الشبان الذين يحلفون في مجالس الهزل بقولهم (وحيات ابو عيسى [1]) وهم يريدون الحق سبحانه ولكن من لنا بمن اذا سمع شاباً يتشدَّق على الله بهذا القسم (يسد باليسرى فاه ويوجع بالاخرى قفاه) حتى يعلم يقيناً انه شرقيٌّ المنبت .

٢٤ هذا وقد أغفلنا كثيراً من المباحث الدينية التي كان يجب نظمها في سلك هذا الكتاب كالبحث في احكام الحلال والحرام وغير ذلك وانما آثرنا الاغفال مراعاةً لطبيعة الدين فانها لا تحتمل الخوض في مباحث من هذا النحو . اما المباحث التي اثبتناها فيهِ فهي ولأن تكن من المباحث الحديثة فانها جاءت من حيثيات دينية محضة فمنها ما هو مبني على نصوص صريحة ومنها ما تناولناهُ قياساً على نصوص جاءت من نحوهِ والذي تعذَّر منها حمله على النصوص بنيناه على نتائج دينية ومقدمات بديهية وفقاً لاحكام العقل .

٢٥ ومجمل القول ان مباحث هذا الكتاب خلاصة الحقائق الدينية فقلَّما

[1] يغلب استعمال هذا القسم عند الشبان البيروتيين ويندر عند غيرهم ولكن لو ادرك هؤلاء الجهلاء ان للابوة والبنوة الواردتين في الانجيل معنى خاصاً بالدين لما تشدقوا على الله بقسم جعلوه موضوعاً للهزء والسخرية

يبحث عن شيءٍ الا بعلته فانهُ ليرد الاشياء الدينية الى اصولها كما يرد الكيماوي المركبات الى الاجزاء التي تركبت منها . ولذا فقد جاء مستظلاً بظل الحقائق أميناً على عرضه من كل ثالب . فان وجد في البلاد من يأبي الا ابتلاعه تطاولاً فالبدر قد يبتلعهُ الحوت [1] .

٢٦ ولو لم يكن لهذا الكتاب ما يؤهله لأن يكون في عداد مؤلفات هذا العصر غير اقتداره بمعونة الله على كشف غوامض الانجيل الذي ظلَّ مستغلقاً تسعة عشر قرناً حتى كان الله انزلهُ لذوات القرون — لكفى .

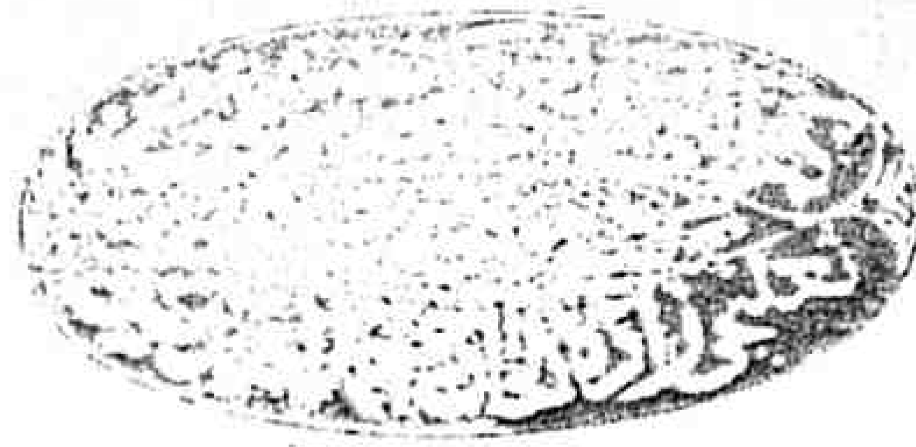
٢٧ ومعاذ الله ان ندعي الكمال او نتطاول في المعرفة على علماء البلاد وأدبائها . لاننا ان كنا أتينا بشيءٍ من فتات الفوائد فانما هو ما التقط من فضلات موائدِهم . وانما قلنا ما قلناهُ — ونحن نستغفر الله ملتمسين الاغضاء عن قصر الباع — لنبيّن لمطالعيهِ ما حظي به من تدريب العناية حتى جاء مستكملاً حيثياته بنوع يخولنا الاطناب فيه . ومقصودنا من هذا الاطناب الذي يعود علينا بما يحط من قدرنا ادبياً ان نستلفت اليه الانظار اكثر رجاء الحصول على معاضدة الفضلاء الذين يهمهم نشر الحقائق لعلمهم يدفعون عنه شيئاً من الاخطار المحدقة به لان المزمعين على حرقهِ كثار .

٢٨ ويهون عليَّ وايمُ الله ان اخسر حياتي وآدابي معاً ولا ارى بعينيَّ ظلوماً جهولاً ينظر اليهِ بعين الازدراء والغضب . على ان الحقيقة قد لا تعدم انصارها فان لم نعمل بها اليوم فسوف يعمل بها اولادنا من بعدنا . وما كتاب الدليل الشرقي بنعمة الله تعالى الا ذو نفس لا تقبل الموت ولو جعلوهُ للنار وقيداً .

[1] جرينا هنا على معتقد العامة فانهم ينسبون الخسوف للحوت

٢٩ وان كتاباً تحلّى مباحثه بحلى الحقائق لهو أعز من ان يبالي بمتعنّت يؤذي وأحمق يسخط لا سيما وهو يرفع الى الاعتاب الهمايونية رجاء الدخول في حمى جلالة الملك الاعظم حضرة سيدنا ومولانا السلطان الغازي السلطان ابن السلطان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان

عبد الحميد خان . أدام الله تعالى شوكته
وصولته وعزه ونصره وفضله وفخره
اللهمّ آمين .



الكتاب الاوّل

الفصل الاول

في الوحي



١ كيفما قلب الانسان نظره في الطبيعة يرى الدلالة على وجود المبدع العظيم وافرة فيها ولكنه مهما فتش وبحث فلا يجد هنالك ما يدل على الوحي لان الطبيعة خالية من هذه الدلالة . ذلك ما حدا بالكثيرين من علماء الارض الى تكذيب الدين لانهم ما وجدوا له عند الطبيعة خبراً عنه .

٢ وليس بالغريب ان نجد الطبيعة خالية من الدلالة على الوحي — لان الوحي حال من احوال الله جلّ جلاله ومن شأن الطبيعة ان تقتصر في الدلالة على ما نشأ عنه وجودها وقوامها مما لا تعلق له بالوحي . وبعبارة اخرى ان الطبيعة من شأنها ان تدل على الموجد نفسه لا على احوال الهية لا تعلق لها بالايجاد . فتأمل .

٣ على انه ولئن خلت الطبيعة من الدلالة على الوحي فانها لا تخلو من الدلالة على الخلود الذي يلزم عنه ان يكون ورآؤه ما تقوله الكتب المنزلة اذلا يتأتى ان يخلو الخلود مما انبأتنا به هذه الكتب المقدسة من الثواب والعقاب .

٤ والذي يعمل الفكرة في خلو الطبيعة من الدلالة على الوحي يجد ان عدم الدلالة هو دلالة لانه اذا لم يكن كذلك فكيف ادرك الانسان العبادة ومن دلّه عليها . ذلك ما نبني عليه اكثر الكلام في هذا الفصل .

٥ ولأمر مقرر عند عموم المتدينين رسوليين كانوا أم وثنيين ان الانسان انما ادرك معنى العبادة بالوحي لا بغيره وهذا الاعتقاد صحيح الوضع لا يخالطه شك . نعم ان العقل يدل على وجود الخالق الا انه يقف عند هذه الدلالة بدون ان يتخطاها الى ما بعدها من معاني الدين اذ يستحيل عليه ان يدل على اتخاذ معبود واقامة ما نفهمه من معاني العبادة وشعائرها . وعليه فان الذين يقولون ان الانسان جنح الى التديّن من نفسه ليسوا بمصيبين لضعف الدليل العقلي على صحة ما يقولون .

٦ ولا سبيل الى القول بان ادراك العبادة هيّن على العقل لما نراه الآن من احاطته بمعانيها والتصرُّف فيها — لان ذلك انما هان عليه بعد الوحي فلولا الوحي لما جنح الانسان الى التديُّن ولا ادرك للعبادة معنىً . فالدين اذن هو ولا مراء وضع الهي وهو يشهد لنفسه بنفسه وشهادته حق لانه ليس من عمل العقل .

٧ ولنفرض الان ان العبادة نتيجة الاستدلال العقلي وان الانسان تديّن بادئ بدء بالوثنية وان الرسل الكرام جاؤوا بشرائعهم الدينية من عندهم وان دعوتهم السموية غير صحيحة . فما هو غرضهم من هذه الدعوة يا ترى ؟ فان كان غرضهم ترقية الشرائع الدينية فليس فيه ما يحدو بهم الى دعوة غريبة احتملوا من اجلها الاضطهاد والأذى اذ كان الاسلم لهم ان يرقوا الشرائع من حيثياتها المألوفة فيحصلون على غرضهم بلا تعب كما فعل بوذه وغيره . وان كان غرضهم تعظيم شأنهم فان لهم باتباع خطة المشترعين الوثنيين تعظيماً اكبر اذ يصيرون حينئذٍ في مصاف الآلهة كما صار اولئك .

٨ فلا جرم ان القول بعدم صحة الوحي يؤذن بان دعوة الرسل الاطهار

كانت ضرباً من الجهل او الجنون فاذا فرضنا انهم كانوا رجالاً ارضيين فهم أرفع من ان ينسب اليهم الجهل والجنون . أيجوز على رجال كبار نظيرهم ان يتحملوا المتاعب والمصاعب ويعيشوا بالفقر والقهر من اجل شيء هو في الحقيقة لا شيء . فان قيل انهم تحملوا ذلك خدمة للانسانية . قلنا . قد كان يمكنهم ان يخدموها بلا تحمل شيء مما تحملوه ويظل غرضهم الديني في موضعه لان للشرائع الدينية الهية كانت او وثنية فعلاً واحداً[1] فان لم تكن الالهية صحيحة فالوثنية تقوم مقامها في كل حال . ألا ترى الى الوثني كيف انه يحترم تعاليمه الوثنية كما نحترم نحن تعاليمنا الالهية بلا خلاف وانه يخشع للوثن كما نخشع نحن لله . فاذا كان يمنع الرسل من تحسين شرائع الانسان الدينية من حيثياتها الوثنية اذا كانت غايتهم مجرَّد التحسين . أليس التحسين الديني من حيثيته الحاصلة أسهل عليهم من حيثية غريبة احتملوا لاجلها من انواع المقاومات والاضطهادات صنوفاً واشكالاً . ثم ما هي الحكمة في قولهم للناس كسروا اصنامكم واعبدوا الله اذا لم يكن قولهم هذا من عند الله . أليس العرش عند الوثنيين الهاً خالقاً معبوداً كالهنا أوليست شرائعهم الدينية هي عندهم مقدسة كشرائعنا

٩ والحاصل فكيفما تأملنا في الرسل الكرام واحوالهم فلا نجد من ندحة عن الاقرار بصحة الدعوة لان رجالاً كباراً مشترعين نظيرهم هم أرفع عقلاً من ان يدخلوا بمقاصدهم من ابواب ضيقة وعرة ولديهم ابواب وسيعة من نوعها لو لم يكونوا قد جاؤوا من عند اله آخر حقيقي . فتأمل

١٠ ولا تشكل صحة الدعوات الرسولية بما في الكتب المنزلة من الاخبار التي دلت الطبيعة على عدم صحتها — لان لذلك مقاصد الهية واغراض دينية

[1] لا فرق بيننا وبين الوثنيين الا من حيث ان معبودنا حقيقي ومعبودهم كاذب لان طبيعة الدين واحدة اياً كان المعبود

متنوعة أتينا على كثير منها في كتابنا « الجمانة العثمانية » وسنذكر في هذا الكتاب ايضاً كثيراً من ذلك وفي الفصل التالي نأتي على تأويل اعظم خلاف كائن بين الدين والطبيعة حتى لا يبقى شبهة بصحة الكتب المنزلة .

١١ ولا نشكل ايضاً بما أضحى من الكتب المنزلة هدفاً لمرامي مطالب هذا الزمان ـ لان مفسري هذه الكتب الالهية قد وقفوا بها عند حدود المطالب القديمة ولم يخطر على بال المتأخرين ان يخرجوا عن تلك الحدود ولعلهم لا يجوّزون ذلك حال كون كتبنا المنزلة تحتمل بطبيعتها مطالب كل عصر الى الانقضاء بلا عجز لانها بحور زاخرة اينما غصت فيها تجد مطلوبك ولكن الغوّاص قليلون او لا يوجدون .

١٢ وليست هاته الحال كائنة عند فريق منا دون آخر بل هي عند العموم على السوآء ما عدا الكنيسة الانجيلية فانها عائشة على الارض بحسب طبيعة الارض نفسها . على ان احبار رومية قد أخذوا منذ زمان غير قليل باحترام مطالب الدنيا ولا يزالون يبتغون التقدم في الامر فالظاهر انهم قد ادركوا ان لا حياة للدين على الارض ما لم يجارها في احوالها .

١٣ ومعلوم ان مزية الكتب السموية على الكتب الوثنية تمشي اكثرها على ما نحن الان بصدده لان الكتب المنزلة تتناول الدنيا كيفما كانت خلافاً للكتب الوثنية فانها لا تتناول من الدنيا الا القديم الذي كانت عليه ايام الاشتراع . فتأمل

١٤ وخلاصة ما نبتغيه من الكلام في هذا الفصل هو ان الله المحب البشر ما ترك الانسان جيلا من الاجيال بلا وحي اي من ابينا آدم الى سيدنا موسى عليهما السلام وذلك بواسطة رجال صالحين كان يختارهم الله للانذار والتهذيب .

فمن هؤلاء الرجال من كانوا كباراً بمثابة الرسل كابرهيم عليه السلام ومنهم من كانوا صغاراً كاخنوخ المعروف بادريس وايوب وفي التوراة والقرآن أدلة كثيرة تدل على ان الله تبارك شأنه ما ترك الانسان بلا مرشد يهديه سوآء السبيل .

١٥ ولا مرآء ان اولئك الرجال المختارين كثار جداً يعدّون بالالوف ولذا فلم يكن من وسع التوراة ان تنبئنا عنهم اجمعين فاقتصرت على ذكر افراد قليلين على اسلوب سلسلة تاريخية من ابينا آدم الى ابينا ابرهيم الى سيدنا موسى عليهم السلام .

١٦ ولا بد من القول بان الوحي قد عمّ في الازمنة القديمة اي قبل الشريعة الموسوية جميع انحاء المسكونة بحيث لم يخلُ شعب من شعوب الارض من واحد او اثنين او اكثر من اولئك المختارين الذين كان يختارهم الله لتعليم الناس وتهذيبهم حيناً بعد حين . وفي القرآن الكريم ما ينبئ بشيء من تلك الاساليب التي كان يستعملها اولئك المختارون في سبيل الانذار والتعليم .

١٧ ولا شبهة في ان الاديان الوثنية قد تأسست على عبادة الخالق الحقيقي بواسطة اولئك المختارين لان العقل لا يسلم بان هذه الاديان هي في الاصل ارضية لا سماوية اذ ليس في الارض ما يرشد الانسان الى العبادة البتة .

١٨ ولا يشكل ما تقدم بما نراه الان في الوثنية من عبادة المخلوقات دون الخالق ـ لان ذلك عارض طرأ عليها بعد التأسيس . ولا بد وان يتعذر الخوض في امر هذا الطرؤ من وجوهه العلمية لما يستلزمه من الكلام عن احوال الانسان الاجتماعية في تلك الازمنة المتوغلة في التقدم من نحو اخلاقه وآدابه وعوائده حتى يمكن الوقوف على الحالة التي حدت به الى العدول عن

عبادة الخالق الى عبادة المخلوقات وهيات له ان يؤلّه ما كان يتراآى له انه عظيم

١٩ على ان تعاليم الوحي لا تزال حتى الان واضحة في الاديان الوثنية بدليل ما نراه من المشابهة بين تعاليمنا المنزلة وتعاليمها . واكثر ما نراه هنالك نجده لا يختلف عما لدينا الا من حيث صبغة العبادة الوثنية التي طرأت عليه فملابس الاحبار والكهنة مثلا المستعملة عند اليهود والمسيحيين حال الخدمة الدينية قلما تختلف عن ملابس كهنة الوثن . والتوراة أقرب كتاب الى الاحكام الوثنية من حيث الاستعمالات الدينية . والانجيل من حيث تعاليمه الادبية ومظنة التثليث وطرق العبادة من نحو التقشف وقهر النفس والمثابرة على الفضيلة أقرب الى الاديان الوثنية من غيره من الكتب المنزلة . والقرآن قد اسفر عن كمال الاحكام الدينية وجمع بين الوحي القديم والحديث ودل دلالة واضحة على عناية الله بالبشر قديماً . وما أقرب الزبور الى الصلوات التي يصليها الوثنيون الى التمثال الحجري .

٢٠ ويحمل اليوم المتشدقون المشابهة بيننا وبين الوثنيين على عدم صحة الوحي حال كون هذه المشابهة نفسها هي اكبر دليل على صحته لان بها تحصل لدينا سلسلة طبيعية دينية متصلة حلقاتها بين الوحي القديم والحديث . وليس لقائل ان يقول ان اديانن الالهية مأخوذة عن الاديان الوثنية — لان هذه لمن عمل الوحي اصلاً لعدم وجود دليل طبيعي يدل الانسان على العبادة فالعقل يقصر من نفسه عن الاستدلال على العبادة قصوراً كبيراً .

٢١ فلا جرم ان الانسان نفسه زاغ عن الحق وجنح الى الشر جرياً وراء طلاوة المعبودات المتنوعة . وقد تحققنا ذلك في الاسرائيليين انفسهم فانهم كانوا يميلون الى عبادة المخلوقات دون الخالق ونبيّ الله معهم والشريعة تكتنفهم

فماذا عسى ان تكون حالة الشعوب الاول حيث لا رسل ولا كتب منزلة غير ما هنالك من تعاليم ادبية تمهيداً للشرائع الرسولية

٢٢ ومن الثابت الذي لا يحتاج الى برهان انه لما دعا نبيُّ الله موسى شعبه لم يجد بينهم من استغرب الدعوة اذ كان لديهم بقية عقائد الهية محفوظة عن الوحي القديم . فقول هذا النبي اذن لشعبه « ان الله دعاني من وسط عليقة ملتهبة قائلا لي لا تخف انا اله آبائك ابرهيم واسحق ويعقوب » هو قول ديني صحيح لا يتخلله شك لانه ما رأى من كذّب قوله فكأنهم سمعوا منه خبراً يعرفونه من قبل . ولما دعا رسول الله الاعظم قومه الى عبادة الخالق لم يجد ايضاً بينهم من استنكر الامر وانما ساءهم غاية الدعوة لما هنالك من اهانة معبوداتهم واماتة شعائرهم الوثنية . اذن ان عبادة الخالق كانت معروفة عند الانسان القديم ومعرفتها توجب الاعتراف بالوحي لا محالة .

٢٣ ولا شبهة ان بقاء معرفة الخالق الحقيقي مع انصراف القلوب الى عبادة تماثيل المعبودات كاذبة دليل على ان العبادة كانت اصلاً لله وانها من عمل الوحي ولا اشكال فيها .

٢٤ ولا يظنن احد ان الانسان ادرك الادب الحقيقي معنى بدون الوحي لان الاديان باسرها الحية كانت او وثنية متجهة تعاليمها نحو تشييد المراقي الادبية وذلك مما يدلنا ان المؤسس واحد وان غاية الله الدينية هي تلك المراقي الشريفة ومعلوم ان من ينكر الوحي ينسب كل صلاح في العالم الى الانسان ولكن الذي يقف عند الحد الطبيعي المؤذن بعدم اقتدار العقل على الدلالة على العبادة يتضح له ان الفضل فيما جاء به الانسان من الاحكام الادبية التي انبعثت منها انوار الحضارة والعمران انما هو للوحي دون سواه .

٢٥ تأمل ايها الانسان في الامم القديمة التي رقت في مراقي الادب والتمدن تجد انها كانت من ذوات الاديان الكبرى التي بلغت تعاليمها الادبية شأواً ساعد على ازالة غشاء الخشونة عن العقل بحيث وقف الانسان المتديّن بتلك الاديان العظيمة وقفة الباحث عن معرفة نفسه معرفة حقيقية وعن اسرار هذه الطبيعة ونواميسها .

٢٦ فاذا تأملت فيما تقدم ثم أخذت في الاستدلال على الامم ذوات الاديان الصغرى يتحقق لديك ان للوحي اليد الطولى في سعادة الانسان الدنيوية . انظر الى الامم التي لم تبلغ من الحضارة شأواً يستحق الذكر تجدها غير مستكملة الشرائع الدينية ولا سيما الادبيه منها . وبالاستقرآء تجد انه كلما قلت الشعائر والرسوم الدينية كلما كثر التوحّش حتى انك لتجد من بني الانسان قبائل لا دين لهم اصلاً وهم في مقدمة المتوحشين يحاكون العجماوات في احوالها

٢٧ هذا واذ كان الكلام في الوحي وفضله مما يطول شرحه وكان لا بد وان يكون في الفصول التالية مباحث يتمشى اكثرها على هذا الصدد رأينا ان نكتفي بما تقدم لا سيما وان المقدار الذي جعلناه لهذا الكتاب لا يساعدنا ان نستوفي كل موضوع من مواضيعه من جميع حيثياته لانه يلزم عن ذلك ان يزيد حجمه اربعة اضعاف او اكثر .

الفصل الثاني

فيما يعضد الفصل الاول

١ اذا تعذّر علينا الاستدلال على الوحي من الطبيعة فان لنا عليه من الكتب الدينية نفسها ادلة كثيرة . وبما ان الكلام في هذا الصدد لا تستوفيه فصول هذا الكتاب كلها نكتفي بتفسير البضعة الفصول الاولى من سفر التكوين مقتصرين منها على ما هو محط التشدق عند المارقين فنقول .

٢ ان سبب الفرق العظيم في تاريخ الانسان بين كلام التوراة وبين ما يقوله العلماء[1] هو ان التوراة كتاب ديني كما هو معلوم ومن خصائص الكتب الدينية انها اذا ذكرت سلسلة تاريخية اقتصرت في الذكر على ما هنالك من الحلقات المتعلقة بالدين وأعرضت عن البقية . على ان التوراة قد أغفلت ايضاً ذكر حلقات كثيرة تتعلق بالدين مكتفية بما ذكرته لان الاباء الذين أنذروا الناس قبل الطوفان وبعده الى العهد الموسوي هم اكثر من ان يحصوا . فالتوراة اذاً لا تحسب كتاباً تاريخياً الا بالنظر الى تاريخ الاسرائيليين لانها قد دونته كمؤرخ يدون اخبار امة وحوادثها بغاية الضبط وقد ابتدأت بهذا التاريخ من ابرهيم الخليل كما هو معلوم . وعليه فان الذين يقولون ان التوراة جاءت بالتاريخ البشري اما انهم جهلاء لا يدركون ما جاء

[1] ليس لك فقط ان تقول ان الانسان وجد على الارض منذ خمسين الف عام او سبعين او مائة بل لك ان تقول بوجوده منذ ملايين من السنين وليس فيما تقوله ما يجحف بصدق التوراة . لان هذا الكتاب المقدس لم يجيء بتاريخ الانسان كما يتوهم الكثيرون وانما جاء ببضع حلقات تاريخية لرجال صالحين اختارهم الله للانذار ليس الا

هنالك وامالنهم يدركون ولكنهم يأبون الا تكذيب الكتب المقدسه انكاراً للوحي

٣ والذي يطالع التاريخ الموسوي البشري كما يزعمون يجده مقسوماً الى مدتين المدة الاولى من الخليقة الى الطوفان والمدة الثانية من الطوفان الى ابرهيم . ونجد لكل من المدتين عشرة آباء فقط فآباء المدة الاولى هم آدم وشيت وانوش وقينان ومهلئيل ويارد واخنوخ ومتوشالح ولامك ونوح واباء المدة الثانية هم سام وارفكشاد وشالح وعابر وفالج ودعو سروج وناحور وتارح وابراهيم — هولاء هم رجال التاريخ البشري الموسوي . فتأمل [1]

٤ ومعلوم ان سيدنا موسى عليه السلام وائن يكن قد اقتصر على ذكر هولاء الاباء العشرين الا انه أتى على ذكرهم في مقام تاريخي معمراً بهم الارض قبل الطوفان وبعده وهو انما فعل ذلك اتباعاً لما نهجه لانه افتتح كلامه بذكر الخليقة واحدة فواحدة الى ان وصل الى الانسان فكان عليه والحالة هذه ان يتكلم عنه كمؤرخ يتكلم عن شعوب الارض قاطبة . ذلك ما حدا بكثيرين الى القول بان التوراة قد جاءت بالتاريخ البشري فكان ذلك سبباً للتشدق على الكتب المقدسة حال كون التوراة ليس فيها ذرة واحدة من هذا التاريخ وانما جاءت بذكر افراد قليلين ممن اختارهم الله قدوةً للانذار في سياق تاريخي اقتضاه المقام

٥ ويعترض اليوم المتشدقون على نبيّ الله موسى لانه جعل للانسان عمراً طويلاً ناهز الالف وقد فاتهم ان للتوراة غرضاً أوجب تكثير سني المدة الاولى ليتحصل من ذلك ما يساعد على تشعب الانسان في الارض لان سيدنا موسى وائن يكن قد قصر كلامه على بضعة آباء استوطنوا من الارض مكاناً واحداً الا

١ لاجرم ان الذين يقولون بان سيدنا موسى جاء بالتاريخ البشري انما هم اولئك الذين يعيشون في الدنيا للانتقاد والطعن

انه أوهم كونه يتكلم عن عموم الانسان المنتشر في الارض شعوباً وقبائل .

٦ ومعلوم ان اعمار اباء المدة الاولى أطول من اعمار آباء المدة الثانية غير ان الفرق بين اعمار الفئتين لا يستلزم ما حصل من الفرق بين سني المدّتين لاننا لو اخذنا سلسلة تاريخية لعشرة اباء من اي عصر كان لما نقصت مدتهم عن المدة الثانية نقصاً يستحق الالتفات بالنظر الى ما كان لآبائها من الاعمار الطويلة . وعليه فان إعراض التوراة عن تكثير سني المدة الثانية مع احتمال اعمار آبائها للتكثير لا يبقى معه شبهة في ان الغرض من اطالة العمر انما كان لتكثير سني المدة الاولى ولا اشكال فيه [1] .

٧ ويختلف اليوم الناس في حادثة الطوفان فمنهم من يصدقها ومنهم من يكذب الخبر . اما المكذبون فهم الذين لا يريدون ان يصدقوا شيئاً من اشياء الدين ولو دلتهم عليه الطبيعة لانهم لا يعترفون بصحته ولا في حال من الاحوال . واما المصدقون فمنهم من يعتقد بان الطوفان عمّ الارض كلها ومنهم من يقول بعدم العموم وقولهم هو الاصح . نعم ان ظاهر الكلام الوارد في التوراة يدل على العموم غير ان الاسلوب التاريخي الذي نهجه موسى لا يحتمل هذه الدلالة لا سيما وان هنالك اساليب كثيرة تدل دلالة صريحة على ان الطوفان قد عمّ بقعة واحدة من الارض حيث كان يسكن الشعب الذي اقتصر موسى على ذكره اي ان الطوفان قد غرّق انسان موسى وحده لا سائر الانسان وهاك بيان ذلك .

١ ان قول العلماء الطبيعيين ان الاباء الموسويين ما عاشوا اكثر مما يعيش الانسان عادة لا يقضي بتكذيب التوراة لان العمر لم يرد فيها كحكم ديني يجب ان نعتقده وانما جاء فيها كذلك لاغراض دينية ستقف عليها في سياق الكلام

٨ لقد مر بنا ما يفيد ان سيدنا موسى عليه السلام قد أوهم كونه يتكلم عن عموم الانسان وانه انما عمّر الانسان عمراً طويلا لهذه الغاية حتى يتحصل له من ذلك زمان كاف يساعده على ما أوهم به من ان الانسان كان منتشراً في الارض شعوباً وقبائل . وغاية ما اراده من هذا الايهام هو ان يحصل على ما يخوله القول بان حادثة الطوفان كانت عمومية . فكأن الغرض من تعمير الانسان هو لهذه الغاية وحدها دون سواها . واذ ذاك يتضح لنا ان تعمير الانسان وتعميم الطوفان كليهما مجازيان .

٩ ومعلوم انه عليه السلام سوآء أوهم او صرح فلا شبهة في ان العقل يرفض كون الانسان قد استمر قبل الطوفان في بقعة واحدة من الارض لان المدة الاولى ولا ريب قد انطوت على الوف كثيرة من السنين ونبي الله موسى انما عمر الانسان فيها ليتناول منها ما يكفي للدلالة على شيءٍ من تلك الالوف الكثيرة . فلا بد والحالة هذه من ان الانسان قد تفرق في المدة الاولى حتى ملأ الارض كلها كما هي اليوم .

١٠ فاذا تأملت ايها المطالع فيما تقدم تجد ان سيدنا موسى قد بدّل من التصريح ايهاماً ومن الايهام تصريحاً اذ وضع كلاً منهما في موضع الآخر فأوهم ان الانسان كان متفرقاً وهو في غنى عن هذا الايهام اذ كان التصريح اولى لان الطبيعة نفسها تقرر التفريق والعقل يحكم بصحته . وصرح بان الطوفان كان عاماً والمقام يقتضي الايهام لانه هو نفسه جاء فيما بعد بما دلّ على عدم العموم كما سيتضح لك مما يأتي . على انك متى علمت انه قد بنى كلامه التاريخي على انسان مجتمع يتأكد لك ذلك اكثر .

١١ وهنا فلنسأل لماذا صرح حيث يجب الايهام وأوهم حيث يجب التصريح

الجواب . لا جرم انه انما فعل ذلك ليسند قوله بعموم الطوفان الى مساند وهمية اذ كان غرضه ان يقول بالعموم من جهة وبين عدم العموم من جهة اخرى ويعرف ذلك كل من ألمّ باساليب الكلام الذي عليه بنى سيدنا موسى اخبار الخليقة وحوادثها .

١٢ وما كان موسى عليه السلام ليعرض عن مراعاة الحقيقة تاركا كلامه في المدة الاولى هدفا للانتقاد . فانه ما تمالك ان تمت له فيها اغراضه الدينية التي لاجلها ترك كلامه كما رأيت حتى جاء في المدة الثانية بما كشف النقاب عن محيا الحقيقة ألا وهو بناء البرج الذي به فرق الانسان وجعله شعوبا وقبائل يفصلهم اللسان .

١٣ ولا سبيل الى القول بان بناء البرج جاء خبراً عن تفريق الانسان اقتضاء للتاريخ البشري الموسوي — لان هذا القول غير صحيح بدليل ان سيدنا موسى ما أتى ولا بذرة واحدة من هذا التاريخ . ولعمري لو كان بناء البرج جاء خبراً لتفريق الانسان حقيقة لاقتضى ان يجيء هذا الخبر في المدة الاولى لان الانسان قد تفرق فيها لا محالة . والتوراة تفيد بصريح العبارة ان سيدنا موسى قصر كلامه التاريخي على شعب واحد بل لم يتكلم ولا عن شعب وانما جاء على ذكر ابناء قليلين لشعب واحد كان على كثرة المنذرين له شريراً منبعثاً في المعاصي والرذيلة فاستحق الغرق بغضب الحي — هذا غاية مفاد التوراة .

١٤ وقد مرّ بنا ان سيدنا موسى عليه السلام قد كثّر سني المدة الاولى دون الثانية بحيث لم تبلغ سنو المدة الثانية التي هي من الطوفان الى ابينا ابراهيم الثلاثمائة حال كون اعمار ابائها تحتمل التكثير لو شاءه ولكنه لم يشأ ان يفعل ولمَ ذلك يا ترى ? لا جرم ان هنالك غرضاً ادى الى الاعراض عن التكثير .

١٥ ومعلوم ان في زمن الخليل عليه السلام كانت الارض ملآى من الانسان فاذا كان الطوفان قد عم الارض كلها فكيف صار الانسان في اقل من ثلاثمائة سنة امماً تملأ الارض . نعم ان التاريخ الموسوي مقصور كما تقدم على ذكر اباء قليلين الا ان الاعتراض هنا تمشى على عدم تكثير سني المدة الثانية لان قول التوراة بعموم الطوفان يستلزم تكثير سنيها فلماذا اذن اعرضت عن التكثير والتكثير شديد اللزوم لاسيما وان اعمار ابائها تحتمله بلا تكلف .

١٦ ومعلوم ان اقتصار النبي موسى في المدة الثانية على ذكر عشرة اباء فقط ليس مما يغني عن البحث فيما نحن بصدده لانه عليه السلام قد نسق الكلام فيهم من نحو كلامه عن آباء المدة الاولى اي انه تكلم عنهم باسلوب تاريخي تستلزم حوادثه تكثير سني مدتهم لاسيما وانها المدة التي فيها فرق الانسان وذلك مما يجعلها أحوج الى التكثير من المدة الاولى . وعليه فلا بد من البحث عن سبب اهتمامه بتكثير المدة الاولى واعراضه عن تكثير المدة الثانية لان عدم البحث عن السبب يترك كلامه عرضة للانتقاد كما هو الحاصل عند المتشدقين — وهنا نقول : اذاً على فرض سلمنا بانه عليه السلام كان رجلاً ارضياً لا سماوياً فلا نسلم انه كان جاهلاً غبياً لانه عليه سلام الله ونفعنا بشفاعاته الرسولية كان اعلم اهل زمانه واكبرهم عقلاً واسماهم فهماً فهو والحالة هذه أعلى مقاماً من ان يجعل كلامه هدفاً لمرامي مكذبين يدعون الفهم . اذن لابد وان يكون له هنالك مقاصد واغراض اوجبت مظنة الخلاف والتناقض ولابد ايضاً من الاهتمام بمعرفة هذه الاغراض الدينية حتى يتبين للعقل من وراء معرفتها ما يدله على ان هنالك اساليب سماوية محضه .

١٧ وغني عن البيان ان الانسان تفرّق في الارض قبل الطوفان لا بعده

وانما فرقه نبي الله موسى بعد الطوفان ليدلنا على حقيقة لم يساعده الغرض الديني على اظهارها في المدة الاولى . على ان عدم اهتمامه بتكثير سني المدة الثانية اي مدة تفريق الانسان الموسوي والحاجة ماسة الى التكثير يدل دلالة صريحة ان برج التفريق انما جاء مرموزاً به الى حقيقة اخفاها في المدة الاولى اضطراراً .

١٨ ولا شبهة ان النصوص الموسوية تدل دلالة واضحة ان الطوفان غرّق الانسان الذي تكلم عنه موسى النبي لا سائر الانسان المنتشر في الارض لان هذا لا يمكن ان يقام عليه دليل موسوي . ولا يشكل بقول التوراة ان الطوفان عمّ الارض كلها — لانها اعتبرت الانسان الذي تكلمت عنه انه الانسان كله وان الارض التي كان يسكنها انسان موسى هي الارض كلها ودليلنا على ذلك واضح في التوراة نفسها لانها لم تجئ بالطوفان حتى جاءت على ذكر اسبابه بان بينت خطايا الشعب التي جرّت عليهم هذا الغضب الالهي . فاذا فرضنا ان الامم جميعها ايامئذ كانت متوغلة في الخطايا فلا يمكن لنا القول ان جميع خطايا الانسان كانت مستوجبة الطوفان اذ لا بد وان تختلف خطاياه باختلافه امماً وشعوباً حتى يكون منها ما لا يستوجب الغضب الالهي ولا في حال من الاحوال . اذن ان تغريق الانسان كله في الطوفان محال .

١٩ اما ما اوردته التوراة من ان الله تعالى ندم على انه خالق الانسان وانه سبحانه رأى ان يمحوه عن وجه الارض فمآله على انسان موسى وحده لا على سائر الانسان لان كلام التوراة كله موجه هنالك الى انسان موسى دون سائر الانسان وانما جاء الكلام فيها موهماً ان الانسان منتشر في الارض للدلالة على عموم الطوفان اذ كان لها من القول بالعموم غرض ديني . والذي

يدقق في كلام التوراة يجد ان الدلالة فيها على عموم الطوفان هي دلالة وهمية لان التوراة نفسها خالية من ذكر شعب آخر غير شعب نوح . وعليه فان من يقول من المؤمنين بعموم الطوفان فهو جاهل لا يدرك شيئاً الا اذا برهن لنا ان الطوفان قد عم الارض ليغرق الارض نفسها لا الانسان لان التوراة اوضحت لنا جلياً ان الذي استوجب الغرق هو الشعب النوحي . نعم قد أوهمت ان هذا الشعب كان منتشراً في الارض الا ان كلامها فيه يؤذن ايذاناً صريحاً انه كان ساكناً في بقعة واحدة من الارض . وبما انها ما فرّقت الانسان في المدة الاولى يستنتج لنا من عدم التفريق ان الارض كانت خالية من الانسان ما عدا البقعة التي كان يسكنها شعب نوح . فالقول اذن بعموم الطوفان يلزم عنه القول بان الطوفان جاء ليغرّق الارض نفسها وهذا باطل . فتأمل .

٢٠ وهنا محط التأمل والتدقيق في كلام سيدنا موسى لانه اذا كان مراده ان الطوفان كان عمومياً حقيقة فلماذا بنى برج التفريق في المدة الثانية دون الاولى والحاجة ماسة الى بنائه فيها تأكيداً لقوله بعموم الطوفان . ولماذا بناه في المدة الثانية ولاي غرض . فان قيل انه بناه لتأكيد قوله بعموم الطوفان لما ان في التفريق ما يدل على ان الطوفان لم يبق على انسان على وجه الارض . قلنا . اولاً ان في تفريق الانسان في المدة الاولى دلالة كبيرة على عموم الطوفان اذ لا يبقى معها شبهة بعد قول التوراة بمحو الانسان عن وجه الارض في ان الطوفان كان عاماً . وعليه فان بناء البرج قبل الطوفان أدل على العموم من بنائه بعده . ثانياً ان حادثة البرج الواردة في التوراة تدل دلالة صريحة على انها هي السبب الوحيد الذي بعث على التفريق وان الانسان لم يتفرق من قبل وانه لولاها لما تفرّق قط وكل ذلك واضح من كلام التوراة عن برج التفريق

فراجعه هناك . ثالثاً ان ما تقدم في الايضاح الثاني يقطع بفصل الخطاب في ان التوراة ما فرّقت الانسان في المدة الاولى وبما ان الانسان تفرّق فيها لا محالة فلا يبقى شبهة في ان كلما جاءت به التوراة من اخبار الانسان وحوادثه وباقيه في تلك المدة انما هو خاص بانسان موسى وحده ولا اشكال فيه . رابعاً اذا تأملت فيما تقدم يتضح لك جلياً ان بناء برج التفريق في المدة الثانية لم يكن للدلالة على ان الطوفان كان عاماً وانما جاء للدلالة على عدم العموم خلافاً لما يتوهم المؤمنون . فلا شبهة في ان بناء البرج حادثة مجازية مرموز بها الى ان الطوفان كان مكانياً . خامساً لو كان برج التفريق حقيقياً لزم عن ذلك تكثير سني المدة الثانية لان الحاجة الى التكثير في مثل هاته الحال مهمة جداً فلا يسوغ الاعراض عنها وعليه فان الاعراض عن التكثير كاف للدلالة على ان البرج غير حقيقي وان الطوفان غير عمومي . فتأمل .

٢١ ولزيادة الايضاح نقول: لا يخفى ان مسألة التفريق نفسها ليست من خصائص التوراة ولا من وظائفها بل كل ما يخال لنا من متعلقات التاريخ البشري انه من خصائص التوراة غير صحيح لان التوراة لم تأت على ذكر شيء من ذلك البتة وانما توهم مفسرو التوراة قديماً ان التوراة جاءت بالتاريخ البشري ثم جاء علماء المسيحيين بعدهم فحذوا حذوهم وهكذا اعتقد الناس بما جاءت به اوهام مفسرين اعتمدوا على ظاهر الكلام دون باطنه وما ذلك الا لان عقولهم لم تكن قادرة على كشف غوامض اساليب الوحي فضلاً عن ان ضيق نطاق المعارف ايامئذ كان يساعدهم على الاكتفاء بتفسير الظاهر من معاني الكتب الدينية .

٢٢ ولا يخفى ايضاً انه لو كان التفريق من خصائص التوراة للزم عن

ذلك ان تجعله في المدة الاولى ثم تعود اليه في المدة الثانية ان كانت عمومية الطوفان صحيحة وبذلك يكون لها ما يعضد قولها بعموم الطوفان وينفي كل تأويل . وقصارى الكلام انه لو كان المراد الموسوي ببناء برج التفريق في المدة الثانية الدلالة على ان حادثة الطوفان كانت عمومية لما خلت المدة الاولى من التفريق والمدة الثانية من تكثير سنيها . اذن ان خلو المدة الاولى من التفريق دل على ان موسى تكلم عن انسان يقطن في مكان واحد من الارض وخلو المدة الثانية من التكثير دل على ان التفريق امر رمزي لا حقيقي اي ان النبي موسى أشار ببناء برج التفريق الى ان الانسان لم يكن متفرقاً من قبل ومراده بهذه الاشارة الدلالة على ان الطوفان كان مكانياً لا عمومياً . وواضح ان تفريقاً يجيء بعد الطوفان ومنطوقه انه اول تفريق حصل لا يبقى معه شبهة في انه جاء للدلالة على عدم عموم الطوفان .

٢٣ ومجمل الكلام ان التوراة كما تقدم ما فرّقت الانسان في المدة الاولى وبعبارة اخرى ما أوجدت فيها شعوباً غير الشعب الذي كان سيدنا نوح منه غير ان عدم ايجادها لسائر شعوب الارض لا يدل على عدم وجودهم ايامئذ وانما يدل على عدم عموم الطوفان لان عدم الايجاد انما جاء للدلالة على ذلك ولا شبهة ان كل ما جاء في التوراة من الاخبار المتعلقة بالطوفان يؤذن بانه قد كان من غرض النبي موسى ان يقول بعموم الطوفان بدون ان يكون هنالك ما يعضد هذا القول . وهذا كله واضح في التوراة فلا يحتاج الى تعب. اعمل الفكرة قليلا فيما جاءت به من اخبار المدة الاولى تجد قولها بعموم الطوفان محمول على ما أوهمت به من ان الانسان كان مالئ الارض في حين انك لا تجد هنالك نصاً اوشبه نص يدل على شيء مما أوهمت به . فتأمل .

٢٤ ولا مراء ان كلام التوراة في المدتين وخصوصاً في المدة الاولى شديد الغموض يتمشى اكثره ان لم نقل كله على رموز هي في نفس الامر ليست باشياء حقيقية كالحادثة الفردوسية مثلا فان الثمرة التي اعطتها امنا حواء لابينا آدم ليست الا اسلوباً الهياً جاء مرموزاً به الى ان السعادة والتعاسة بيد المرأة . ولسنا بقادرين هنا ان نستوفي الكلام على الاساليب الدينية الموضوعة في اخبار مدتي الخليقة — لان هذا الاستيفاء يستغرق مجلداً قائماً بذاته . وانما نقول ان كل ما كتب هنالك كتب لتعليمنا وتهذيبنا ومن شأن التعليم والتهذيب ان ينطويا على اساليب مجازية رمزية تشف عن منافع . وعليه فلا يسوغ لنا اذا دلتنا الطبيعة على خبر ديني انه غير صحيح ان نبادر حالا اما الى تكذيبها واما الى تكذيب الدين لان مبادرة من هذا النحو هي الجهل بعينه .

٢٥ فانت ايها الانسان المؤمن بالله ورسله يمكن لك ان تقول بمجازية كل خبر ديني قررت الطبيعة كذبه ويظل ايمانك في موضعه ولا جناح عليك ولا إثم لانك لا تعلم لاي غرض جاءتك الكتب الدينية بذلك الخبر الغير الصحيح . فاذا قالت لك الطبيعة ان الطوفان مثلا غير صحيح فلك ان تقول معها بعدم صحته ولا حرج لان غاية ما علمته من حادثة الطوفان ان الله ينتقم من الاشرار فاذا كان الطوفان غير صحيح فالانتقام صحيح لا محالة . فالدين اذن باق في موضعه السماوي نعم قد انبأنا بخبر غير صحيح الا انه انبأنا به في معرض خبر آخر صحيح آئل لمنفعتنا . ومتى علمت ان الدين ليس في نفس الامر الا تعليماً جاء لتهذيب الانسان وردعه عن الشر وميله الى الخير أيقنت انه لا يخلو من اخبار غير صحيحة أدت اليها اساليب التهذيب والردع والميل الى آخر ما هنالك من الاغراض الدينية . فتأمل

٢٦ و بالجملة فاننا نحن معاشر المؤمنين نعتقد الاخبار الدينية لما وراءها من التعليم الديني لا لذاتها لانها عارية بذاتها مما يتعلق بالايمان . فانت تقول لي ان الطوفان مثلاً صحيح وانا اقول لك غير صحيح وتقول ايضاً ان الشيطان موجود وانا اقول غير موجود واذا قلت ان الله جبل الانسان الاول من تراب الارض امكن لي اذا اثبتت الطبيعة مذهب النشوء ان اقول بل نشأ من القرد وفي كل ذلك فليس لك ان تكفرني فان فعلت فانت جاهل لا تدرك ما هو الدين لان الكافر هو الذي يكذّب الدين نفسه بان يحمله كله على ما قررت الطبيعة منه كذبه ويقول لها صدقت فانك تقولين الصحيح وما الدين الا احديث خرافة . ولكن الذي يقول بصدقها ويصرف الخلاف بينها وبين الدين الى حيثياته المنزلة هو افضل منك لانك ما تعلمت الا ان تكذب احد الاثنين فانت اليوم تكذّب الطبيعة ولكن سيأتي عليك يوم تصدقها وتكذّب الدين كما هي الحال بين الناس من علماء وجهلاء لان المصدقين للاثنين قليلون جداً وما ذلك الا نتيجة عدم البحث في التعاليم الدينية . فكتبة الفرنسيس الذين اذاعوا الكفر لم يقم بينهم من بحث في الدين بحثاً صحيحاً فكان تكذيبهم له نتيجة جهلهم به . انظر الى كتابات نبي الله موسى عن الخليقة تجدها قد فتحت باباً وسيعاً لتكذيب الكتب المقدسة ولكنك اذا ادركتها يتضح لك انها صارت كذلك لعدم ادراك معانيها . فالبحث اذاً في الكتب الدينية في هذا الزمان الخبيث من اجلّ المباحث لان الحاجة اليه شديدة .

٢٧ واخالك الآن تستعظم ما ساقنا الكلام اليه من التعرض لمذهب النشوء فاقول لك انك اذا رأيت الطبيعة تقرره فاحذر ان تكذّب الدين ولك ان تقول به ولا تخش اثماً . ولا يشكل بان هذا المذهب يزعزع اركان الدين

كما يتوهم الناس وانه عماد الكفر — لان العلماء الطبيعيين قد كذبوا الدين كما تقدم بلا بحث اي بمجرد ما رأوه من الخلاف بينه وبين الطبيعة — وهنا يجب ان تعلم ان الخلاف كبيراً كان ام صغيراً هو سواء لدى البحث في الدين فتكذيب وجود أب اول للانسان ليس باعظم من تكذيب الطوفان مثلاً لان البحث عن اساليب الوحي يوصلنا الى حيث نرى الغرض الديني الذي لاجله بدا الخلاف وهذا الغرض مهما تعدد هو واحد بحسب طبيعته كبيراً كان أم صغيراً . فالقول بعدم صحة الطوفان وبنشأة الانسان من القرد كلاهما سواء ليس فيهما كبير وصغير اوعظيم وحقير لان الطوفان اظهر لنا ان الله عزيز منتقم وفي جبلة الانسان الاول من تراب الارض ونفخ نسمة الحياة فيه دلالة على محبة الله للانسان وفضله عليه فاذا قلنا ان حادثة الطوفان مجازية يسوغ لنا ايضاً القول بمجازية الجبلة والقولان بمثابة واحدة ليس لاحدهما قوة اكثر على ملاشاة الايمان فان ظل الايمان محفوظاً في القول الاول يظل ايضاً محفوظاً في القول الثاني ولا اشكال فيه لان كلاً منهما يدل على غاية الهية وغايات الله تعالى واحدة مهما تنوّعت . فانت تظن ان مذهب النشوء يزعزع الدين ويلاشيه وظنك ليس في موضعه الديني لاننا نعتقد حادثة جبل الانسان من تراب الارض لما فيها من الدلالة على محبة الله وفضله لا لذاتها . فاذا قالت لنا الطبيعة يوماً ان الانسان نشأ من القرد هل ترى تخسر الدلالة المذكورة وهي بادية في الانسان نفسه سواء كان مجبولاً من التراب او ناشئاً من حيوان ادنى ألا تشعر بنفسك يا انسان ان بك من القوة الغير المدركة ما يبعدك عن الحيوان الاعجم بعد السماء عن الارض . افرض انه تسنى للطبيعة ان تريك كون الانسان نشأ من القرد فهل من وسع هذا الخبر الطبيعي ان يسلب ذرة واحدة من منزلة الانسان

التي قرّر رفعتها الكتاب المقدس . اذن فعلى م تجعجع وتطنطن وتقوم وتقعد عند كل خلاف يبدو بين الطبيعة والدين في حين ان النشؤ نفسه على كونه اعظم خلاف ليس من الخلاف بشيء، ألا ترى ان الانسان هو هو في كلا الحالين اي سواء كان من الجبلة او من النشأة لان الفاعل واحد . تأمل هنا قليلاً تجد ان الطبيعة غير قادرة ان تمس غاية واحدة من الغايات الالهية المودعة في الكتب المقدسة فان كان هنالك من مسيس فانما هو واقع على الاساليب التي بها تألفت الادلة على هاتيك الغايات الالهية . فتأمل

٢٨ وخلاصة القول ينبغي لك يا انسان اذا قالت لك الطبيعة ان الله ما جبل الانسان بيده وانما انشأه من حيوان أدنى ان تخضع لقولها وتقول بصحته ولكن بدون ان تكذب الدين لان اكثر الاخبار الدينية ان لم نقل كلها مجازية جاءت لاظهار مقاصد الله وغاياته . فدار علينا ويمين الله ان نمتهن الدين ونحكك به لاقل خبر طبيعي يشف عن خلاف يمثله لنا الجهل . أما آن لنا ان نفطن للبحث فيه لعلنا نرى هنالك ما يحقق لنا كوننا نكذبه بلا سبب أبهذا المقدار اضحى الدين رخيصاً ان هذا لامر غريب

٢٩ تعلم يا انسان انه قد مرّ على التوراة نحو من خمسة وثلاثين قرناً ولم يقم في كل هذه القرون من اعرب عن الفصول الاولى لسفر التكوين حتى قام كتاب « الدليل الشرقي » فاعرب عن شيء مما مست الحاجة اليه منها . ولسنا نقول ذلك لنبين ان هذا الكتاب ما خلق الله على شكله . كلا . فقد سبقه كتب كثيرة لو تعمدت البحث في غوامض الكتب المنزلة لجاءت بأحسن مما جاء وانما قصرت البحث فيما قاله المفسرون الذين فسروا الكتب الدينية بحسب الظاهر من معانيها كمن يفسر الماء بالماء . والغريب ان الجميع

قيدوا عقولهم بتفاسير القدماء فلم يسوّغوا الخروج عما قاله المفسرون واغرب من ذلك ان التفاسير القديمة كائنة عند المؤمنين بمثابة الكتب المنزلة بحيث انصرفت الاذهان اليها حتى لم يبقَ بينهم من يريد ان يسمع تفسيراً آخر فان سمعوا حسبوه كفراً غير فاطنين ان الكفر ناشئ عن التفاسير القديمة .

٣٠ ولم يقم بين علماء الاديان من علم تعليماً وافياً بحاجات الانسان الدنيوية غير الامام الغزالى المعروف بحجة الاسلام فانه راعى بتعاليمه احكام الدنيا ووفق بين الدين والعلم وقد جاء توفيقه من حيثيات دينية صحيحة خالية من التكلف خلافاً للموفقين من رؤساء الاديان في هذه الايام فانك لتجد توفيقاتهم كلها تكلفاً عارية من الاسناد الى حيثيات دينية يقبلها الطبع الديني . وقد اتينا في كتابنا « العصر الجديد[1] » في الكلام عن القضاء والقدر على نزر قليل من تعاليم الامام الغزالى رضي الله عنه كمثال تدل به المطالعين على فضل هذا الامام العظيم .

٣١ وتقول اليوم الكنيسة الرومانية بعدم عموم الطوفان غير ان قولها هذا وان يكن بمحله الا انه خال من الاسناد الى حيثيات دينية صحيحة . ومعلوم ان توفيقاً من هذا النحو لا يفيد شيئاً لاننا اذا قلنا للمكذب ان الطوفان غير عمومي ولم نبين له عدم العموم من حيثياته الموسوية الصحيحة يظل تكذيبه في موضعه لانه يسمع باذنه قول التوراة بعموم الطوفان فلا يقنعه قولنا العاري من الاسناد

٣٢ وغاية ما نريده من كل ما اوردناه في هذا الفصل هو ان المدول

(١) ان هذا الكتاب كائن اليوم في احدى المطابع المصرية وقد طبعت منه بضع ملازم بعد ان مر عليه فيها حول كامل قضيناه مع صاحبها بما لاطائل فيه وهو اليوم موقوف فيها كعصفور في فخ وسننقله منها بعد الفراغ من طبع هذا الكتاب الى مطبعة اخرى ان شاء الله تعالى

عن التفاسير القديمة الى البحث في اسباب الخلاف بين الطبيعة والدين اشد يد اللازوم ولا سيما في هذا الزمان الخبيث وليعلم كل مطالع ان البحث الصحيح يوصلنا الى حيث يتضح لنا جلياً ان ليس للطبيعة ان تمس الدين البتة وان الكتب الدينية تشهد لنفسها بذات طبيعتها انها منزلة من لدن الله . ولا يشكل ذلك بتكذيب علماء الطبيعة لها — لان هولاء قد كذبوها بلا بحث وفي ذلك ما فيه من الضلال .

٣٣ ولا يخفى ان البحث في الكتب المنزلة ليس بالامر الصعب وانما الذي يجعله صعباً انصراف الاذهان الى التفاسير القديمة . فان لم نصرف الاذهان عنها الى ما به الوقوف على الحقيقة فلا نستطيع الوصول الى الصحيح بل نظل في موضعنا كيفما سرنا في البحث . انظر كيف ان المؤمنين يرون القول بعدم عموم الطوفان خروجاً عن منطوق التوراة في حين لو صرفوا اذهانهم عن التفسير القديم لرأوا التوراة تنطق بعدم العموم بافصح عبارة وهم انما يرون ذلك بمجرد صرف الاذهان فقط اي بلا تعب . ألا ترى ان التوراة قد اخلت سائر اماكن الارض من الانسان عمداً فكيف يصح اذن ان نقول بان الطوفان تجاوز المكان الذي كان يسكنه شعب نوح فتأمل .



الفصل الثالث

في السماء

اذا سمع الجهلاء من المؤمنين ان العلماء يقولون ان هذا الفضاء لا نهاية له بادروا في الحال الى تكذيبهم لانهم يعتقدون بوجود سماء تسد الفضاء . ولايضاح الحقيقة نمثل للمطالع فئة مؤمنة تسأل معلماً دينياً قديم العهد وهو يجيبها كما ترى .

سؤال . اي الاقوال نكذب الدينية أم العلمية .

جواب . ليس لكم ان تكذبوا قولاً صحيحاً وانما يكذب الغير الصحيح

س . أيجوز ان نكذب قولاً دينياً اذا ابدت لنا حقائق علمية تنقضه

ج . اذا كذبتم قولاً دينياً منقوضاً بحقيقة علمية فالمكذب ليس من الدين بشيء

س . كيف لا يكون من الدين وهو مذكور فيه

ج . ليس كل مذكور في الدين هو من الدين

س . لماذا جاء الدين باشياء ليست منه

ج . لغايتين كبيرتين الاولى ليكون له سلطان على الارض لان السؤدد الديني يستلزم مجاوزة الاحكام الدينية الى الاحكام المدنية . والثانية ليكون له ما يساعده على تبليغ مقاصد الله للانسان لان هذا التبليغ لا يتسنى للدين الا باساليب مجازية خاضعة لاحكام العقل حتى يتناولها الانسان كانه يتناول شيئاً من اشيائه الخصوصية

س . هل من وسع العلم ان ينقض شيئاً من هذه الاساليب

ج • قد يمكن للعلم ان ينقضها كلها

س • اذا نقض العلم هذه الاساليب أفلا يقع النقض على الدين نفسه

ج • ان الاساليب الدينية للدين كالصدف للدر اي ان الله تبارك شأنه استخدم هذه الاساليب كوعاء اودع فيه مقاصده فاذا استطاع العلم ان ينقضها فلا يستطيع ان ينقض ماهو مودع فيها من الجوهر الديني

س • هل يمكن لنا ان نعتقد اعتقاداً صحيحاً بان العلم لا يستطيع ان ينقض الجوهر الديني

ج • كيف لا وليس للعلم في مثل هاته الحال وصول الى الدين البتة

س • ما قولكم بابينا آدم أاسلوب هو أم أب حقيقي

ج • قد يمكن ان يكون الخبر الديني عنه اسلوباً اما هو نفسه فلا اذ لا بد من وجود انسان اول . ويظهر لي من سؤالكم هذا انكم لفي ريب فهل طلبت الطبيعة منكم آدماً آخر غير آدمكم

س • هي تطلب منا بعض الطلب لا كله ونخشى ان تطلب يوماً الكل فماذا عسى ينبغي ان نجيبها اذا فعلت

ج • دعوها تكثر من الآدمين فليس ذلك مما يمس الدين

س • كيف ذلك

ج • ان الوحي القديم علم بالانسان الاول قبل ان جاء سيدنا موسى لان ابانا آدم كان معروفاً من قبل ولما جاء النبي موسى جعل ابانا آدم اباً اولَ لشعب واحد ذكر منه عشرة آباء فقط منهم آدم نفسه الا انه جاء على ذكره في اسلوب دل على انه ابو البشر كله وهذا الاسلوب هو مجازي صرف غير ان مجازيته لا يلزم عنها تعدد الآدمين لانها مصروفة الى حيث تشف عن

مقاصد الهية . على ان الاب الاول نفسه قد يمكن ان يكون اكثر من واحد وقد يمكن ان يكون واحداً فقط وسواء كان واحداً او اكثر فالمقام الديني ولا سيما الموسوي لا يحتمل اكثر من واحد لان الدين لم يجئ بتاريخ الانسان وليس من شأنه ان يذكر الاب الاول وانما ذكره سيدنا موسى لاغراض دينية لا تعلق لها بان اذب الاول واحد أو اكثر ولا بالتاريخ البشري ايضاً اذ ليس هنالك تاريخ . وعدا ذلك ان الاخبار الفردوسية وسائر ما رواه سيدنا موسى عن ابينا آدم كل ذلك جاء من باب المجاز لا الحقيقة وانما جاء كذلك ليشف عن غايات دينية متنوعة . فانتم اذا قالت لكم الطبيعة ان آدمكم اكثر من واحد فصدقوها لان قولها لا يمس الدين وهي تقول الصحيح لان شأنها غير شأن الدين فالاخبار الدينية ليست باخبار طبيعية حتى نرجو صحتها وانما نرجو صحة ما انطوت عليه من المقاصد الالهية الآئلة لتعليمنا وتهذيبنا . وبالجملة فكما ان الطبيعة لا تستطيع الدلالة على الوحي كذلك لا تستطيع ان تنقضه لان كلاً منهما يعمل من حيثية لا تعلق لها بالآخر فاذا أخبرت الطبيعة عن الانسان الاول فانما تجيء بالخبر الطبيعي الصحيح الذي لا تعلق له بالدين ولكن اذا اخبرنا الدين عنه فانما يخبرنا من حيثيات دينية لا تعلق لها بالطبيعة فاذا تأملتم هنا قليلاً يتبين لكم وجه الخلاف بين الاثنين

س • ما اقل عقولنا فاننا كنا نحسب ان تصديقنا للطبيعة يلزم عنه تكذيب الدين فجزاكم الله عنا كل خير . فالآن نلتمس من فضلكم سؤالاً واحداً . فما قولكم بالسماء لان الطبيعة تقول بعدم وجودها ونحن نكذبها والذين صدقوها كذبوا الدين

ج • لا أرى في تصديقها ما يلزم عنه تكذيب الدين ولا ارى

تكذيبكم لها الا دليلاً على الجهل لان كل ما تقوله الطبيعة هو صحيح لا يتخلله شك . فاحذروا ان تبنوا خلافاً بينها و بين الدين لان الدائرة في مثل هاته الحال انما تكون على الدين و يا للتعاسة الدينية يوم يصبح الدين ونصراؤه الجهلاء

س · تعلمون يقيناً ان التعاليم الدينية قد قررت بصريح العبارة كون السماء شيئاً وجودياً والعلماء الطبيعيون يقولون ان هذا الفضاء لا نهاية له فاين السماء اذن ان لم تكن في هذا الفضاء الذي اودع الله فيه جميع الكائنات

ج · اذا كانت السماء شيئاً وجودياً كسائر الكائنات فانكم لتجدونها في عداد الكائنات المذكورة في سفر الخليقة لان سيدنا موسى جاء على ذكرها كلها واحدة فواحدة

س · لقد فتشنا عليها بين افراد الكائنات المذكورة في سفر الخليقة فوجدناها لان سيدنا موسى يقول : وخلق الله الجلد في اليوم الثاني وسماه سماء

ج · ان الجلد المذكور في اليوم الثاني من ايام الخليقة الستة هو الهواء وانما سمي سماء لعلوه وكل ما علاكم فأظلكم يسمى سماء

س · بماذا نستدل على ان الجلد هو الهواء

ج · تستدلون على ذلك مما وصف به نبي الله موسى الجلد واكبر دليل على ان الجلد هو الهواء خلو ايام الخليقة من ذكره فلو لم يكن الهواء هو الجلد بعينه لجاء ذكره في عداد المخلوقات التي خلقها الله في هاتيك الايام

س · هل يصح ان يكون عدم مجيء ذكر الهواء في ايام الخليقة دليلا على انه هو الجلد الوارد ذكره في اليوم الثاني

ج · كيف لا . لانه اذا لم يكن الجلد هو الهواء فمتى اوجد الله الهواء . ألم يوجده مع ما أوجده في الستة ايام التي عندما تمت واستراح الله

من جميع اعماله الكونية التي جاء الكتاب على ذكرها فرداً فرداً قال الكتاب « فأكمت السموات والارض وكل جندها » فكيف يقول الكتاب بالاكمال اذا لم يكن الهواء كائناً حينئذ لا سيما وهو أهم جند الارض وكيف عاش الحيوان الذي وُجد في اليوم الخامس اذا لم يكن الهواء وجد قبله او كيف يسكت الكتاب عن ذكر الهواء الذي هو كما تقدم أهم جند الارض ان لم يكن هو الجلد المذكور في اليوم الثاني . ثم اذا لم يكن الهواء هو الجلد فأين الجلد اذن وما هو هذا الجلد يا ترى ومتى خلق الله الهواء . لا جرم ان خلو ايام العمل الالهي من ذكر الهواء وذكره واجب لا يبقى معه شبهة في ان المراد الموسوي بالجلد هو الهواء

س ما هو المراد بالسموات في قول الكتاب (فأكمت السموات والارض وكل جندها)

ج المراد بها الكائنات التي فوقنا اي الشمس والقمر وسائر النجوم وانما سمّاها بالسموات لعلوّها فكأنه سمى كلاً من اجرام الكون ما عدا الارض سماءً وانما فعل ذلك بالنظر الى الانسان الذي يرى جميع الاجرام فوقه الا الارض لوجوده عليها .

س بناء على ما اوضحتموه يتضح جلياً ان ايام الخليقة خالية من ذكر السماء فهل السماء اذن ليست بشيء وجودي .

ج اذا كان مرادكم بالشيء الوجودي ان السماء بناء معترض في الفضاء فذلك غير صحيح .

س ما هي السماء في عرفكم الديني

ج هي مقر العرش الالهي

س اذن اين هي اماكن سعادتنا الاخيرة . هل الكتب الدينية تضحك علينا

ج احذروا ان تأخذكم الحدة تلقاء التعاليم الدينية فانها لم تنطق الا بالصدق في جميع احوالها فان كنتم قد فتشتم هذا الفضاء كله فما وجدتم اماكن السعادة فلا يخلو الامر من ان يكون قد فاتكم تفتيش اماكن كثيرة منه .

س ماذا تعنون بذلك وخلو الفضاء من السماء بادٍ كالصبح لذي عينين فهل انتم ايضاً تضحكون علينا .

ج ان من يفتش هذا الفضاء رجاء ان يجد السماء المشتملة على اماكن السعاده يعد تفتيشه بمثابة التفتيش عن الذات الالهية . ولعمري لو تأتى لكم ان تركبوا مركبة جوية تخرق بكم هذا الفضاء كله لما انتظر ذوو العقول السليمة منكم ان يروا السماء في طريقهم لان مثل هذا الانتظار يرفضه العقل وتنفيه الاحكام الدينية نفسها .

س اذن اين هي اماكن سعادتنا الاخيرة التي على رجائها نموت .

ج هي عند الاله الذي اليه المصير .

س ما هي

ج هي احوال روحيه كائنة في الوسع الالهي الذي لا تدركه عقولنا

س صفوا لنا هذه الاحوال الروحية لعلنا ندرك منها شيئاً تطمئن اليه نفوسنا فنبيت أمنين على سعادتنا الابدية

ج لا نستطيع وصفها باكثر مما قاله سليمان الحكيم (نفوس الصديقين في يد الله ولن يلامسهم عذاب)

س ما هي السماء التي ذكرتها الكتب الدينية وجعلتها ميعاداً للوعد الديني بالسعادة الابدية اذا كان ما قلتموه صحيحاً

ج هي عبارة عما قلناه

س اذاً لماذا ذكرتها الكتب الدينية بكونها شيئاً وجودياً حسياً بمعنى انها بناء يعترض في الفضا فيسده وانها ذات طبقات ولها ابواب ومفاتيح

ج ان لمجيء ذكرها كذلك اسباباً دينية اهمها تعذر وصف اماكن السعادة الاخيرة بدون جعل السماء كما علمتم

س لماذا يتعذر وصف اماكن السعادة بدون جعل السماء كذلك

ج لان اماكن السعادة الاخيرة غير مدركة في ذاتها فهي محتاجة الى جعلها شيئاً حسياً يدركه العقل

س لا نسلم معكم بان العقل لا يدرك وصف الاشياء الروحية

ج انتم تعلمون ان الوعد بالسعادة الاخيرة هو دعامة الدين اذ لا يمكن ان تقوم ديانة في العالم البشري بدونه . وبما ان هذا الوعد لا يقبله العقل ولا ترتاح اليه النفس ما لم يجر مجرى الوعود الدنيوية بان يوصف شكل الموعود به وتوضح كيفيته وتذكر مشتملاته مما يتم به الاستلذاذ بالوعد وتطمئن النفس الى ما هنالك من صحة النوال — جاءت الكتب الدينية بذكر السماء على نحو ما علمتم

س ألم يكن من وسع التعاليم الدينية ان تصف لنا الحقيقة باسلوب آخر صحيح يفي بالغرض

ج لما كانت اماكن السعادة الابدية هي يد الله ذات الآلاء المالئة الكون باسره وكان الوعد بها على نوع تمثل به كيفيتها وفقاً لمطالب العقل

البشري متعذراً كانت السماء هي الاسلوب الوحيد الذي يفي بالوصف وفقاً لمطالب العقل

س اذاً ليست السماء بشيء وجودي كما بينت لنا الكتب الدينية

ج كلا .

س كيف ساغ للتعاليم الدينية ان تمثل لنا حقيقة لا اصل لها

ج ان الدين قد مثل لكم الحقيقة الدينية بعينها لان اماكن السعادة الاخيرة هي حقيقة ثابتة لا يتخللها شك . ولكن بما ان العقل البشري كما تقدم يتعذر عليه ان يتصور اماكن روحية ذكرها الدين بما يشبه اماكن الانسان الدنيوية وحاشا للدين ان يذكر شيئاً لاصحة له

س زيدونا تحقيقاً حتى نتأكد ان ما تقولونه صحيح

ج متى عرفتم ان المراد الديني بذكر السماء تمثيل اماكن السعادة على نوع تنبسط له النفوس تحقق لكم ان ذكر السماء انما جاء عبارة عن هذا الاماكن . والمعنى ان اماكن السعادة نفسها قد سميت سماء فحيثما تجدون ذكر السماء في الكتب الدينية فالمراد هنالك الميعاد السماوي لا محالة اللهم الا اذا ذكرت لغرض آخر كتعظيم قدرة الخالق في قول الكتب الدينية (رب السموات والارض) فيكون المراد حينئذ الكون السماوي اي الشمس والقمر وسائر النجوم ولا اشكال في كل ذلك

س اذا كان الامر كذلك فلماذا انكر العلماء الدين لانهم ما وجدوا السماء مركوزة في الفضاء

ج ان العلوم الدنيوية لا تجعل رجالها علماء دينيين فهي شيء والعلوم الدينية شيء اخر . وعليه فان انكارهم للدين نتيجة جهلهم بالتعاليم الدينية واساليبها

وما يتخللها من المرامي البعيدة المختلفة الشؤون . ومن الواضح ان الدين وان قال ان اماكن السعادة الاخيرة هي ذات طبقات ولها ابواب ومفاتيح الا انه لم يقل انها كائنة في الفضاء الذي قرر العلماء خلوه منها بل لا يوجد في الدين كله ما يدل على انها كائنة في موضع يقدر الانسان ان يصل اليه بعلومه . فغاية ما عرفناه عنها من النصوص الدينية الصريحة انها كائنة عند الله . فهل يسوغ لنا والحالة هذه ان نقول : فتشنا هذا الفضاء كله عن السماء فما وجدناها . أتظنون ان الانسان اذا قدر ان يخرق بعقله هذا الفضاء باسره يقدر ان يخرق مكاناً فيه نفوس الابرار والصديقين ونفوسهم في يد الله . ولعمري لو كان علماء الطبيعة علماء دينيين ايضاً لما انتظروا الطبيعة حتى تنبئهم بعدم وجود السماء بل كانوا استدلوا على عدم وجودها من الكتب الدينية نفسها لانه كما تقدم ان الكتب الدينية خالية مما يفيد ان في الفضاء بناء يسده

س كيف ذلك ووجود السماء في هذا الفضاء مقرر في اذهاننا دينياً

ج انتم تقولون انهم كذبوا الدين لانهم ما وجدوا السماء مركوزة في الفضاء وتكذيبهم هذا ليس فقط محمولاً على ما هو مقرر في الاذهان بل هو محمول على ما يدل على ان في الدين نصاً يؤذن بوجودها كبناء مركوز وهذا غير صحيح على انه قد كان الخليق بهم ان يستدلوا على الصحيح من خلو سفر التكوين من ذكر السماء في عداد ما اوجده الله في الايام الستة . فاذا تأملتم هنا قليلاً يتأكد لكم جهل العلماء الطبيعيين بالدين لانهم لو لم يكونوا كذلك لاستدلوا على الحقيقة قبل ان تدلهم الطبيعة

س لا نظن ان العلماء الدنيويين يجهلون التعاليم الدينية لان علماء الدين انفسهم لا يستدلون على عدم وجود السماء من سفر التكوين او من عدم

وجود نص صريح في كتب الدين فجميعهم يقولون بوجودها وفقاً لما هو مقرّر في الاذهان دينياً نعم ان منهم من جاروا علماء الطبيعة في قولهم بعدم وجود السماء الا ان مجاراتهم خالية من الاستدلال وانما هي لمجرد دفع الشر عن الدين ومنهم من لا يزال يكذب الطبيعة ورجالها حتى الان

ج انتم ليس عندكم علماء دينيين اذ لو كان عندكم علماء لما تغلبت الطبيعة على الدين حتى فشا الكفر بينكم

س صدقتم لانهم قاوموا فيما مضى علماء الطبيعة مقاومة شديدة فكانوا يلقونهم في السجون ويحاكمونهم ويعذبونهم زاعمين انهم جاؤوا باخبار تضاد الدين . وقد سرنا الان ايضاحاتكم عن السماء فنشكر لكم اراحة ضمائرنا الا انكم احزنتمونا من جهة عدم وجود السماء فحسبنا ذلك خسارة عظيمة . فهل ترى يحصل الابرار الصالحون في تلك الاماكن الروحية على السعادة التي كنا نعتقدها باعتقادنا بوجود السماء من كل ما ذكرته لنا الوعود الدينية

ج ان كلامكم هذا هو الذي حدا بالاديان الى التعليم بوعود يرتاح اليها العقل البشري لان الانسان لا يقدر ان يتصور ذرة واحدة من السعادة العتيدة الا بالتعبير عنها بما يقدر العقل ان يدركه مما لا يتسنى الا بالاسلوب الذي جاءت به الكتب الدينية . ولو يقدر الانسان ان يدرك كنه السعادة السموية لما احزنكم عدم وجود السماء بل كان سركم اكثر لان السعادة الاخيرة وافرة للصديقين . فغاية ما يمكن ان نقوله في هذا الصدد هو ان السعادة المعدة للصالحين هي اعظم كثيراً مما هو مقرر في عقولكم لان كل ما تشتهيه الانفس هنالك وجميع ما كانت تشتهيه في الحياة الدنيا — كل ذلك وافر في السعادة العتيدة ولكن ليس بنوع جسدي بل بنوع روحي اي كل ما يلذ

الانسان جسدياً في هذه الحياة يجده هنالك روحياً . ومعلوم ان اللذة واحدة في كلا الحالين وانما تختلف الغاية وبما ان الغاية روحية فملذات السعادة الاخيرة خالية من كل كدر فهي صفاء خالص

س هل سمع الانسان بوجود السماء قبل ان جاءت الكتب الدينية

ج ان التعليم بوجود السماء هو تعليم ديني سابق جاء به الوحي القديم وحفظته الاديان الوثنية . ولما جاء الرسل عليهم السلام مشوا عليه لما فيه من سهولة التعبير عن اماكن السعادة وكلٌّ منهم وصف السماء بما اقتضته احوال شعبه . والحاصل فان مسئلة السماء بسيطة عارية من الاشكال . واني استودعكم الله .

س اسمحوا لنا ان نستوقفكم قليلاً ريثما تريحون ضمائرنا اكثر فان الطبيعة قد ازعجتنا باخبارها فهي معنا كل يوم في شأن فيوماً تقول لنا ان دعاة الدين رجال ارضيون مثلكم جاؤوا بكتبهم من عندهم لا من السماء . ويوماً تقول ان ليس للشيطان وجود في عالم الكون . ويوماً تقول ان الارض جسم مستدير وانها من الاجرام السموية بمعنى ان هذه الاجرام المعروفة بالشمس والقمر والنجوم ما خلقت لاجل الارض وان منها ما هو مسكون فيه مخلوقات حية كالارض وانها جميعها سابحة في الفضاء بقوة جاذبية عامة منتشرة في عالم الاجرام ويوماً تقول عن نفسها انها حرّة تحكم على نفسها بنفسها . وبالجملة فان اقوالها فيما ينقض الدين اكثر من ان تحصى ولا نعلم ماذا نصنع فان اكثر الناس مرقوا من الدين فما عاد يهمهم الامر فصرنا نخشى على انفسنا فان لم نمرق نحن مثلهم فسوف يمرق اولادنا من بعدنا لان تصديق الطبيعة آخذ بالتغلب على تصديق الدين فانظروا في امرنا

واـكم الاجر والثواب

ج ان ما قلناه لـكم عن السماء وغيرها يكفي لان تقيسوا عليه كل ما تقوله لـكم الطبيعة فدعوها تقول مهما شاءت . اما قولها عن رسل الله انهم دعاة ارضيون فهذا ليس من وسعها تثبيته وانما تقوله بالنظر الى ما تتوهمونه من ان تعاليمها تخالف التعاليم الدينية لان الخلاف يقتضيه في حين لو بحثتم في كل خلاف بحثاً دينياً صحيحاً لما رأيتم خلافاً البتـة فالرسل اذن هم ولا مراء دعاة سماويون لا سيما وان طبيعة تعاليمهم واساليبها تشهد لهم بانهم جاؤوا من عند الله . واما قولها ان ليس للشيطان وجود في عالم الـكون فالرد عليه يحتاج الى وقت طويل فسآتي اليكم في وقت اخر . واما ما تقوله عن الارض وسائر اجرام السماء فليس مما يخالف الدين لان مجيء ذكر الارض في الـكتب الدينية انها منبسطة لا ينفي كونها كرة مستديرة لان الـكلام عن شكل الارض وخصائصها لمن متعلقات العلم لا الدين وانما ذكرت في الدين اظهاراً لقدرة الخالق بدليل انها لم تذكر فيه الا في مقام التعظيم وبما ان الغاية من ذكرها تعظيم قدرة الله ذكرتها الـكتب الدينية بكونها منبسطة وفقاً للاعتقاد ايامئذ ولا اشكال فيه . ومعلوم ان الاجرام السموية لا يخلو بعضها من الاحتياج الى البعض الآخر حتى كانها كلها مخلوقة لاجل بعضها بعض . ومع ذلك فان الدين لم يقل ان الاجرام السماوية قد خلقت لاجل الارض وانما قال ان الله خلق للانسان الشمس والقمر . والطبيعة نفسها تقرر هذا الخبر لان الشمس من اسباب صلاحية الحياة على الارض . على ان الغرض الديني مما قالته الـكتب المنزلة من هذا النحو ليس لاظهار منافع الشمس الطبيعية — لان هذا من شأن العلم ان يقوله وانما قاله الدين اظهاراً لفضل الله على الانسان ولتعظيم

قدرته الخالقة . أما ما بينته اخبار الكون الموسوي من ان الارض كانت قبل سائر الاجرام فهو مصروف الى غرض ديني صرف ومن شأن هذا الغرض الديني ان يؤذن بان الشمس والقمر وسائر النجوم وُجدت لاجل الانسان . وواضح ان التاريخ الخلقي انما قال بوجود الارض قبل الـكل لانها مقر الانسان ومهبط الوحي فمن الضرورة ان يجعل لها شأناً يميزها على سواها لان المصلحة الدينية تقتضي ذلك . ألا ترى كيف ان التاريخ المذكور برهن عن عناية الله بالارض وحدها دون سواها من سائر الاجرام . على ان التوراة ما أغفلت الحقيقة بل اشارت اليها عند افتتاح الكلام فقالت « في البدء خلق الله السموات والارض » وانما فعلت ذلك حتى لا يطمس الغرض الديني حقيقـة لا بد من اظهارها . على انها ما لبثت ان دلت عليها حتى جاءت بأسلوب جـديد بيّنت فيه ان الارض وُجدت قبل السموات . وبالجملة فان التعاليم الدينية اكثرها اساليب تنطوي على أغراض دينية لا تتبين لنا الا بالبحث . وأما قول الطبيعة ان من اجرام السماء ما هو مسكون من مخلوقات حية فليس ذلك مما يكذب الدين لان الدين لم يقل بعدم وجود مخلوقات غير المخلوقات الارضية فمن المحتمل ان يكون هنالك مخلوقات عاقلة وان يكون عندهم كتب منزلة لان جند الرب لا يعلمه الا هو . وأما قولها بان الاجرام سابحة في الفضاء بقوة الجاذبية فليس ذلك لينفي قوة الله بل يزيدها حكمة يقف الانسان عندها منذهلاً من عجائب الله في مخلوقاته لانه تبارك شأنهُ وجلت حكمتهُ هو الذي أودع فيها قوة الجاذبية فاذا انصرف الفعل الى قوة أخرى فقوة الله عاملة في كل حال . أما قولها انها تحكم على نفسها بنفسها فالأمر واضح ان الله سبحانه لا يحكم على الـكون مباشرةً وانما يحكم عليه بمقتضى نواميس وضعها له بادئ بدء . وفي ذلك كلام

طويل لا محل لاستيفائه هنا وانما اقول لكم ان ليس في اقوالها هذه ما يمس الدين البتة والسلام



الفصل الرابع

في الشيطان

اهلاً بمن قد سخره الله لارشادنا فقد كنا بانتظاره لاننا نطمع اليوم في قبض مبلغ من الفلوس من متشدق اقترح علينا امس ان نريه الشيطان فيدفع لنا مائة ليرة فان كنتم تحبون منفعتنا وخيرنا ومثلكم يفعل ارشدونا الى واسطة تمكنا من نوال جعالة هذا الرجل المتكرم .

المرشد . لا سبيل الى نوال جعالة من هذا النحو فاقتصروا عن الطمع .

الطامعون . اذن كيف يستحضر السحرة الشياطين ويستخدمونهم .

م . ما لكم والمخدوم اسألوا أولاً عن الخادم ان كان صحيحاً أو غير صحيح .

ع . كيف لا يكون الخادم صحيحاً والدين يشهد بوجوده .

م . انتم لا تدركون من الدين الا اسمه .

ع . ما هو الشيطان في عرفكم الديني .

م . هو عبارة عن الشر وانما الذي نعلمه عنه بمقتضى النصوص الدينية الصريحة انه كان ملاكاً من ملائكة السماء ثم سقط هو واتباعه الى الهاوية ولا يزالون فيها الى هذا اليوم ولن يخرجوا منها البتة .

ع . لماذا سقطوا من السماء الى الهاوية بعد ان كانوا ملائكة يسبحون الله .

م . ان التعاليم المسيحية تفيد انهم تمردوا على الله والمحمدية تقول ان الله امر زعيمهم ان يسجد لآدم فأبى والمعنى واحد في كلا الحالين

ع . هل يضر الشياطين بالانسان .

م . لا سبيل لهم الى الاضرار به أو الى التعدي عليه ولا بوجه من الوجوه اذ ليس لهم سلطة على الناس بل ليس لهم سلطة حتى ولا على بهيمة بل ولا على شيء من المخلوقات البتة فالدودة الصغيرة الحقيرة التي تزحف على وجه الارض ولا يراها الانسان ليس للشيطان ان يمسها بأقل مضرة . ولا يشكل ذلك بما رواه لنا الكتاب المقدس عن ايوب(١) عليه السلام — لان لذكر الشيطان هنالك مقاصد دينية . على ان سفر ايوب نفسه يكاد يكون اشبه برواية دينية ذات رموز واساليب مجازية . والذي يلم بحقائق هذا السفر العجيب يتحقق لديه ما انطوى عليه من القضايا الدينية العجيبة ويقف متعجباً من الاساليب التي كان الله سبحانه يجريها في الايام القديمة بواسطة أولئك المختارين الذين اختارهم قديماً لانذار الناس وتهذيبهم . على ان السفر نفسه لم يجيء بالشيطان الى ايوب الا بأمر الله — راجعوه حتى يتضح لكم ان ليس للشيطان سلطة على الانسان البتة .

(١) ان ايوب عليه السلام قديم العهد جدا ولعله عاش في عصر قريب من عصر ابينا ابرهيم اما قبل واما بعد . والغالب انه كان اميرا من امراء العرب اختاره الله للانذار والتعليم . اما سفره فقد كتبه سيدنا موسى بيده الشريفة . ومما يستفاد من هذا السفر الديني ان البلايا تصيب الصالحين والاشرار على حد سوى وانها تأتي احياناً للتأديب وان الرزايا اذا اصابت الصالحين تنتهي على الغالب بسعادة عظيمة . وبالجملة فان مباحث هذا السفر مستلذة جدا . ومن اقوال سيدنا ايوب قوله في الارض انها معلقة على لا شيء فتأمل

ع . ألا يظهر الشياطين للناس .

م . ليس من وسع الشياطين ان يظهروا لانسان ولا بصورة من الصور .

ع . اذن كيف ظهروا للرسل عليهم السلام .

م . ان ظهور الشياطين للرسل كان من الخوارق التي جاءت بها الكرامات الرسولية فهو ليس الا من قبيل معجزاتهم عليهم السلام .

ع . ان كثيراً من الناس يقولون انهم رأوا شياطين فكيف ذلك .

م . ما كل ما يقوله الناس بصحيح . فاذا قال قائل منهم انه رأى الشيطان فهو ولا مراء مختل الشعور لان من يضعف عقله يستولي عليه الخيال فيمثل له مناظر غريبة يخالها جناً أو شياطين . هذا اذا كان يصدق في قوله والا فهو كذاب منافق يريد ان يجعل لنفسه شأناً بين الناس

ع . أمن عندكم تقولون هذا أم من عند الدين .

م . أنا لا اقول شيئاً من عندي وانما اقول ما اقوله من عند الدين فالذي أعلمه عن الشياطين بمقتضى نصوص دينية رسولية مسيحية هو ان الله قد طرحهم في جهنم مقيدين بسلاسل الظلام مكبلين بالقيود الحديدية النارية وانهم محفوظون الى دينونة اليوم العظيم بقيود نارية .

ع . ليس بيننا الان متشدق يرد عليكم لان المتشدقين يدركون التعاليم الدينية اكثر منا فهما قلتم لنا الان نصدقكم لجهلنا بالتعاليم الدينية ولكننا نشعر بان قلوبنا غير مرتاحة الى هذا التصديق .

م . لو كان المتشدقون يدركون التعاليم الدينية لما تشدقوا اما قولكم انكم غير مرتاحي القلوب الى تصديق ما اقوله فانا لا اترككم كذلك بل اجعلكم ان تصدقوا تعاليمي كمن يصدّق تعليماً تشهد به الطبيعة نلكم

ان تسألوني عن كل ما تعتقدونه بالشياطين حسبما علمتكم اياه الكتب الدينية وانا ارد عقائدكم الى حيثياتها الدينية الصحيحة بنوع تنبسط له نفوسكم وترتاح اليه ضمائركم .

ع . انتم تقولون ان ليس للشياطين ان يضرّوا بالانسان والكتب الدينية تفيد استطاعتهم على الاضرار به وتحذّره منهم فكيف ذلك .

م . ان الكتب الدينية اتخذت الشياطين اسلوباً لردع الانسان عن الخطيئة فعبرت عنها بهم . والمعنى ان الذي يضر بالانسان هو الخطيئة لا الشيطان لانها هي التي تبعده عن الله وتلقيه في جهنم .

ع . نحن نعلم ان الخطيئة هي التي تبعد العبد من ربه ولكننا نعلم أيضاً ان الشيطان يدرّبه عليها ويقوده اليها ومع ذلك فاننا نشتم من تعليمكم رائحة شيء من الحقيقة فزيدونا منه حتى نتأكده جيداً

م . اذا احببتم الزيادة فاسألوا عمّا يبدو لكم مما يقتضيها .

ع . ان الكتب الدينية ملأى بذكر الشياطين فهل يصح ان يكون ذلك كله من قبيل التعبير عن الخطيئه .

م . كل ما جاء في الكتب الدينية من ذكر الشيطان ينطوي على اغراض وتعبيرات ورموز لان ذكره لم يرد فيها للدلالة عليه بالذات الا قليلاً جداً كما اذا دعا السياق الديني الى تخصيصه بالذكر . وبالجملة فان الكتب الدينية قد اصطلحت ان تنسب جميع الخطايا المنهيّ عنها الى الشيطان وعليه فقد جاء ذكره فيها مرموزاً به الى معان متنوعة تندرج كلها في عداد معاني الشر فحيثما تجدوا ذكر الشيطان في الكتب المقدّسة فاعلموا ان المراد به معنى مكروه يجب اجتنابه

ع · ما هو الغرض الديني من التعبير عن الخطيئة بالشيطان

م · لقد اصطلح الدين على نسبة الخطايا الى الشيطان وانه هو الذي يدرّب الانسان عليها تقبيحاً لها وتعزيزاً للنهي عنها · وانما فعل ذلك لاحتياجه الى ما من شأنه ردع الناس عن المعاصي والشرور · وبما ان نسبة الخطايا الى الشيطان وانها من عمله هي احسن اسلوب يمكن استعماله في سبيل الردع جاء الاصطلاح الديني كذلك ولا اشكال فيه

ع · ما هو الدليل على ان الشيطان لا يدرّب الانسان على الخطيئة والدين يقول انه يدرّبه

م · لا اظنكم تجهلون ان الانسان الذي يفعل الخطيئة انما يفعلها من تلقاء نفسه طوعاً واختياراً · فالشيطان والحالة هذه ليس من يد له في ذلك لانه بعيدٌ عن الانسان جداً فأنّى له ان يأتي اليه محسناً له عمل الشر وهو مكبل بالقيود مطروح في اسفل دركات الجحيم · اما مفاد الدين خلافاً للواقع فلغرض ديني صرف لان في التعليم بان الشيطان يدرّب الانسان على عمل الشر قوة اكثر على الردع والخطيئة نفسها تكتسب به هولاً اكبر والذي يتأمل هنا قليلا يحقق قوة الفرق بين نسبة الخطيئة الى الشيطان وبين ما اذا خلت من هذه النسبة

ع · لقد عودتمونا ان تبينوا لنا الاساليب الدينية المجازية بتعاليل دينية معقولة ثم تبرهنوا لنا من الدين نفسه ان الدين يدل عليها بكونها اساليب مجازية فهل لكم ان تفعلوا ذلك الآن في مسئلة الشيطان

م · ان الادلة الدينية على كون الشيطان لم يرد ذكره في الدين الا لتقبيح الخطيئة وتجسيمها هي اكثر من ان تحصي لاني لم آتِ بهذا التعليل من

عندي · واحسن دليل أبينه لكم الآن هو قوله تعالى في كتابه العزيز «انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه» فاذا تأملتم في الآية بالنظر الى الاعتقاد رأيتم ان ذكر الشيطان فيها مقصودٌ به الدلالة على الشيطان بالذات ولكن لو دققتم في التأمل قصد تحرير معنى الاية مع قطع النظر عن اقوال المفسرين لاتضح لكم جلياً ان الشيطان انما ذكر فيها لغرض يتعلق بطبيعة الحظر والنهي لا بالشيطان نفسه أي ان ذكره في الاية هو صورة بلا معنى · يدلك على ذلك ان الشيطان لا يسكر ولا يلعب القمار ولا يعبد الصنم ولا يستقسم · اذن ان قول الكتاب ان هذه الاعمال هي من عمل الشيطان ليس الا للدلالة على كبر جرمها ولتعزيز النهي عنها وانها قبيحة بهذا المقدار · وحاصل المراد الالهي من ذكر الشيطان في هذه الاية الكريمة هو ان هذه الاعمال هي رجسة في ذاتها وان الذي يعملها يحاكي الشيطان في رجاسته وقصارى الكلام ان ليس من آية في الكتب المنزلة جاءت بذكر الشيطان الا ويصرف ذكره فيها الى حيثية دينية محضة حتى تخلو الاية من الدلالة على وجود الشيطان وتداخله في شؤون الناس

ع · لماذا لم يكشف مفسرو الكتب الدينية النقاب عن محيا الحقيقة المتعلقة بالشيطان

م · ان حقيقةً من هذا النحو قد واراها الدين عمداً لمقاصد دينية لا يسوغ كشفها الا بايعاز من الطبيعة · فان كنا نكشفها اليوم فانما نفعل ذلك حفظاً للايمان من الاستخفاف به لان الطبيعة تقول بعدم وجود الشيطان وعليه فان شأن علماء الدين في هذا الزمان غير شأن علماء الازمنة السالفة

ع · هل أسباب الكشف كائنة في الكتب الدينية مع وجود المواراة ·

م · لا شك في كيانها غير ان العقل لا يفطن لها الا ببواعث خارجية تؤذن بالبحث كما اذا أبدت الطبيعة خلافاً بينها و بين الدين فان البحث حينئذ يتكفل بايجاد بواعث الخلاف فتنكشف اذ ذاك الحقيقة لان الدين ما وارى شيئاً الا وأشار اليه من خلال المواراة · وانما يتأتى الكشف على ان يصرف الذهن عند البحث عن تفاسير الاولين الذين ما ألجأتهم ظروفهم الى الكشف والا فلا سبيل اليه

ع · ان في الكتب الالهية آيات كثيرة في هذا الصدد لا تحتمل التأويل لما ان ذكر الشيطان فيها مصروف بجملته الى الدلالة على الشيطان نفسه كقول الكتاب « انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء » فما قولكم بذلك

م · ان لذكر الشيطان في الكتب الالهية معاني كثيرة متنوعة فاذا أمعنتم النظر في الآية اتضح لكم ان ذكره فيها انما جاء للتعبير عما يتسبب عنه وقوع العداوة بين الناس راجعوا الاية الى آخرها يتضح لكم ذلك اكثر لان حاصل ما جاء فيها ان الشيطان يريد ان يتعاطى الناس أسباب الخصام كالسكر والمقامرة · والمتأمل هنا لا يرى ان للشيطان دخلاً في أحوال الانسان وافعاله لان في كون الشيطان يريد ان يفعل الانسان الشر دلالة على ان الشيطان مقصورة مضرته على مجرد الارادة أي انه لا يستطيع ان يضر بالانسان فعلاً ومع ذلك فان الكتاب ما قال ان الشيطان يريد ان تتعاطوا أسباب الخصام الا ليكسبها هولاً يمكن الناس من الانتهاء عنها لانها كانت متمكنة فيهم بدليل قوله في آخر

الآية « فهل انتم منتهون »

ع ان من آيات الكتاب ايضاً ما يفيد ان نحذر نزغ الشيطان لانه هو الذي نزغ ابوينا الى المعصية فاخرجهما من الجنة فهل بعد هذا القول الالهي من شك في ان النازغ الى الشر هو الشيطان بعينه

م اراكم تكثرون من الاستفهام عما يتمشى كله على اسلوب واحد يمكنكم ان تقيسوا عليه كل ما ترونه في الدين من ذكر الشيطان · فقد علمتم ان ليس للشيطان ان يصل اليكم او يمسكم بضر وان للانسان الخيار في ان يفعل الخير او الشر · فاذا استقصيتم الامور من حيثياتها ودخلتم البيوت من ابوابها رأيتم ان الذي ينزغ بينكم هو انسان مثلكم وانما سمي بالشيطان لشروره وقد علمتم ايضاً ان المصلحة الدينية اقتضت نسبة الشرور الى الشيطان اظهاراً لهولها وانها تغضب الله وتبعث على الانتقام الالهي من فاعليها كما بعثت قديماً على الانتقام من الشيطان طالعوا الكتب الدينية مطالعة صحيحة تجدوا ان غرضها الوحيد غرس بغضة الشيطان في قلوب الناس وتمثيله كريهاً جداً بنوع لا يستطاع تصوره وانه عدو الانسان يسعى في تهويره واهلاكه · وبالجملة فانها جعلته في حالة مكروهة مبغضة ينفر منها الانسان كل النفور · فلم فعلت ذلك يا ترى ؟ وما هو الغرض الديني منه ان لم يكن ما قلناه صحيحاً · فلا جرم انها مثلت الشيطان بصورة كريهة وغرست بغضته في القلوب حتى يكون لنسبة الخطايا اليه تأثير في النفوس فيجتنبها الانسان اذ ذاك وينفر منها كما ينفر من عدوه — هذه خلاصة الاسباب التي ادت الى نسبة الشرور للشيطان · فتأملوا

ع اذن من نزغ ابوينا الى اكل الثمرة الفردوسية المنهي عنها ان لم يكن الشيطان ·

م ان الحوادث الفردوسية هي خبر موسوي محض لاتعلق له بمن تأخر من الرسل الاطهار فاذا رأيتم عند المتأخرين عليهم السلام شيئاً من اخبار الحوادث الفردوسية فهو مغترف من الحوض الموسوي لغرض ديني لا ينطبق على الغرض الفردوسي الا من حيثية واحدة سنأتي عليها .

ع كيف ذلك .

م ان الخبر الموسوي يصرح ان الذي اغرى أمنا حواء وحسن لها اكل الثمرة المنهي عنها هو مخلوق ارضي سماه بالحية فقول المسيحية والاحمدية ان الشيطان اغراها يخالف النص الموسوي . وبما ان الحقيقة هنا يرجع بها الى الخبر الموسوي لما انها من نوره أقتبست وجب علينا ان ننظر في الاسباب التي حدت بالرسولين العظيمين الى ان اخبرانا بخلاف ما اخبرنا موسى — وهنا نقول : لو لم يكن ذكر الشيطان في المسيحية والاحمدية للتعبير عن الخطية لما مست الحاجة الى مخالفة صاحب الخبر نفسه وبعبارة اخرى لو لم يكن المراد تقبيح الخطية بنسبتها الى الشيطان وجعل الشيطان عدواً للانسان لماجاء الخلاف . على انكم اذا تأملتم في هذا الخلاف الديني تجدونه دعامة الغرض العيسوي المحمدي اذ ما من خبر عن الشيطان أبعث على ان يكون الشيطان مبغضاً من الانسان اشد البغض من الخبر عنه بانه اغرى ابوينا فاخرجهما من الفردوس

ع قلتم ان الغرض العيسوي المحمدي لا ينطبق في الحادثة الفردوسية على الغرض الموسوي الا من حيثية واحدة فما هي

م ان الحيثية المذكورة هي التوطئة الموسوية اي ان النبي موسى جاء بذكر الحية من باب التعبير بها عن الشيطان اي انه جعل الحية توطئة لماسيقوله لرسولان العظيمان من ان الذي اغرى آدم وحواء هو الشيطان

ع ما هو الدليل على ان حية الاغراء جاءت تعبيراً عن الشيطان

م او لم تكن كذلك لاستبدلها نبي الله موسى بحيوان اخر اقرب لقلب الانسان من الحية

ع ايصح التعبير والاستبدال في خبر ديني يجب علينا ان نعتمده خبراً صحيحاً لا يتخلله شك

م ان الخبر كله مجازي جاء لاغراض دينية

ع اذن ان كلاً من الحية والشيطان غير صحيح

م لا شك في ذلك

ع ما دام الامر كذلك فلماذا ذكر سيدنا موسى الحية دون الشيطان وما معنى هذه التوطئة

م لم يكن من غرض الدين الموسوي ان يجيء بذكر الشيطان البتة

ع الم يجيء ذكر الشيطان في التوراة

م كلا

ع لماذا

م لان التوراة ما احتاجت الى ذكره كما احتاج الانجيل والقران

ع لم نفهم معنى لهذا الاحتياج وعدمه فوضحوه لنا

م لقد علمتم ان الشيطان لم يرد ذكره في الدين الا للتعبير به عن الخطية تقبيحاً لها حتى تبدو كراهيتها فيجتنبها الناس اكثر مما لو خلت من التعبير عنها بالشيطان . وبما ان المسيحية والاحمدية مصروفتان بجملتهما الى ردع الناس عن الشرور والمعاصي جاءتا بذكر الشيطان تعزيزاً لهذا الردع

ع ما وضحتم لنا شيئاً لان ما قلتموه الان قد سمعناه منكم وتعلمناه فلم يعد

لنا به حاجة وانما نرغب اليكم ان تأتونا بما يثبت ما قلتموه حتى نعتقده تعليماً دينياً صحيحاً

م لقد بينت لكم ان الموسوية ما احتاجت الى ذكر الشيطان فما بالكم لا تفقهون

ع اذن تريدون ان الموسوية غير مصروفة الى ردع الناس عن الشرور والمعاصي كالمسيحية والاحمدية . فان كان هذا مرادكم ونحوه لنا فان تعاليمكم كلها جديدة تحتاج الى الايضاح عنها بزيادة

م جميع اديان البشر مصروفة الى ردع الناس عن الشرور والمعاصي . وانما الذي اريده هو ان الموسوية في هذا الردع شأناً يختلف كثيراً عن شأن اختيها المسيحية والاحمدية . وعليه فان الردع الموسوي — بالنظر الى الموضوع الذي نحن بصدده — يعتبر كلا شيء

ع ما هو الفرق بين ردع الموسوية وردع اختيها

م ان الفرق الحاصل بين الردعين هو عظيم جداً لان الاول مصروف الى احكام الوعد الدنيوي بخلاف الثاني فانه قائم باحكام الوعد السماوي

ع كيف ذلك

م ان الموسوية ما زادت الاسرائيليين على قولها لهم « ان ثابرتم على عبادة الله وحفظتم ناموسه وشرائعه تمتعتم في اماكنكم بالملك والسعادة والا اسلمكم الله الى الامم ليضطهدوكم و يعذبوكم »

ع أليس للثواب والعقاب ذكر في الموسوية

م كلا

ع اذن بمَ وعدت ابناءها تلقاء ردعها لهم عن الخطية

م بالسعادة الدنيوية.

ع وبم اوعدتهم اذا خالفوا وصاياها

م بالتعاسة الدنيوية

ع قلتم ان الموسوية ما احتاجت الى ذكر الشيطان فما هو وجه عدم احتياجها الى ذكره

م ان ذكر الشيطان لمن متعلقات الوعيد بالعقاب الاخير وبما ان الموسوية خلت من هذا الوعيد لم يجد الشيطان لذكره فيها مكاناً

ع هل من دليل على ما تقولونه

م عليكم بالاستدلال على ذلك من مراجعة ما اوردناه لكم من ان الخطيئة في المسيحية والاحمدية تذهب بفاعليها الى جهنم حيث يأوي الشيطان المغضوب عليه من الله بخلاف الخطيه في الموسوية فانها تذهب بفاعليها الى شقاء دنيوي حيث لا شيطان

ع هل يمنع هذا الفرق بين الخطيئتين من التعبير عن الخطيئة الموسوية بالشيطان

م لا بد من المنع لان الفرق مؤذن به ألاترون ان طبيعة كل من الخطيئتين تخالف الاخرى

ع انتم تقولون ان التعبير عن الخطيئة بالشيطان انما جاء في الدين ليكسبها هولاً تعزيزاً للنهي عنها . فما الفرق اذن بين الخطيئتين والتهويل والتعزيز لازمان في كل حال

م ان الخطيئة في المسيحية والاحمدية مفتقرة بذات طبيعتها الى التعبير عنها بالشيطان لانها صائرة اليه اي انها تذهب بفاعليها الى اماكن الشياطين

بخلاف الخطيئة في الموسوية فانها خالية مما يؤذن بعلاقة بينها وبين الشيطان فتأملوا

ع اذا خلت الخطيئة الموسوية مما يؤذن بعلاقة بينها وبين الشيطان فهل يلزم عن ذلك ان تخلو من التعبيرات التي تكسبها هولاً تعزيزاً للنهي عنها

م ان الخطيئة الموسوية قد اكتسبت بطبيعتها ما يغنيها عما افتقرت اليه الخطيئة في المسيحية والاحمدية لان العقاب الدنيوي الذي اليه مصيرها كان حاصلاً على الاسرائيليين حتى على افراد الشعب فقلما كان يخطىء الاسرائيلي ولا يحيق به غضب الله فوقوع العقاب اذاً في الحياة الدنيا بفعل الهي عجيب كان كافياً لاكساب الخطيئة الموسوية هولاً يبعث بالناس على اجتنابها والنفور منها

ع لقد غرستم في قلوبنا تعليماً دينياً صحيحاً لا يتخلله شك ولا يقبل الرد وقد تحققنا الان ان الشيطان غير موجود بين الناس وانه مكبل مطروح في قعر الجحيم لا سبيل له الى الوصول الى مضرة الانسان . ولكننا نخشى ان تقول لنا الطبيعة يوما بعدم وجوده في الجحيم ايضاً . فما قولكم اذا فعلت

م ليس من وسع الطبيعة الوصول الى الجحيم والتفتيش على الشيطان حتى تاتيكم يوما بمثل هذا الخبر

ع باي وسع اذن وصلت الى الفضاء كله وفتشت على السماء فلم تجدها

م ان الارض تدور حول الشمس في فلك مستدير طول قطره نحو مائتي مليون ميل فلو كان هنالك سماء لصدمتها الارض فاذ لم تصدمها ارضنا صدمتها ارض اخرى من اروض كثيرة فوقها لان في الفضاء نظامات شمسية كثيرة لا يعلم عددها الا الذي اوجدها . وعليه فان امكن للطبيعة الوصول الى السماء

امكن لها ايضاً الوصول الى الجحيم لان التعليم الديني بالجحيم هو من نوع التعاليم بالسماء . فكما ان السماء غير مستطاع ادراكها كذلك الجحيم لا يعرف اين مقره والمعنى فكما اننا لا نستطيع ان ندرك احوال السعادة الاخيرة كذلك لا نستطيع ان ندرك احوال العقاب الاخير فتأملوا (١)

ع افرضوا يا حضرة الاستاذ ان الطبيعة تمكنت من الوصول الى الجحيم واخبرت بعدم وجود الشيطان فيه . فماذا عسى ان نفعل

م اذا اخبرت الطبيعة بعدم وجود الشيطان في الجحيم فليس في هذا الخبر ايضاً ما يضر بالدين لان الشيطان كله لا تعلق له بالدين الا من حيث ما علمتم فقد يمكن والحالة هذه ان تكون الكتب الدينية قد اوجدته من العدم لتبني عليه اغراضها من نحو ما أثبتناه لكم وليس ذلك بغير جائز بدليل انها جعلته شيطاناً لانه ابى السجود لابينا آدم اي انها اوجدته من سبب عامل على تاسيس العداوة بينه وبين الانسان . فاذا امعنتم النظر هنا قليلاً رأيتم انها اوجدته من الغرض الديني بعينه فتأملوا

ع اذن يسوغ لنا ان نقول بعدم وجود الشيطان مطلقاً

م لا يسوغ لكم هذا القول الا اذا مست الحاجة اليه لان التأويل عند عدم اللزوم مضر بالدين كالاعراض عنه عند اللزوم . وهذا هو سبب اعراض علماء الدين الاولين عن التأويل واقتصارهم في التعليم على ظاهر التعاليم المنزلة وعليه فان اتباع العلماء المتأخرين خطة السلف خطاء واضح لا يتخلله شبهة .

(١) ان هذا الجواب هو دخول في الحقيقة من باب يناسب عقولهم وانما فعل ذلك اقتضاء لسوء الهم الدال على جهلهم باحكام الطبيعة وحدودها لانهم لو ادركوا خصائصها لما تصوروا امكانية التفتيش على الشيطان في الجحيم

ع نرى انفسنا الآن بعد ان اوضحتم انا الحقيقة غير قادرين على الاعتقاد بوجود الشيطان في الجحيم فماذا نصنع

م ان كون الشيطان مكبلاً مطروحاً في اسفل دركات الجحيم هو خبر ديني من واجباتكم ان تعتقدوه فالذي اوضحناه لكم لا يمنعكم من الاعتقاد بوجوده هنالك لاننا انما فعلنا ذلك على فرض ان الطبيعة قالت بعدم وجوده وهي لا تستطيع هذا القول . فنحن فرضناه وردينا عليها انريكم ان ليس للطبيعة ان تتغلب على الدين البتة اذ ليس من خبر من الاخبار الدينية الا ويمكن صرفه الى حيثيات دينية صحيحة اذا مست الحاجة الى صرفه فان لم تمس فالخبر يظل محفوظاً على حسب منطوقه . فعليكم والحالة هذه ان تكونوا حسني الاعتقاد بالاخبار الدينية وان لا تجعلوا اعتقادكم بصحتها مانعاً يمنعكم من الرد على الطبيعة وليكن علماؤكم كما كان الامام الغزالي الذي لم يقم بين علماء الاديان من رد على الطبيعة مثله فانه « قدس الله سره » قد رد عليها كل ما كان شائعاً في عصره من اقوالها المخالفة للدين .

ع لقد اوصلتمونا الى حد لا يبقى عنده شبهة في جميع ما اوردتموه وقلتموه عن الشيطان فهل لكم مع ذلك ان تزيدونا تحقيقاً فاننا نشعر بعدم ارتياح نفوسنا كما ينبغي

م ان لذكر الشيطان في الكتب الدينية معاني متنوعة فاذا رأيتم ذكره في مقام النزغ مثلاً فالتعبير به هنالك كائن عن الافساد . مثال ذلك . اذا قالت الكتب الدينية « لا تمكنوا الشيطان ان ينزغ بينكم » فالمراد بذلك ان نبتعد عن الافساد وان لا ندع الاشرار يفسدون بيننا . وانما جاء التعبير بالشيطان عن الافساد تجسيماً لهذه الخطيئة التي كلها شر . وقد يأتي ذكر الشيطان لغير

قصد التجسم فينصرف هنالك الى ما فيه توجيه القلوب الى الله اكثر وهو في مثل هاته الحال ينطوي على معانٍ مختلفة متنوعة لا تعلق لها بالخطيئة كقول بولس لاهل تسالونيكي « اردنا ان نأتي اليكم انا بولس مرة ومرتين وانما عاقنا الشيطان» فواضح ان بولس عبر هنا بالشيطان عن عدم التوفيق . والسيد المسيح قال لبطرس « اذهب عني يا شيطان » . والحاصل فان لذكر الشيطان في كتب الدين رموزاً كثيرة وتعبيرات متنوعة لا يتعذر ادراكها على من يطالع آيات الكتب المنزلة بامعانٍ وتدقيق . اما القول الديني « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فيراد به الاستعاذة بالله من المعصية التي سقطت بالشيطان الى الهاوية او من الشرور التي تنسب اليه . وليس بالغريب ان تنسب اليه الشرور لانه لعنهُ الله كله شر . على ان نسبة الشرور اليه جارية ايضاً بين الناس كما هي الحال في الدين فلا يذكر احداً انساناً شريراً ما لم يدعوه شيطاناً وذلك شائع عند عموم الناس كما هو معلوم . ومجمل القول ان جميع ما اوردناه انما جئنا به من عند الدين وهو ظاهر لا يحتاج الى تدقيق .

ع لقد اتعبناكم كثيراً بهذا الشيطان الملعون فهل يمكن لكم الآن ان تنبئونا خبراً عن شيطان الانجيل الذي تفلت من قيود الجحيم وجعل مأواه اجساد المجانين

م ان اعتقاد الناس بالجنون انه فعل شيطاني ناشئ عن تعليم ديني قديم علم به الوحي ومشت عليه الوثنية قبل مجيء الكتب المنزلة بزمان مديد . لان سقوط الشيطان الى الجحيم وتفلته من قيودها ومجيئه الى الارض وتردده بين الناس واقتداره على الاضرار بهم — كل ذلك وقف عليه الانسان بتعليم سماوي قديم لولاه لما استطاع ان يدرك للشيطان معنى او يعرف له اسماً . وبما ان

الاعتقاد باستطاعة الشيطان على الاضرار بالناس هو ركن الغرض الديني كان لا بد للدين من التعليم بان الجنون من عمل الشيطان . على ان التقليدات المتداولة خلفاً عن سلف تفيد ان الشيطان انما يستطيع الاضرار بالخطاة دون الاتقياء وقد يستفاد ذلك ايضاً من التعاليم الدينية نفسها . والمتأمل هنا يتضح له جلياً ان الشيطان كله — اي سواء كان شيطان الجنون او شيطان النزغ او شيطاناً آخر — انما جاء في الدين لردع الانسان عن الشر . وكله ايضاً دائر على محور التعبير به عن الخطية او عن شيء آخر من نحوها ولا اشكال فيه .

ع اذن من هذا الذي كان يخرجه السيد المسيح من اجساد المجانين ان لم يكن الشيطان بعينه .

م ان التعليم الانجيلي بشيطان الجنون محمول على اعتقاد الناس به في تلك الازمنة لا سيما وانه لم يكن من غرض الدين ابطال هذا الاعتقاد بل كان من غرضه ان يؤيده اكثر لان بشيطان الجنون تعزيز الغرض الديني الذي أثبتناه لكم فيما مرّ بنا من الكلام عن اسباب مجيء ذكر الشيطان في الكتب الدينية . على ان الدين قد جارى الناس في كثير من عقائدهم الخرافية لرسوخها فيهم وتمكنها منهم وهو انما فعل ذلك على عدم الحاجة اليها فكم احرى به والحالة هذه ان يجاريهم في عقيدة هو اليها في اشد الاحتياج وهي اكثر رسوخاً من الكل . فكونوا اذن على يقين ان ليس للشياطين ان يدخلوا اجساد الناس او ان يمسوهم بأدنى ضرر بل ليس لهم ان يخرجوا من اماكنهم الجحيمية البتة . واعلموا ان الدين قد ترك جميع العقائد المتعلقة بالشيطان على حالها القديم وليس فقط تركها كذلك بل قد زادها من عنده مكنة واكثر من ذكر الشيطان على احوال مختلفة تأييداً لها اذ رأى بها مساعدة على العمل على ردع الانسان

كما تقدم عن الخطية . على انه ما فعل ذلك الا من باب الرمز والاشارة حرصاً على الحقيقة التي لا بد من التعويل عليها اذا مست الحاجة .

ع لا نستطيع ان نسلم بان شيطان الجنون جاء في الانجيل من باب الرمز لاننا نسمع بآذاننا قول السيد المسيح له « اخرج منه » فان كان ثمة رمز فمن هو اذن هذا الشيطان الذي كان ينتهره السيد المسيح ويأمره بالخروج هل هنالك شعوذة أم كيف فقد اوقعتمونا في ريب .

م احذروا ان يغربلكم الشيطان اي احذروا من المروق مما صدقتموه وآمنتم به منذ الوف من السنين واعلموا ان السيد المسيح قد كان عليه السلام يعتبر المرض خطية فكان يعبر عنها به وعن غفرانها بالشفاء . ويستدل على ذلك من قوله مرة لمريض شفاه « لا تعد تخطي (١) » وقوله مرة اخرى لمريض آخر شفاه « امض فأرِ نفسك لرئيس الكهنة وقدم عن تطهيرك » وقلما شفى مريضاً ولم يقل له « مغفورة لك خطاياك » هذا واذ كان السيد المسيح قد اصطلح على جعل المرض عبارة عن الخطية كان الاصطلاح الديني على ان الشيطان هو الخطية يقضي عليه بالاقرار على ان مرض الجنون من عمل الشيطان لان طبيعة هذين الاصطلاحين تطلب الوقوف عند حد الاقرار بشيطان الجنون ولهذا السبب عينه مشى عليه السيد المسيح وايده قولاً وفعلاً . فتأملوا

ع مهما يكن من امر الاصطلاحات الدينية فاننا لا نرى في تأييد عقيدة خرافية تأييداً حسياً ما يليق بشرف الانجيل ألا ترون كيف انه عليه السلام ادخل مرة الشياطين في الخنازير وأسمع الناس مرة اخرى صوت الشيطان

(١) ان السيد المسيح كان يقول ذلك لكل مريض شفاه وانما الانجيل نفسه اكتفى بذكر ذلك مرة واحدة فقط وامثال هذا الاكتفاء كثيرة في الانجيل .

من داخل جسد مجنون جاؤا به اليه ليشفيه .

م ان للدين مصلحة لا تقوم بمجرد الاقتصار على الحقيقة الدينية المحضة فلا بد وان يتخللها اساليب تنطوي على حيثيات تعضد المصلحة من جهة وتحافظ على الحقيقة من جهة اخرى . ومعلوم ان الدين وائن يكن شيئاً سماوياً محضاً الا انه انما جاء الى الارض ليعيش فيها وهو لا يستطيع ذلك ما لم يماثلها في احوالها والمعنى انه جاء ليأخذ الانسان من مأخذه الارضي فشأنه والحالة هذه شأن التعاليم الارضية . ومعلوم ايضاً ان مقام السيد المسيح في شفاء المرضى هو مقام معجزات فقد كان من غرضه عليه السلام تكبير معجزاته الرسولية وتعظيمها في عيون الناس . فهو والحالة هذه لم يكن مكلفاً دينياً لان يبين لهم ماهية تلك المعجزات وانما كان مكلفاً ان يريهم اعمالاً خارقة . ولذا جاء الأخذ باسباب تقوية معجزاته وتجسيمها غرضاً دينياً محضاً .

ع مهما بالغتم في التأويل وتوغلتم في التعليل فلا نستطيع التسليم بلياقة اعمال دينية كانت تمثل للناس شيئاً وجودياً وليس ثم شيء لان ما كان كذلك لهو من اعمال المشعوذين التي لا يسوغ للدين ان يأتي بمثلها . فان لم تقولوا معنا بصحة شيطان المجنون تلجئونا الى الانحياز عن الانجيل كله لاننا لا نقدر ان نرى الشياطين في اجساد مجانينه باعيننا ونسمع صوتهم باذاننا ثم نقول هذا غير صحيح وهذا رمز وهذا اسلوب وهذا جاء لمعنى وهذا لغرض وهلمَّ جرّاً الى آخر ما هنالك من التعاليل التي لم تخرق عقولنا ولا يمكن لنا تصديقها البتة .

م حقاً انكم انتم المجانين وليس للانجيل مجانين سواكم فلا جرم ان مصيبة الانجيل فيكم عظيمة جداً . ويحكم كيف سمعتم صوت الشياطين باذانكم

وعقولكم خالية من مفهومه أما فهمتم قول الانجيل « انهم سألوه ان لا يأمرهم بالذهاب الى الهاوية وان يأذن لهم بالدخول في قطيع خنازير كان هنالك فاذن لهم » فهل من شبهة بعد هذا القول الصريح في ان دار الشياطين هي الهاوية وحدها دون سواها وان ليس لهم ان يخرجوا منها . أرأيتم كيف ان الدين اذا أتى بخبر مجازي خالٍ من الدلالة على الحقيقة بنى عليه اسلوباً من نوعه يدل عليها .

ع اذا كانت الهاوية داراً للشياطين غير مأذون لهم بالخروج منها فكيف خرج هولاء الجوقة الذين سألوه ان لا يأمرهم بالذهاب اليها .

م خرجوا اظهاراً لقوة معجزاته الرسولية بدليل انه عليه السلام اجابهم على طلبهم بان سمح لهم بالدخول في الخنازير . هذا اذا كان المجيء صحيحاً والا فالحادثة كلها معجزة لا تعلق بها للشياطين . ومجمل القول ان شيطان المجنون ليس بانجيلي بل هو شيطان قديم مشى عليه الانجيل لمقاصد دينية .

ع أيصح ان يمشي الانجيل على شيء خرافي لا حقيقة له .

م اعلموا ان السيد المسيح كان يشفي المرضى بالمعجزات لا بالصناعة الطبية لانه ما كان طبيباً وانما هو رسول قد بعثه الله للناس مبشراً ونذيراً وخصه باجتراح العجائب التي لم يكن له ما يؤيد رسالته سواها . فبناء عليه كان من شأنه ان يأخذ باسباب تعظيمها في عيون الناس بان يقول للمريض انهض فانك معافى اي بمجرد امره الرسولي بدون ان يصلي من اجله الى الله كما يفعل الاولياء والقديسون او ان يجسه كما يفعل الاطباء . وبديهي ان طبيباً يشفي المريض من مرضه ايّاً كان بلا دواء بل بمجرد قوله له « قم فقد شفيت » لا يكون من غرضه البحث عن حالة المرض . والذي يطالع الانجيل لا يرى فيه ان

السيد المسيح بحث مرة عن حالة مرض مريض من المرضى الذين شفاهم بل بالعكس يرى فيه انه عليه السلام كان يشفي المريض من المرض الذي اعتقده المريض نفسه سواء كان الاعتقاد مطابقاً للواقع او غير مطابق . فكان اذا جاءه مريض وقال له ان بي داء السرسام مثلاً شفاه من السرسام نفسه وقد يمكن ان يكون المرض غير السرسام واذا جاءه مريض آخر وقال له ان فيّ شيطاناً يخبطني جاراه ايضاً في معتقده وقال للشيطان « اخرج منه » فيمضي المجنون معافى . ولو جاءه ايضاً مريض وقال له ان فيّ ملاكاً سماوياً يؤلمني لجاراه كذلك ولقال للملاك « اخرج منه » ولشفي المريض من الالم . وفي كل ما تقدم ليس من سرسام ولا شيطان ولا ملاك وانما جارى السيد المسيح المرضى في معتقدهم لانه ما كان مكلفاً دينياً ان يبين لهم نوع مرض كل منهم بل كان مكلفاً ان يشفي الامراض بما له من الكرامة الرسولية وعلى المريض ان يعتقد بان السيد المسيح قد شفاه من مرضه ولكن اذا اعتقد المريض مرضاً يخالف مرضه الصحيح فليس هذا الخلاف مما له تعلق بالدين او مما يضر به بل بالعكس قد يكون فيه في بعض الاحوال ما يقوي الغرض الديني كشيطان الجنون ولا اشكال في كل ذلك .

ع هل يسوغ الاعتقاد بصحة شيطان مجنون الانجيل وحده . بمعنى ان السيد المسيح نفسه قد استحضره من مكانه موقتاً اظهاراً لقوة معجزاته الرسولية .

م لكم ان تعتقدوا ذلك ايضاً لان الشياطين قد ظهروا للرسل الاطهار الا اننا لا نقدر ان نحكم حكماً قطعيا ان ظهورهم كان حقيقياً بمعنى ان الرسل استحضروهم موقتا من اماكنهم الجحيمية اذ ليس لدينا على ذلك دليل ديني غير

قول شياطين الانجيل « لا تأمرنا بالذهاب الى الهاوية » على ان هذا الدليل الوحيد لا يحسب دليلاً على الاستحضار لانه جاء في الانجيل لمجرد الدلالة على ان ليس للشياطين ان يسكنوا الارض ويضروا بالانسان لان مسكنهم الجحيم . وعندي ان ظهورهم كان غير حقيقي اي انه كان عملاً معجزياً . على انه كيفما كانت الحال فالامر واضح في كلا الحالين ان شيطان الجنون غير صحيح

ع لم يعد لدينا الان ما يمنعنا عن تصديق كل ما اوردتموه غير قول التلاميذ للمسيح « لماذا لم نقدر نحن ان نخرجه » فاذا صرفتم لنا هذا القول الى حيثية دينية صحيحة تنفي وجود شيطان الجنون نزّلنا تعاليلكم منزلة التعاليم الدينية واعتقدناها كما نعتقد هذه بلا خلاف .

م ان التلاميذ كانوا ولا ريب يعرفون ان شيطان الجنون ليس الا اسلوباً مجازياً وانما سألوا السيد المسيح ان يعلمهم كيفية اخراجه اظهاراً للحقيقة الواجب ايداعها في الانجيل حتى لا يقع يوماً تحت طائلة الانتقاد . ويستدل على ذلك من جواب السيد المسيح لهم وهو « لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم . واما هذا الجنس فلا يخرج الا بالصوم والصلاة » فلدى التأمل في هذا الجواب الرسولي تتضح لنا الايضاحات الآتية وهي .

اولاً ان السيد المسيح افتتح جوابه بتوبيخ تلاميذه على عدم ايمانهم ثم حقق لهم ان الاعمال الخارقة انما تقوم بالايمان وان المؤمن يمكن له ان يعمل اكبر الاعمال الخارقة .

ثانياً انه لما انتهى من هذا التحقيق جاء على ذكر شيطان الجنون باسلوب

لا تعلق له بالتحقيق المذكور اذ قال « واما هذا الجنس فلا يخرج الا بالصوم والصلاة »

ثالثاً ان قوله « واما هذا الجنس . الخ » لا يبقى معه شبهة في انه قاله ايماء الى الحقيقة حتى لا يظن أحد أنه علم تلاميذه كيف يخرجون الشياطين . وذلك واضح من عدم تعلق هذا القول بالتوبيخ والتحقيق .

رابعاً ان قوله عليه السلام « لو كان لكم ايمان» ثم ايراده الايمان حيثيات اخرى لا تعلق لها باخراج شيطان الجنون دليل واضح على انه قد صرف الجواب الى معنى آخر .

خامساً ان قوله بعد الانتهاء من موضوع الجواب « واما هذا الجنس » يدل على ان اخراج شيطان الجنون ليس من الاعمال الخارقة التي لا تقوم الا بالايمان . وفي ذلك مافيه من الايماء الى عدم صحة هذا الشيطان .

سادساً ان قوله « وأما هذا الجنس » دليل قاطع ان لا دخل لاخراج شيطان الجنون بالايمان الذي علق عليه الاعمال الخارقة كنقل الجبل . وفي ذلك ما فيه من صرف الجواب الى معنى آخر لم يكن متوقعاً لان التلاميذ سألوه لماذا لم يقدروا ان يخرجوا الشيطان وهو لم يمنحهم بجوابه المقدرة على الاخراج . فالجواب والحالة هذه بعيد عما يقتضيه السؤال

سابعاً لا شبهة في انه عليه السلام أراد بقوله « الصوم والصلاة » التوبة جرياً على الاصطلاح الديني أي أنه عبر عن الخطية بالشيطان أي أراد بالجنس في قوله « وأما هذا الجنس » الخطية بعينها . وبما أن الخطية لا تغفر الا بالتوبة والتوبة لا تتم الا بالصوم والصلاة قال عليه السلام « وأما هذا الجنس فلا يخرج الا

بالصوم والصلاة » والمعنى ان المجنون لا يشفى الا بالتوبة الى الله وانما عنى بذلك حملاً على اصطلاحه الرسولي من انه كان يعتبر المرض خطية . وعليه فعلى كلا الاصطلاحين يكون المراد بالصوم والصلاة التوبة لان قول السيد المسيح « لا يخرج الا بالصوم والصلاة » هو بحسب اصطلاحه الخصوصي من قبيل قوله للمريض الذي يشفيه « لا تعد تخطىء » وفي ذلك ما فيه من الايماء الى ان الجنون هو مرض كسائر الامراض التي تلحق بالانسان

ثامناً اذا استوعبتم جميع ما قلناه وتبينتموه جيداً اتضح لكم ان ليس في جواب السيد المسيح لتلاميذه ما يدل على وجود شيطان الجنون او يبين اسلوباً لاخراجه او يوضح شيئاً من الاشياء التي التمسها التلاميذ من سيدهم بل غاية ما فيه ان المعجزات انما تقوم بالايمان وان الجنون مرض كسائر الامراض ينشأ عن الخطية وان على المجنون ان يصوم ويصلي الى الله اي ان المجنون نفسه يجب ان يصوم ويصلي لا التلاميذ كما يوهم ظاهر العبارة الانجيلية لان السيد المسيح ما علم تلاميذه بجوابه لهم كيفية اخراج الشياطين بل ما افادهم شيئاً من هذا النحو البتة

تاسعاً ان الانجيل أوضح لنا جلياً ان السيد المسيح أعطى تلاميذه سلطاناً على ارواح نجسة حتى يخرجوها و يشفوا كل مرض وكل ضعف وقد جاء ذكر هذا السلطان الرسولي المعطى للتلاميذ اكثر من مرة ومنه قوله لهم مرة « خذوا روحاً قدوساً من غفرتم له خطاياه غفرت ومن أمسكتموها عليه أمسكت » ومنه قوله « اشفوا المرضى اقيموا الموتى طهروا البرص اخرجوا الشياطين مجاناً اخذتم فمجاناً اعطوا » وخلاصة القول ان من يمعن النظر في هذا السلطان الرسولي يجده مصروفاً الى مغفرة الخطايا وحدها دون سواها اي ان الذي اقتضاه

هو المغفرة لا شفاء الامرض وذلك واضح في الانجيل فلا يحتاج الى تعب لاجل الوقوف عليه فهو يتضح لاقل تأمل

عاشراً اذا كان قول السيد المسيح « واما هذا الجنس فلا يخرج الا بالصوم والصلاة » هو تعليم التلاميذ كيفية اخراج شيطان الجنون كما يوهم ظاهر الكلام وان على التلاميذ ان يستعملوا الصوم والصلاة حتى يقدروا على اخراجه فما معنى قول الانجيل اذن « واعطاهم سلطاناً على ارواح نجسة حتى يخرجوها »

وهنا نقول : اما ان يكون شيطان الجنون غير صحيح كما بينا وان المراد بالارواح النجسة الخطايا وبالصوم والصلاة التوبة كما اوضحنا . واما ان يكون صحيحاً ولكنه لا يخرج الا بسلطان يعطى لهم من سيدهم وان قوله « لا يخرج الا بالصوم والصلاة » هو قول لغو لا معنى له . فتأملوا

حادي عشر ان كل ما اوردناه من الحقائق التي تضمنها جواب السيد المسيح لتلاميذه واضح لا يتخلله ادنى اشكال لانه اذا لم يكن كذلك فعلى م اذن جعل السيد المسيح قوله « واما هذا الجنس » جواباً مستقلاً قائماً بذاته لا تعلق له بالقول السابق الذي بناه على التوبيخ ووجوب الايمان وما معنى قوله « فلا يخرج الا بالصوم والصلاة » حتى كأن هنالك استثناء حال كون التلاميذ والمؤمنين قاطبة يعلمون يقيناً ان المعجزات الخارقة سواء كانت نقل جبل او اخراج شيطان لا تتم الا بالايمان الحار والصوم والصلاة معاً . اذن لا يخلو جواب السيد المسيح من غرض هو عدم صحة شيطان الجنون كما تقدم والا فالجواب مشوش لا معنى له وحاشا للتعاليم الرسولية ان تكون كذلك

ع لقد افهمتمونا تحقيقاً فلم يبق عندنا ادنى شك في صحة تعاليمكم فان حسن لديكم انبئونا خبراً عن هولاء الجن الذين كانوا يظهرون لسيدنا الرسول الاعظم

وهم اليوم يأوون الى الاماكن التي خلت من سكانها فلا يكاد يوجد بيت خرب أخلاه اصحابه ما لم يكن مسكوناً من هولاء الجن . وعندنا من اخبارهم واحوالهم قصص وحكايات لا تعد ولا تحصى .

م لا جرم ان الجن حالة خيالية اوجدتها قوة الله اظهاراً لكرامة رسوله الاعظم عليه الصلاة والسلام . ولعل مجيء ذكرهم في الكتاب العزيز للاشارة الى وجود مخلوقات حية لا يعرفها الانسان وهي كثيرة وما يعلم جند ربك الا هو ولا يبعد ان تكون هي المدلول عليها اليوم من الطبيعة من ان بعض الاجرام السماوية مسكون كالارض وانما جاءت هذه المخلوقات جميعها على اختلاف اجناسها تحت اسم الجن لاغراض شتى منها الاقتصار على الخصائص الدينية اذ ليس من الدين ذكر كل جند على حدة ومنها ما تضمنه هذا الاسم بذات طبيعته من الدلالة على تعظيم قدرة الخالق كما لو ذكر الكل ومنها ما يقرب من الغرض الديني من ذكر الشيطان . وللدين في هذا النحو اغراض كثيرة لا محل لها هنا

ع لماذا لم يظهر الجن لمن سلف من الرسل

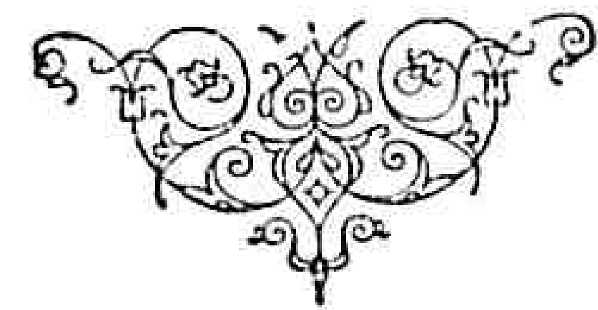
م ان عدم ظهورهم لمن سلف يثبت كونهم حالة معجزية خصت بمن تأخر من الرسل لان كلا منهم عليهم السلام قد خص بشيء من المعجزات . ولعمري لو لم يكن لهذا النبي الامي من ذلك غير ظهور الجن له بهيئة بشر مثلنا يحترمون قدره الرسولي لكفى . على ان من يلم بشيء من اخبار ظهورهم له عليه السلام سواء كان من جهة الظهور نفسه وايمانهم به او من جهة تحدثهم بحضرته عمن سلف من الرسل والانبياء يتحقق اهمية هذه المعجزة لتضمنها حقائق دينية من شأنها تقوية الايمان وتعزيز فخر الرسولية

ع كيف يجعلون ظهورهم من قبيل المعجزات التي خصت بالرسول الاعظم وهم يظهرون اليوم لعامة الناس

م ان المحمدي الذي يقول اليوم انه رأى الجن بعينه وانه رأى اعراسهم وشاهد محافلهم الى غير ذلك مما يرويه الجهلاء وخصوصاً الرعاع منهم — يجب تأديبه لانه ينزل نفسه منزلة النبي ليجعل لنفسه شأناً بين الناس

ع وهذا الكاهن المسيحي الذي يقف امام المجنون ويبدأ ينتهر الشيطان ويأمره بالخروج منزلاً نفسه منزلة السيد المسيح أفلا يجب تأديبه

م يجب طرده من البيعة طرداً نهائياً لانه آفة على قلوب المومنين . واني استودعكم الله والسلام



الفصل الخامس

في التشدق

١ نريد بالتشدق الاستخفاف بالدين وعلى هذا المراد جرينا في كل كلمة «تشدق» وردت في هذا الكتاب . ولا يخفى ان التشدق قديم العهد جداً والغالب انه لم يخل عصر من العصور الغابرة من اناس تشدقوا على العقائد الدينية سوآء كان في الوثنية او في العبادة الحقيقية غير ان التشدق القديم كان قليل الشيوع فلم يستعمله الا افراد من كبرآء العقول ولعله على قلته كان عريقاً في الكفر بدليل قول الشاعر

وتحطمنا الايام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

٢ ويعتقد اليوم المتشدقون ان التشدق موضوع في موضعه بدليل انه من اشياء علماء الارض الذين يعول عليهم فيما يقولونه . وقد فاتهم ان هؤلاء العلماء انما هم علماء دنيويون لا علماء دينيون لان العلوم الدنيوية لا تخول ذويها معرفة العلوم الدينية اذ ليس هنالك من علاقة بين الطائفتين فكل منهما قائم بذاته مستقل عن الآخر على ان لكل من العلوم الدنيوية نفسها فرعاً مستقلاً يخدمه رجال لا يخدمون فرعاً آخر والا فليكن هذا العالم الجيولوجي الذي يبحث عن تاريخ المواد الارضية عالماً فلكياً يبحث عن كنه الاجرام السماوية وليكن ايضاً هذا الطبيب محامياً وهذا المحامي طبيباً حتى تمتلئ بلادنا من الاطباء الدجالين والمحامين المنافقين . اذن ان الاعتقاد بصحة التشدق لانه من اشياء العلماء هو خطأ ظاهر وضلال واضح لان هؤلاء العلماء هم بالنظر الى العلوم الدينية جهلاء . نعم انهم يتكلمون في الاشياء الدينية

الا انهم يجهلون مواضعها من الدين . وليس ذلك بالغريب فقد تجد علماء دينيين يجهلون مواضع اشياء كثيرة من اشياء الدين : انظر الى الكنيسة المسيحية تجد علماءها الذين قاموا فيها منذ وجدت في العالم الانساني الى هذا اليوم يعدون بالوف الالوف ومع ذلك فلا يزال الانجيل مستغلقاً اذ لم يقم بين اولئك الآباء من حل رموزه وكشف غوامضه . ولعمري ان الاشياء الدينية ليست الا اصدافاً كائنة في قعر بحر زاخر لا ينالها ويدرك ما في باطنها الا الذين يغوصون عليها فقد تقرأ آية من الايات المنزلة ومعناها غير ما يدلك عليه ظاهرها وما ذلك الا لان للدين شؤوناً ليست من شؤون الكتب الدنيوية بشيء

٣ على انا لا ننكر ان بساطة الظروف وضيق نطاق المعارف وسائر ما كان من احوال الازمنة القديمة — كل ذلك قد ساعد علماء الاديان ايامئذ على الاقتصار على ما يستفاد من ظاهر التعاليم الدينية فكانوا غير مضطرين الى الغوص على معانيها والبحث عما يكمن في كبدها من الاغراض الالهية فعلماء اليهود مثلاً لم تكن ظروفهم تلجئهم الى البحث عن الاسباب التي أدت الى قول التوراة بان ابانا آدم مثلاً عاش الف سنة لانه لم يكن ايامئذ علماء دنيويون يكذبون هذا القول . فكانوا مدفوعين بطبيعة تلك الازمنة الى ان يفسروا كلام الله بحسب الظاهر غير مكلفين للبحث عما كمن فيه . وعليه فاذا ظل علماء التوراة في هذه الايام عاملين بحسب التفاسير القديمة التي اخنى عليها الزمان ينبغي استخلاص التوراة منهم وقطعهم من الكهنوت لانهم آفة على الدين فهم يخدمونه في مثل هاته الحال ليضروه لا لينفعوه

٤ ولا مراء ان العلماء الطبيعيين ما تركوا الدين الا بعد ان حكمت عليهم عقولهم بوجوب تركه لان ذوي العقول الكبيرة يعتمدون في اعمالهم على احكام العقل

فاذا رأوا في الدين ما يخالفها نبذوه كمن ينبذ خرافة . وعليه فليس تركهم للدين يدل على عدم صحته كما يوهم الامر وانما يدل على انهم قد وجدوا في الدين ما يخالف العقل . وبالوقوف على تاريخ التشدق الحديث يتضح لنا انهم ما وجدوا ذلك في الدين نفسه وانما وجدوه في خدمة الدين اولئك الذين مثلهم كمثل الحمار يحمل اسفاراً لانهم يحملون التوراة والانجيل ولا يدركون لها معنى . هل سمعت يوماً ان عالماً طبيعياً كذب الدين لمجرد كونه ديناً ألم يبلغ مسامعك الشريفة ايها الشرقي الذي تكذب الدين بلا سبب ان العلماء ما كذبوا الدين الا لان خدمته قد كذبوهم بما جاؤوا به من الحقائق الطبيعية : احذر يا هذا ان تتخذ تكذيب العلماء دليلاً على عدم صحة الدين لان هؤلاء ما بحثوا فيه لانصراف اذهانهم عن البحث لانهم سمعوا علماءه يقولون بان الحقائق الطبيعية تنافي الدين فكذبوه لعلمهم ان هؤلاء يتكلمون من عند الدين . فان كان ولا بد لك من ان تتخذ التكذيب دليلاً فاتخذ تكذيب خدمة الدين للعلماء دليلاً على جهلهم لانهم كذبوا الحقائق الدنيوية من عندهم لا من عند الدين فالدين أرفع من ان يعلو عليه دليل يبطله

٥ فانت اليوم اذا سمعت خدمة الدين يقولون ان ابانا آدم عاش زهاء الالف وان المسيح إله خالق وان الارض ثابتة غير متحركة وان الشيطان متحرك غير ثابت وان السماء بناء يعترض في الفضاء فيسده — اذا سمعت خدمة الدين يقولون هذه الاقوال وما شاكلها مما يغاير العلم فلست تكذبهم وانما تكذب الدين لعلمك انهم يتكلمون من عنده لا من عندهم . فاذا وقفت هنا متأملاً تجد ان المصيبة هي هذه النقطة التعيسة . نعم ان ما يقوله خدمة الدين ضد العلم ليس من الدين الا انه يعمل به في كل حال لان قولهم قوله فهم خدمته ونصراؤه ان شاؤوا رفعوا شأنه وان شاؤوا جلبوا عليه التكذيب من كل صوب . اذن

ان تكذيب علماء الطبيعة للدين لا يدل على عدم صحة الدين لان خدمتهم قد كذبوهم وقاوموهم مقاومة تشف عن خلو الدين مما يبين كون مقاومتهم ليست من الدين بحيث لم يتركوا لهم وسيلة للبحث . والذي وقف على مبادىء التشدق الحديث واطلع على الاضطهادات المغالطة التي تحملها العلماء بثبات لا يبقى عنده شبهة في ان خدمة الدين قد اضروا بالدين ضرراً عظيماً لانهم صرفوا الاذهان عن البحث فيما وراء الظاهر من الكتب المنزلة

٦ واذ قد تبين لنا ان تشدق علماء الطبيعة قد نشاء عن جهل خدمة الدين لانهم هم الذين اوجدوا الخلاف بين الدين والدنيا وجب علينا نحن معاشر المؤمنين ان نعرض عنهم ونبحث عن الحقائق الدينية بانفسنا فان لم نفعل فلا ننتظر منهم خيراً لان حياة الايمان انما تقوم اليوم بالسعي وراء البحث في التعاليم المنزلة لا بوجودهم اذ ليس هنالك نور للعالم ولا ملح للارض ولا شبهة ان من يبحث في التعاليم الدينية المخالفة للعقل بحثاً مقروناً باعمال الفكرة غير ملتفت فيه الى ما يقوله خدمة الدين مما يصرف الذهن عن البحث الحقيقي تتضح له الاسباب الدينية التي ادت الى الخلاف اتضاحاً جلياً لانها مودعة في كتب الدين فلا ينقصها غير البحث عنها والتفتيش عليها

٧ واذ كان الوحي كما تقدم في الفصل الاول هو الذي دل الانسان على العبادة لا العقل كان لا بد للعقل من ان ينزع عن الدين الى اقل حقيقة دنيوية تخالفه لانه لو كان هو الذي دل الانسان على العبادة لا الوحي للزم عن ذلك ان يظل الانسان متديناً بحكم العقل . فلا بدع والحالة هذه اذا رأينا العقل ينزع الى اصله بائماً الدين كله ببذرة واحدة من الحقائق الدنيوية

٨ وبما ان الدين شيء سماوي جاء لتعليم الانسان وتهذيبه فلا بد وان

يخلو من الخلاف بينه وبين العقل حتى يكون مما يقدر الانسان على قبوله وطاعته . وسيأتي بنا في الفصل التالي ما يفيد ان الدين انما جاء ليعيش في الارض دائماً لا ليزورها ثم يرجع الى السماء . وعليه فهو لا يستطيع (١) ان يعيش فيها ما لم يستبدل طبيعته السموية التي رسخته على الارض بالطبيعة الارضية اي ان يكون شأنه شأن التعاليم الارضية اي ان يكون قابلاً للتحوير والتغيير . يدلك على ذلك ان جميع التعاليم الدينية ما عدا ما يتعلق منها بالعبادة وحسن السيرة قد جاءت موافقة لمطالب الارض ايامئذ . ولا شبهة ان ما كان من الدين كذلك فمن الضرورة ان يختلف باختلاف هذه المطالب ولا اشكال فيه .

٩ وليعلم كل متدين من بني الانسان رسولياً كان أم وثنياً ان الدين ليس الا تعليماً سماوياً جاء ليدل الانسان على واجباته نحو الله ونحو الناس . هذا غاية ما نقدر ان نقف عليه من كنه الدين . فاذا قال المحمدي مثلاً ان خباء المرأة هو من الدين فليس من العدل الديني ان نسلم له بما يقول لان هذا الخباء هو ولا مراء امر دنيوي محض لا تعلق له بالدين بدليل ان البحث في احكامه لمن متعلقات الدنيا لانها هي وحدها تتكفل باظهار مضاره او منافعه ان كان

(١) لا يشكل عدم الاستطاعة بما هنالك من قوة الله العزيز الحكيم — لان للدنيا احكاماً هي عند الله مقدسة كاحكام الدين بلا خلاف لانه سبحانه هو واضع الكل بيمينه القادرة وبما ان الدين جاء الى الارض ليعيش فيها فمن الضرورة ان يماثلها في طبيعتها حتى يستطيع الاقامة فيها . ولسنا نلوم المتشدقين لانهم مرقوا من الدين لما يرونه فيه اليوم من السكوت والسكون لان ذلك نتيجة المماثلة وهم قد جهلوا ذلك وانما نلوم نصراء الدين الذين يأبون الا التعليم بان الدين باق على طبيعته السموية فيدفعون بالناس الى التشدق وصبر جميل .

ثمة منافع بخلاف الدين فانه خالٍ من الدلالة على شيء من ذلك . نعم ان الحجاب قد جاء في الدين الا انه جاء اقتضاء لطبيعة الارض ايامئذ وما كان من الدين كذلك فمن الضرورة ان يكون معها كيفما كانت . وعليه فان البحث في خباء المرأة ينبغي ان ينظر فيه الى احكام الدنيا حتى يتبين لنا ان كان الخباء نافعاً او مضراً فان تبينت مضرته وجب منعه والا فليبق القديم على قدمه فانه لا أثر ديني لا يسوغ العدول عنه ما لم يكن هنالك باعث دنيوي يدعو الى العدول — فعسى ان يقوم من المحمديين اكثر ممن قام فيبحثون في الامر بحثاً دنيوياً محضاً لان المسألة ذات بال .

١٠ ولا يخفى ان الانسان يعيش للدين وللدنيا معاً فلا يحسن به ان يعيش للدين وحده فان وجد بين الوثنيين والمسيحيين من يفعل ذلك فانما هم افراد قليلون ينفردون للتعبد زهداً في حطام الدنيا وتخلصاً من الدخول فيها لما هنالك من اثقال الزوجة والاولاد ومشاق السعي وراء الرزق . فمثل هولاء الخاملين الذين قد جهلوا كل غاية شريفة أوجد الله الانسان لاجلها لم يكونوا ليخطروا على بال المجتمع البشري وان اضروا بعمرانه . ولكن اذا وجد شعب من شعوب الارض يعيش للدين وحده غير مبال بما يعترض له في طريق الدين من احكام الدنيا فحدث عن تعاسته ولا حرج . كيف لا والدين نفسه ما سكن الارض حتى خضع لاحكامها حال كون طبيعته سماوية محضة فكم أحرى اذن بالانسان الخضوع لاحكامها وطبيعته طبيعتها لا جرم ان من يعيش للدين وحده غير مبال باحكام الدنيا ليس فقط يقاوم الدنيا بل يقاوم الدين نفسه لانه يعمل ضد ارادة الله

١١ هذا وكلنا يعلم ان الاديان الالهية لم تقتصر في تعاليمها على القضايا

الدينية المحضة بل قد تجاوزتها الى الاشياء المدنية مما لا بد وان يبدو مغايراً بكرور القرون وتقدم احوال الانسان الاجتماعية . فان لم يأخذ رؤساء الاديان الالهية بتغيير كل ما يبدو في الدين مغايراً لمطالب الايام أوهموا الناس ان تلك المغايرات هي من الدين وفي ذلك ما فيه من بواعث التشدق .

١٢ ومعلوم ان عقل الانسان اليوم غير عقله في الامس فانه قد أصبح لا يقبل حقيقة — دينية كانت او دنيوية — ما لم تنطبق على مداركه ويحيط بها من كل وجوهها فان لم تكن كذلك رفضها كل الرفض ولو رآها نازلة من السماء بعينيه . وهو ليس فقط يرفض التعاليم المخالفة لاحكام العقل بل يحمل غيرها عليها فيذهب الصحيح بجريرة الغير الصحيح .

١٣ على ان الذي يرفض التعاليم المخالفة للعقل اذا ادرك اسباب مجيئها في الدين يقتصر في الرفض عليها وحدها فيظل ايمانه محفوظاً . ولكن انّى له ان يدرك ذلك وباب البحث مغلقاً الا ترى انك اذا عثرت بعثرة دينية وعرضت امرك لاحد من خدمة الدين كيف انه لا يزيدك على قوله « لا تبحث يا بني فيما ينبغي التسليم به فاننا لا نقدر ان ندرك اعمال الله » هذا اذا لاطفك في الجواب كما اذا كنت غنياً محترماً والا انتهرك بقوله « اسكت فاني لا اريد ان اسمع كلامك » .

١٤ لا جرم اننا معاشر المتدينين لفي اشد الحاجة الى فتح باب للبحث في الاحكام الدينية من حيثيات تتكفل بحفظ الايمان في القلوب لان باب التشدق قد اصبح في هذه الايام مفتوحاً والداخلون فيه كثار . وليعلم المطالع ان للمباحث الدينية الحديثة منافع عظيمة خلافاً لما يظنه المؤمنون لان الذي يضر بالدين حقيقة هو هذا التسليم الذي يأمرنا به الرؤساء بدليل ان

العقل يرفضه متى افاق من مرض الجهل ورفضه يؤدي الى ترك الدين سريعاً .

١٥ ولا حاجة الى التطويل في هذا الصدد لان اكثرنا يعلم ان العقل يقبل القضايا الدينية المحضة ويخضع لها صاغراً حتى كانه وجد ليكون لها عبداً . وعليه فاذا كان الدين صحيحاً وهو لاشك كذلك فلا بد وان يكون خالياً مما يفوق طور العقل فان وجد فيه شيء من ذلك فهو موضوع لا محالة وماكان كذلك يجب نبذه .

١٦ فبناء على ما تقدم يتضح لنا ان الله تعالى ما انزل للانسان تعليماً يفوق طور العقل والا فالتشدق اذن هو عمل الهي (استغفر الله العظيم) اذ ليس من وسع الانسان ان يتدين بدين يفوق طوره العقلي ما لم يكن عقله مظلماً يصدق كل ما يسمع . وعليه فان صح وجود اشياء في الدين تفوق طور العقل فالدين اذن جاء للجهلاء وحدهم دون سواهم . فاذا كان ذلك كذلك فعلى مَ اذن نلوم العقلاء لانهم يتشدقون . فان كان ولا بد والحالة هذه من اقامة الدين فلتحرق كتب العلم والمعرفة ولتهدم المدارس وسائر النوادي العلمية حتى لا يبقى في الارض غير المدارس الدينية والسلام .

١٧ وليس يخاف ان علماء الاديان الاقدمين قد صرفوا اعمالهم الدينية الى حيث تتوفر اسباب التأسيس وترسيخ الايمان في القلوب مما لم يعد من الحاجة بشيء لان التأسيس قد تم والايمان قد رسخ وانما حاجتنا اليوم هي صرف الاعمال الدينية الى حيث تتوفر اسباب بقاء الايمان حفظاً له من الزوال . ومعلوم ان من يعمل ليحفظ لا يسوغ له ان يقتدي بمن عمل ليؤسس لان لكل من العملين احكاماً خاصة به . فقولنا اليوم مثلاً « هكذا قررت

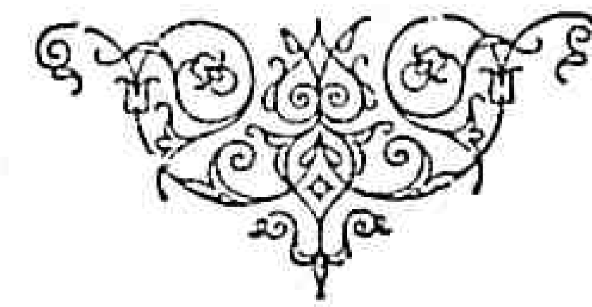
المجامع وهكذا أجمعت الامة » لا يقف دون قولنا « هكذا ينبغي ان نعمل لنحفظ » لان عمل الحفظ هو مقدس ايضاً كعمل التأسيس بلا خلاف

١٨ ومن الغريب ان من يعثر في بلادنا بعثرة دينية ليس فقط لا يجد من ينهضه بل لا يجسر ان يقول انه عثر خوفاً من التكفير . ولذا فانك تجد متشدقين كثيرين من مسلمين ومسيحيين يكتمون الكفر - دعوا الناس يا هؤلاء يسألونكم وراعوا في الاجوبة افكارهم واحوالهم وازيلوا عثراتهم وأروهم الدين من حيثياته الصحيحة الخالية من العثرات . دعوهم يبحثون فيما يشكل عليهم من الدين ولا تخافوا لان في الكتب المنزلة ما يتكفل بازالة هذا الاشكال نعم ان البحث قد يضر بالدين ولكن بالاديان الوثنية الكاذبة لا بالاديان المنزلة من لدن من ادرك بسابق علمه ماسوف يرد على كلامه من الاعتراضات رخصوا لكل مؤمن ان يشكو اليكم أمره فان الايام خبيثة هي . اهتموا بازالة العثرات لان العقل يرفضها رفضاً تاماً . لا تقولوا لمن يشكو اليكم عثرته « لا تبحث فيما لا يعنيك » لانكم ساعة تقولون له ذلك لا يتوارى عنكم الا وهو في قبضة الكفر . لا تقولوا له « اسكت لئلا تكفر » لان الكفر انما ينشأ عن مثل هذا السكوت التعيس المشوم فاذا امرتموه به فكأنكم تأمرونه ان يكفر . لا تقولوا له « لا نريد ان نسمع كلامك » لانكم اذا لم تسمعوا اليوم كلامه ففي الغد تسمعون كفره

١٩ والحاصل فان التشدق ولا يخفى على المطالع قد فشى في بلادنا كفشو الاوبئة اي انه بعد ان كان فعل العقل أضحى فعل العدوى بل قد صار بمثابة هذه الازياء المعروفة بالموده بحيث اذا أصبح الجاهل يوماً والعوائد

الجديدة تستهويه فلا يدخل عليه المساء الا والكفر حليفه • فان لم ينهض رؤساء الاديان الى عمل جديد يمكن من استئصال جرثومة هذا الشر المبيد فالعاقبة تعيسة لا محالة وما أصدق قول الشاعر في هذا المقام

تداركوها وفي اغصانها رمق　　فلن يعود اخضرار العود ان يبسا



الفصل السادس

في طبيعة الدين

١　لا جرم ان الانسان انما يحترم الدين ويخضع لاحكامه ويعتبره مقدساً بطبيعة التدين التي اكتسبها من الوحي • وهذه الطبيعة هي اليوم طبيعة الانسان نفسه لاطبيعة الدين لان الدين لا يقوم بمقتضى طبيعته السماوية ما لم تصحبه المعجزات الالهية دائما ابداً حتى ينقاد الانسان له كما تنقاد البهيمة اي بالرغم عنه وهذا باطل اذ ليس ذلك من خصائص دين يؤذن بالخلود ومحاسبة النفس عما سلف

٢　نتج اذن ان الدين لا يكون ديناً الهياً مؤذناً بالمصير الى الوقوف بحضرة قاض عادل ما لم يكن الانقياد له حاصلا بالاختيار وهذا لا يتم الا بانطباق طبيعة الدين على طبيعة الارض اي على احوال الانسان وظروفه وسائر مشتملاته فان لم يكن كذلك فلا حياة له على الارض الا عند الجهلاء الذين لا يدركون ما هو الدين ولعمري ان ديناً لا يستطيع الحياة على الارض تلقاء العقول الكبيرة لهو دين كاذب لا صحة له • وعليه ينبغي لنا ان نبحث في ادياننا الالهية فاننا نراها آخذة في الضعف تلقاء هاتيك العقول العظيمة فهل هي غير صحيحة ؟ فان كانت صحيحة فلماذا نراها كمريض يدنو من الموت يوماً فيوما وليس ثمة طبيب أليس من الخطأ ان يترك الدين كذلك

٣　لا جرم ان الدين لم يجيء الى الارض ليسود عليها فقط بل ليعيش

ايضا فيها كما تعيش الاشياء الارضية اي ليعيش فيها بمقتضى احكام الناموس الارضي العام الذي منه تصدر صلاحية الحياة على الارض بحكمة الحي السرمدي جل جلاله . يدلك على ذلك هذا السكوت الديني الذي ينظر اليه اليوم المتشدقون بعين الازدراء لانهم يتخذونه دليلاً على عدم صحة ما روته لنا الكتب الدينية من معجزات الرسل وخلفائهم وانما ينظرون اليه كذلك بالنظر الى ما يقوله خدمة الدين من ان الدين باق على طبيعته السموية فلو قالوا بامتزاج طبيعته بطبيعة الارض لكفوا الدين مؤونة كبيرة من مؤونات التشدق . اذن ان الذين يقولون بما يخالف الواقع لجديرون بقطع السنتهم

٤ ولا يخفى ان القول بان الدين باق على طبيعته السموية يضر بالدين من حيثيتين الاولى من حيثيته السموية المحضة كما اذا رأيت سارقاً سرق كنيسة او جامعاً فأخذ ما هنالك من الآنية الذهبية والفضية وخرج سالماً دون ان يعارضه من قبل صاحب البيت معارض حتى كأن بيت الله بمثابة بيت الانسان . او اذا رأيت مأذنة او قبة جرس قصفتها صاعقة او بيتاً من بيوت الله هدمته زلزلة . وكما اذا سألت الله في ايام شدتك ولم يستجب لك او اذا رأيت الشرير يفترش القطيفة والحرير وانت على تقواك وصلاحك لا سبد لك ولا لبد . اذا رأيت هذا كله وما شاكله من احوال الدنيا وسمعت علماء الدين يقولون ان الدين لا يزال على طبيعته السموية كما كان ايام من جاؤوا به فلا يسعك الا النفور من الدين . هذا اذا كنت من ذوي العقول الكبيرة الذين لا يمر عليهم شيء من الاشياء مالم يزنوه بميزان العقل فانك في مثل هاته الحال تجد الاشياء الدينية خاضعة للناموس الارضي كاشياء الارض بلا خلاف والا فانت جاهل تصدق كل ما تسمع فلا تدرك ما لقولهم بعدم امتزاج طبيعة الدين

بطبيعة الارض من المرامي التعيسة .

٥ والثانية من حيثيته الدنيوية المحضة لان ثلاثة ارباع التعاليم الدينية او اكثرها مما يتعلق بالدنيا دون الدين . فقولهم ان الدين باق على طبيعته السموية يمنعهم من تغيير هذه التعاليم التي لا بد وان تختلف باختلاف الاحوال والظروف في حين ان الانسان لا يستطيع الخضوع للدين في مثل هاته الحال ما لم يره شيئاً من اشيائه الخاضعة لاحكام الدنيا . فالارض اذن لا تكون غير صالحة لحياة الدين ما لم يكن الدين غير صحيح .

٦ فبناء على ما تقدم نرى ان لا بد من الجد في معرفة كنه الطبيعة الدينية لان معرفتها قد اضحت في هذا الزمان الخبيث شديدة اللزوم لمساعدتها على الاحتفاظ بالايمان اذ ما من شيء من اشياء الانسان يقدر الانسان على الاحتفاظ به ما لم يقف على كنه طبيعته فالبحث اذن عن كنه طبيعة الدين هو سياج الايمان

٧ ولا مراء ان المباحث التي اخذناها من ذلك عن الاولين غير وافية اليوم بحاجتنا الدينية وانما اكتفوا بها ايامئذ لعدم الحاجة الى الزيادة بحيث ساعدتهم ظروفهم واحوالهم على صرف الدين كله الى حيثياته السموية حتى تقرر في الافهام ان التعاليم الدينية الدنيوية لا يسوغ تغييرها ومعلوم ان انسان هذه الايام لا يستطيع ان يعرف الدين سماوياً الا من حيثية كونه قد جاء من السماء اي انه يلتمس ان يرى الدين شيئاً من اشيائه الارضية اي ان يكون منطبقاً على احكام الدنيا فان لم يره كذلك تعذرت حياة الدين على الارض . وبعبارة اخرى ان الانسان لا يظل في هذه الايام متديناً مالم ير الدين شيئاً من اشيائه التي لا يبطلها حادث من تقلبات احواله اي التي تكون معه دائماً ابداً حيثما كان وكيفما وجد .

٨ وبما ان الدين لا يزال كيفما كانت الحال حافظاً بذات طبيعته اسمه السماوي المحفوظة به كرامته فلا مانع يمنع رؤساء الدين من القول بان الدين باقٍ على طبيعته السموية(١) لكن على شرط ان يوفقوا بينه وبين الدنيا فان فعلوا بنوا قولهم على طبيعة دينية صحيحة ونعمّا يفعلون

٩ ولسنا نحب الخوض في موضوع هذا الفصل لانه غير مألوف عند المتدينين فلعلهم يستثقلونه · على ان لنا في الفصول التالية مباحث قريبة من هذا النحو يتناولها المطالع من وجوهها القريبة من القبول · ومهما كانت الحال فان الاستثقال انما يكون عند الجهلاء لا عند علماء الدين ولا سيما علماء الاحمدية منهم لان هنالك جهابذة يدركون ما هو الدين · والذي ألمّ باحوال الاسلام الدينية لا يجهل ما عندهم من الاستعداد الديني لتطبيق كل ما يعرض لهم من اشياء الدنيا في سبيل الدين على احكام دينية صحيحة

(١) لا شك ان هذا القول هو الأليق بشرف الدين مما اوردناه في هذا الفصل وانما اندفعنا الى تبيين ما بيناه لنبين لرؤسائه وجوب التوفيق بين الدين والدنيا حتى اذا قالوا بان الدين غير الدنيا يقع قولهم في موضعه الديني اي بدون ان يلحق بالدين ضرر

الفصل السابع

في كتبة الكفر

١ ينسب التشدق الحديث الى الامة الافرنسية لانها هي التي فتحت ابوابه للعالم الانساني · ولسنا نريد ان هذه الامة التعيسة الحظ الديني قد تعمدت الكفر بلا سبب وانما نريد ان السبب كان دنيوياً لا دينياً والذي ألمّ بتاريخ التشدق الحديث وما كان هنالك من حركات الامة يعلم يقيناً ان الدين اضحى عندهم ايامئذ فريسة الدنيا ظلماً وعدواناً اي بلا سبب ديني

٢ ويعلم الواقفون على الحقيقة ان الكتابات الكفرية التي جاء بها كتبة الكفر انما كانت ضد الكنيسة وآبائها المتعسفين لا ضد الحق سبحانه ولا ضد الدين وانما أضاعوا الدين في سبيل العمل على الاصلاح الدنيوي لما كان هنالك ايامئذ من تعلق الشؤون الدنيوية بالدين من جراء جور خدمته وتداخلهم فيما لا يعنيهم حتى نفر الناس من الدين وبتمادي الايام أضحى النفور خلقاً غريزياً ·

٣ ولا شبهة ان كتابات الكتبة الذين عبثوا بالدين خالية من البراهين على بطلانه وانما الحقائق التي جاؤوا بها اصلاحاً للاحوال الدنيوية قد ألجأتهم الى الازدراء بالعقائد الدينية لانهم توهموا علاقتها باحكام الدنيا وانها مضرة بها لوقوفها في سبيل الاصلاح الدنيوي وانما توهموا ذلك لما رأوه من وقوف خدمة الدين في سبيل الاصلاح فحسبوا وقوفهم من عند الدين فحكموا ببطلانه بلا بحث · ولذا تجد كتاباتهم ضد الدين اشبه بحكايات

هزلية اذ كانوا يأنون على ذكره في مقام الهزل والضحك.

٤ ولامراء انهم لو بحثوا في الدين بحثاً صحيحاً لحكموا بان المسحاء الكذبة هم خدمة المسيح لا المسيح نفسه الذي مسحه الله بيده القدوسة انظر الى العلامة رنان الفرنساوي الذي مات في اواخر القرن الماضي تجده لم يكلف نفسه للبحث عن كنه الرسولية حينما انزل السيد المسيح عن عرش الالوهية وانما انزله لان عقله ما سلم بالوهيته فدفعه عدم البحث الى ان نقله من مقام الالهية الى مقام الانسان الارضي دفعة واحدة غير فاطن لمقامه الانساني السماوي لان هذا لا يتأتى ادراكه الا بالبحث مع صرف النظر عما تقوله الكنيسة وهو لم يفعل مع انه كان قوي الاعتقاد بالخلود . وليس ذلك بغير جائز على فيلسوف نظيره — لان عموم المسيحيين من علماء وادباء واغبياء وجهلا يعتقدون ان الكنيسة هي الديانة المسيحية بعينها خلافاً لغيرهم من العالم المتدين فان مرجع كل فريق من هولاء الى كتابه فاذا رأى في تعاليمه الدينية ما يشكل عليه قابله على الكتاب فان لم يجد له فيه أثراً نبذه والا رده الى حيثيته الدينية . وبناء على هذا الخلاف العظيم بين المسيحيين وغيرهم فليس في وسع أحد منهم ولو فيلسوفاً ان يفطن للبحث في الانجيل لان الكنيسة عندهم هي الكل فان رأوا فيها مغايرة حسبوها من الانجيل لا محالة . والحاصل فان غاية ما اكتسبه السيد المسيح من هذا العلامة الذي اندفع الى المجازفة في الدين رغماً عنه انه جعله رجلاً كبيراً اذ خاطبه بقوله له ما مفاده « السلام عليك ايها الرجل الكبير انك واتن كنت غير اله فان عملك عمل الهة » ولا شبهة ان الذي يقف هنا متأملا فيما قاله هذا الرجل الشهير لا يسعه الا الاستغراب من انصراف قلوب المسيحيين

الى الكنيسة وحدها دون سواها من الكتب الرسولية فضلا عن الانجيل اذ لو لم تكن الحال كذلك لاندفع هذا الفيلسوف بطبيعة قوله المذكور الى البحث في الانجيل وبولس من كنه السيد المسيح

٥ وجملة القول فان كتبة الكفر لم يقم بينهم من فطن للبحث في احكام الدين لانهم اكتفوا بالاستدلال على المسيح من الكنيسة وآبائها . واول من مشى على هذه الخطة التعيسة زعيمهم الشهير المعروف بفولتر(١) . على انهم ليسوا بذوي عذر نظيره لانه قد أشغلته الاصلاحات الدنيوية عن البحث في كتب الدين اذ كان همه السير في طريق الاصلاح والتمدن وان يقتل كل ما يراه من الدين واقفاً في ذلك الطريق خيالاً كان ام غير خيال . ولو تجرد للامر لرأى جميع الوقوف أخيلة اذ ليس في الدين ما يقف في طريق الدنيا البتة .

٦ على ان الاثم انما كان على عاتق خدمة الدين اولئك الذين كانوا يمثلون للناس ما ليس من الدين بشيء شيئاً دينياً وبالعكس فاشياؤهم المغايرة كانت حلالا واشياء الناس التى تغاير مقاصدهم الخصوصية كانت حراما بحيث كانوا هم الدين وهم الانجيل وهم الكنيسة بل هم الكون بأسره . ولا يزال كثير من ذلك الى هذا اليوم وخصوصاً في الكنيسة الارثوذكسية ما عدا

(١) هو كاتب فرنساوي ولد في اواخر القرن السابع عشر بباريس وعاش عمرا طويلا قضاه في العمل على الحث على الاصلاح وله في ذلك تاليف كثيرة اندفع فيها الى العبث بالدين بالرغم عنه بدليل ان استخفافه بالدين متجه نحو الغاية التي كان يكتب لاجلها فهو لم يكتب قط ضد الدين من حيثيه تنافي غايته الاصلاحية فغاية ما كتبه ضد الدين متجه نحو الاستبداد الذي كان لخدمة الدين فيه اليد الطولى . واذ كانت فرنسا في ايامه مضطربة الاحوال من جراء ما لحق

الكنيسة الروسية فان لرؤساء الدين هنالك حدوداً دينية لا يتعدونها لان زمام السلطة الروحية بيد ملوكهم من عهد بطرس الكبير

٧ ولا مشاحة ان الكتاب الفرنساويين الذين جاهدوا في سبيل الاصلاح الدنيوي قد كان من واجباتهم ان يقاوموا كل سلطة تقف دونهم تنفيذاً لمقاصدهم الشريفة . وبما ان الجور والاعتساف وكل الامور المغايرة كانت ناشرة اعلامها ايامئذ من قبل السلطتين الدنيوية والدينية فكان من واجباتهم ان يقاوموا السلطتين معاً فاندفعوا والحالة هذه الى مقاومة السلطة الدينية كما قاوموا السلطة الدنيوية . وهم في كل ذلك انما راموا الاصلاح لاهدم السلطات التي تبنيها الاستقامة ويقومها العدل لان سلطة من هذا النحو هي قاعدة العوالم الانسانية . وعليه فالذين ينسبون شرور الاحزاب الاوربية الى هؤلاء الكتبة الافاضل فانهم ليظلمونهم من حيث لا يدركون .

بها من التأخر المادي والادبي بسبب الحوادث المذهبية البروتستنتية التي كان لويس الرابع عشر قد فتح ابوابها بعد ان تغلقت زمناً وبسبب الحروب الطويلة المعروفة بحروب وراثة اسبانيا فضلا عما كان في البلاد من استبداد الامراء وخدمة الدين مما جعل الشعب بحالة تعيسة جداً اذ كانوا عائشين عبيداً للكبرا — كل ذلك معما شاكله من بواعث التاخر والانحطاط التي بلغت في زمن فولتر مبلغها الاقصى قد نبه عواطف هذا الرجل العجيب وفطنه بحقائق لو لم يتخللها اللعب في الدين لحسبت في مقدمة ما جاء به العلماء من اسباب سعادة الانسان — واذ ذاك تجرد للاصلاح الدنيوي فقبض بانامله على يراعة نقل بها العالم الانساني من طور الى طور . وفي ايامه طرد الاباء اليسوعيون من فرنسا واشتدت الازمة ودبت روح الثورة في القلوب حتى اضحى التملص من ربقة العبودية للامراء وخدمة الدين امرا لا بد منه . وهكذا مات فولتر تاركاً كتاباته عاملة على نشر الوية العدل والمساواة وبث روح التمدن في البلاد وقد حاول المنكود الحظ لويس السادس عشر اصلاح الشؤون تسكيناً للشعب ولكن بلا طائل .

٨ ومعلوم ان مقاومة السلطة الدينية الجائرة لا تكون الا مقرونة بالعبث بالدين لانها تستلزمه . غير ان العبث في مثل هاته الحال انما يكون بالاشياء التي تبنى عليها السلطة لا بالدين كله . ذلك ماراعاه مؤسسو الكنيسة الانجيلية فانهم عبثوا بسلطة آباء الكنيسة دون الدين بخلاف كتبة الكفر فانهم نظروا في هذه السلطة كمن ينظر في الدين نفسه فتوهموا والحالة هذه ان الدين مضر بالانسان فقرنوا مقاومتها بالعبث به . وكما تقدم غير مرة انهم لو كلفوا نفوسهم البحث في حقائق الدين لما عبثوا بالكل

٩ ونحب ان نعود الى ايراد شيء مما اوردناه ولكن بعبارات اخرى واسلوب آخر فنقول : جميعنا نعلم ان الكفر الذي سرى سمه في قلوب الفرنسيس ومن حذا حذوهم من الغربيين انما نشأ عن الاستبداد والمظالم واعتساف الرؤساء الروحانيين زمان كان زمام عامة الناس بيد الامراء وخدمة الدين — الامور التي افضت بالبعض من الكتبة العلماء الى التنديد بالعقائد الدينية وبث روح جديدة في القلوب تبعث على قطع دابر الظلم واستئصال كل سلطة جائرة وعلى رفع رايات الحرية والعدل والمساواة . والذي ألمّ بحوادث الثورات الفرنساوية وما كان هنالك من الاعمال المغايرة ضد الدين وضد الدنيا وضد كل حق وعدل يتأكد لديه ان الكفر كان امراً مقدوراً لا بد منه لان ذلك الشعب كان قد وضع نصب عينيه اما حياة شريفة واما موتا بلا اسف .

١٠ واذ كان ما من نفع الا ومعه شيء من الضرر كان لا بد من صيرورة الضرر عظيما اذا تعذر نوال النفع بالتي هي احسن لان نواله بالتي هي اقبح يجعل اكثره ضرراً . ذلك ما لحق بالامة الفرنساوية فانها لم يتسن

لها التملص من ربقة العبودية القديمة الجائرة والدخول في التمدن حتى خرجت من الدين والمعنى انها ما استطاعت الحصول على سعادة الحياة الدنيا حتى ابتاعتها بسعادة الحياة الاخيرة فكأن الدين والحالة هذه كان واقفاً عندهم في سبيل الدنيا الصحيحة . فلا جرم ان المتأمل هنا يقف متأسفاً على عقائد دينية لم يقم لها نصراء حقيقيون .

١١ فواضح اذن ان الكفر انما نشأ عن المظالم التي كانت تشف عن تسلط القوي على الضعيف حتى كأن الانسان قد خلق ليعيش كما يعيش الحيوان الاعجم اي بلا حقوق عمومية تربطه بروابط مدنية هي قوامه وبهاؤه ومجده — وعن اعتساف خدمة الدين وتصلفهم ووقوفهم في سبيل التمدن والتقدم واقتصارهم على خدمة بطونهم وصوالحهم الخصوصية وسعيهم وراء السيادة والحكم واهتمامهم بتنفيذ كلمتهم في ارواح الناس حتى كأنهم آلهة

١٢ ولا شبهة ان خدمة دينيين لا يعرفون للقسط الديني معنى ولا للعدل الكنائسي اسماً ولا يبالون بوزنات سيدهم ولا بقوله (من لا يجمع معي فهو يفرق) — ليدفعون بالمؤمنين الى المروق من الدين اما شيئاً فشيئاً كما هو الحاصل في بلادنا واما دفعة واحدة كما حصل في البلاد الفرنساوية .

١٣ ويعتقد المسيحيون ان طاعة آباء الكنيسة واجبة عليهم في كل حال وان عليهم ان يستروا ما يرونه فيهم من العيوب وان يخضعوا لهم خضوع العبد لمولاه ويسجدوا لهم كما يسجد للاله وان يقبلوا ايديهم كما يقبلون الانجيل ويتبركوا منهم ولو كانوا خطاة وان يحسبوهم زجاجاً يجرحون كل من يمسهم حتى كأنهم آلهة بصورة بشر وان الروح القدس يتكلم عنهم حتى كأن هذا الروح الالهي قد حل عليهم كما حل وقتاً ما على الرسل الحواريين

عليهم السلام — وهلم جراً الى اخر ما هنالك من العقائد التي لا حد لها . ولكن فليعلم كل مسيحي في المسكونة ان طاعة اباء الكنيسة لا تجوز مالم يكن هنالك ثمراً يدل على شجره كقول الانجيل (من الثمرة تعرف الشجرة) ولا يسوغ احترامهم ما لم يضيء نورهم قدام الناس والا فعدم الطاعة وخرق الاحترام والاعراض عنهم واحتقارهم — كل ذلك من عند الانجيل قال السيد المسيح (كل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار) وقال ايضاً (ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات لكن الذي يعمل ارادة ابي الذي في السموات هو يدخل ملكوت السموات . فان كثيرين سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب ألم نكن باسمك تنبأنا وباسمك اخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة . فحينئذ أعلن لهم اني لم اعرفكم قط فاذهبوا عني يا فاعلي الاثم) وفي الانجيل اقوال رسولية كثيرة من هذا النحو . ولكي لا يقال بعدم تخصيصها باباء الكنيسة قرن السيد المسيح قوله بالفعل بان قال لاكبر تلاميذه (اذهب عني يا شيطان) وهو عليه السلام انما قال لتلميذه ذلك في حين ان الذنب الذي اقترفه التلميذ لا يستوجبه لانه قول متناه في الدلالة على كبر الجرم وعظمه والجرم ليس كذلك . فلا جرم ان السيد المسيح قد نظر بسابق العلم الرسولي الى هذة التعاسة اي الطاعة العمياء والى ما ينشأ عنها من عدم احترام الدين او تركه فلم يأمر بطاعتهم حتى استغرق قسماً كبيراً من انجيله في سبيل تعليمهم واجباتهم الدينية تارة باقوال صريحة وطوراً برموز وامثال . ولكي لا يظن الناس ان احترامهم واجب في كل حال دفع الظن بان وضع قوله لبطرس كما تقدم مثالاً لذلك .

١٣ وبديهي ان مسيحياً يرى بعينيه ان احترام اباء غير بالين بواجباتهم الدينية يفضي الى عدم احترام الدين بل الى تركه فلا يحتاج الى الاستفهام عما اذا كان احترامهم واجباً ام لا . فنحن اذاً في غنى عن ايراد الادلة الانجيلية المؤذنة بعدم احترام الاباء المعرضين عن العدل الكنائسي .

١٤ وما من شيء يقف عنده العاقل متعجباً اكثر من تعجبه من خدمة دينيين يقاومون علماء الارض في اكتشافاتهم الطبيعية اذ لا يعقل ان للدين علاقة بذلك . فلا جرم انهم كانوا ولا يزالون يقفون في سبيل العلم لمجرد التحكم وتنفيذ الكلمة بدليل ما نراه من ذلك في وقوفهم في سبيل الدين نفسه كقول الكنيسة للمسيحي مثلا (لا يجوز لك ان تأخذ امرأة اخيك[1]) على علمها ان السيد المسيح لم يبطل الشريعة الموسوية كما سنبين ذلك في مكانه . فواضح اذاً ان اباءها لم يطمعوا بوضع شريعة من عندهم حتى كأنهم فوق الانجيل الا ليكتسبوا السلطة التي تخولهم التداخل في جميع الشؤون .

١٦ ولامراء ان السلطة الدينية اذا خرجت من يد الملوك الى رؤساء الاديان او اذا شاركوهم فيها جاءت بأغرب مما ارانا اياه التاريخ في رؤساء المسيحية . وواضح ان ديناً يخلو الجو لرؤسائه حتى لا يبقى فوق يدهم يد لا يكون مصيره الا الى الاضمحلال والتلاشي — وهنا نذكر الاسلام بماله في هذا الصدد من الحكمة والسداد لان سلطته الدينية ما برح زمامها من قبضة خلفائه . على انه قد قام من اولئك الخلفاء في القرون السالفة من

(١) لا يشكل بان الانجيل قد نهى هيرودس بلسان يوحنا المعمدان عن ان يأخذ امرأة اخيه — لان اخاه قد كان حياً .

أصغى الى اقوال علماء الدين باضرار العلوم الطبيعية فاضطهد العلم واهله ولحق بالدين ضرراً لا تزال آثارها الى هذا اليوم ولا يشعر بها الا اولئك الذين لا يرون في وقوف الدين في سبيل الدنيا خيراً .

١٧ واذ كانت طاعة خدمة الدين المستبدين هي في نفس الامر طاعة عمياء كان لابد وان يكون خلع رداء هذه الطاعة التعيسة مقروناً بالمروق من الدين كما حدث عند الفرنسيس ايام مرقوا من الطاعة والدين معاً لهذا ينبغي للمتدينين ان يضعوا الطاعة في موضعها الديني الصحيح فان لم يفعلوا تدنوا من الكفر من حيث لا يشعرون

١٨ ونعود الى ما كنا عليه فنقول : لا جرم ان انكار كتبة الكفر للدين انما كان من قبيل الافتراض فكأنهم اصطلحوا ان يعيشوا بلا دين بدليل انهم لم يبنوا انكارهم له على براهين تشف عن طريق موصلة اليه ايصالاً صحيحاً لان غاية ما شفت عنه براهينهم هو انهم قد اوقعوا الدين تحت احكام العلم والفلسفة وفي ذلك ما فيه من الشطط كما سيتضح للمطالع في الفصول التالية .

١٩ انظر الى رنان الذي لم تقم بين كتبة الكفر من بحث في الانجيل مثله تجده لم يدرك منه اكثر مما أدركته الكنيسة حتى كأن عقله الكبير كان اصغر من عقول آبائها اولئك الذين قد فسروه بحسب اغراضهم واميالهم . وما ذلك لا نتيجة عدم اعمال الفكرة فيه اذ كان مقرر في ذهنه صحة التفسير

الكنائسي وانما بحث فيه ليبدي فيه رأيه الفلسفي لا ليحل رموزه ويكشف غوامضه (١)

٢٠ لا يخفى ان كتبة الكفر قد استدلوا على عدم صحة الدين من الطبيعة التي لا معرفة لها به لا من الدين نفسه . فمثلهم في ذلك كمثل من ينسب البخل الى الكريم لانه سأله شيئاً فمنعه عنه . ولعلهم التجأوا الى تكذيب الدين من باب الافتراض كما قلنا ليتخلصوا من مشاكله تلقاء العلم وبتمادي الاستعمال صار الافتراض حقيقة وقد لا يخلو العلم من افتراضات تبنى عليه قواعده

٢١ ومعلوم ان الذنب ذنب اباء الكنيسة اولئك الذين ما لبثوا ان تسلموها من الحواريين حتى اخرجوها من موضعها الرسولي واقتسموها كاولاد يقتسمون عقاراً قد تركه لهم ابوهم . فلا بدع والحالة هذه اذا نظر العلماء الى الكنيسة بعين الاحتقار والتكذيب

٢٢ ومن الثابت الذي لا يحتاج الى برهان هو ان العقل بعد ان ادرك العبادة بالوحي كما تقدم في الفصل الاول وكما سيجيء ايضاً من الادلة على ذلك في الفصول التالية . وبعد ان اتسع نطاقه بالعلوم والمعارف لا يسلم بعدم وجود علاقة دينية بين الخالق في السماء وبين الانسان المخلوق على الارض وانما سلم بذلك لاستحالة التسليم بصحة الدين كنائسياً لان العلماء قد

(١) لو ادرك هذا الفيلسوف رموز الانجيل وغوامضه التي لا يمكن لاحد يطلع عليها ما لم يعترف بكونه كتاباً سماوياً — لما اجترأ ان ينسب الهوس للمسيح لانه اعتقد نفسه انه دعي حقيقة للعمل العظيم الذي اتى به . على ان الفصول التالية التي تدحض الاراء الفلسفية ضد الدين كافيه للدلالة على صحة الوحي .

توهموا ان الكنيسة هي الدين كما هو المتعارف بين المسيحيين فرجحت لديهم كفة التكذيب فآثروه على التصديق

٢٣ على ان ما لحق بفلاسفة المسيحيين من المقاومات والاضطهادات الدينية فقد لحق ايضاً بفلاسفة الاسلام من قبل اولئك الذين تختلف عندهم الاحوال الدينية عما هي عليه في المسيحية اذ ليس هناك كنيسة تقول للناس دعوا كتاب الله واتبعوني فاني انا الكتاب بعينه

٢٤ ولسنا نعجب من مقاومة المتكلمين للفلاسفه - لان من طبع خدمة الاديان تعليق الدين بالدنيا توصلاً الى التداخل في شؤونها ليكون لهم النفوذ في جميع الاحوال وما خدمة الدين المحمدي الا بشر مثل خدمة سائر الاديان . على ان الذي يلم بالحقائق الدينية لا يرى من وراء مقاومة خدمة الدين للعلماء المكتشفين الذين على اكتشافاتهم يتمشى العمران البشري غير مجرد الاهتمام باكتساب مقام اعلى .

٢٥ هم يقولون انهم يقاومون العلماء دفاعاً عن الدين ونحن نرى مقاومتهم صائرة الى الجناية على الدين فكيف ذلك يا ترى ؟ أليس لهم عيون ترى المرئيات كما هي كسائر الناس . لا جرم ان هنالك حالة من اثنتين اما ان الدين لم يكلفهم لهذا الدفاع فتبرعوا به من عندهم واما انه كلفهم اليه ففعلوه من عنده ، فان كانت الاولى فالامر واضح ان الدين بريء مما فعلوا . وان كانت الثانية فالامر مشكل لان الدين صحيحاً كان او غير صحيح لا يخرج عن كونه ديناً مختصاً بالروحيات غير مفتقر بطبيعته الى الدفاع عنه تلقاء

العلم اذ لكل منهما وظيفة غير وظيفة الآخر وطريق غير طريق الآخر لهذا فلا يتأتى لعاقل ان يتوقع اثبات الدين من طريق العلم ما لم يكن عليه ان يتعمد حذفه اعتباطاً · اذن ان مقاومتهم للعلم هي تبرع منهم كثّر الله خيرهم وقلل من امثالهم

٢٦ ولا بد هنا من ان نسأل المطالع لماذا يكذب الناس الدين ويصدقون خدمته فيما يروونه عنه أليس من العدل والدين لا صوت له غير صوت خدمته ان يبحثوا فيه لعلهم يجدون هنالك ما يثبت كذبهم في الرواية

٢٧ لا جرم ان الاعراض عن البحث في الدين والاصغاء الى ما يرويه عنه خدمته لمن الامور المسؤول عنها امام العدل – هذا مع قطع النظر عما في ذلك من الغرارة والتغفل · لكن وا اسفاه انى للانسان ان يفطن للبحث وذهنه مصروف عنه · نعم قد كان في الوسع ان يفطن الناس اليه الا ان خدمة الدين قد سلبوهم هذا الوسع فلم يعد في امكانهم الا ان يعرفوهم بأنهم هم الدين بعينه

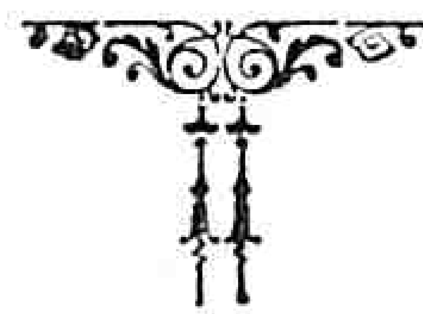
٢٨ لهذا بعيدٌ عنك يا انسان ان تفطن للامر بان تقول في نفسك ماذا يعني الدين من العلم وبالعكس وما هي العلاقة بين الاثنين ولماذا جاء الدين باخبار علمية ان لم يكن هنالك مقاصد دينية أدت الى المجيء بها وما هو مراد خدمة الدين من هذا التداخل والتعدي ان لم يكن من قصدهم الاستيلاء على عقلي وتنفيذ كلمتهم

في روحي والضغط على حاسياتي والتحكم في اخلاقي والسلطة علي كلي –

نعم هو بعيد عنك يا انسان ان تفطن لمثل هذه

الاقوال لانك لا تعرف

من دينك غير خدمته



الفصل الثامن

في فساد ما يقال من ان العلوم الطبيعية مضرة بالدين

١ لما كان الكلام في هذا الباب يرجع بنا الى العود على خدمة الدين اولئك الذين كانوا منذ البدء ولا يزالون يأخذون باسباب ما يحدو بالناس الى التعويل عليهم في الدين والدنيا معاً كان لا بد وان يخال للقارى ان تكثيرنا من الكلام فيهم ضرب من التحامل والعداء . ولكنه اذا أدرك نزاهة كتاب الدليل وانصرافه بجملته في سبيل البحث عن الاشياء الدينية بملها واكتسابه حيثية واحدة هي دفع الاضرار عن الدين وخضوعه للتعاليم الدينية الامرة باحترامهم والانقياد لهم في سبيل عبادة الخالق — اذا ادرك هذا كله وتيقنه جيداً تضح له ان لا غرض لنا غير تبليغ مسامعهم الشريفة ان لا حق لهم ان يتناولوا الدنيا بيد دينية لان تلك اليد قد وقفها الله للدين وحده . لهذا نقبلها نحن معاشر المتدينين ونضمها فوق رؤوسنا ونتبرك بها واننا نفعل ذلك ومن واجباتنا ان نفعله متى رأيناها موقوفة للدين وحده كما أراد الله ان تكون . فان لم نرها كذلك فليس في الدين ما يمنع من قطعها .

٢ ومعلوم ان الانسان لا يتناول من الدين الا ما يأول لتهذيب نفسه وتقربه من الاله وما سوى ذلك فهو مسؤول [١] عنه باحكام الدنيا

(١) ليس في الدين في تحرير المعنى ما يخرج عن احكام التهذيب وتقريب النفس من الاله . فان كنا نرى فيه ما يوهم ظاهره غير ذلك فالتفسير الصحيح يرده اليه بلا اشكال

وحطامها فاذا تناول خدمة الدين الدنيا بيد دينية محضة اضحت الدنيا ديناً والارض سماء وفي ذلك ما فيه من شعور الانسان بنقصان دنياه وتعذر الراحة عليه . نعم ان الجهلاء لا يشعرون بذلك الا انهم ليسوا ممن يبنى عليهم حكم ألا ترى الى هذا الجاهل الذي يقص على امثاله قصصاً خيالية اقل ما فيها انه رأى الشيطان بعينيه . اذن ان الحكم انما يبنى على العقلاء اولئك الذين ساعة يشعرون بنقصان دنياهم ينفرون من الدين في تلك الساعة بعينها . على ان في بلادنا اليوم كثيراً من مسلمين ومسيحيين ممن هذبتهم الحقائق الدنيوية لا يريدون ان يذكر اسم الدين على مسامعهم لانهم يرون اضراره بالدنيا رأى العين . ذلك شيء من اشياء كثيرة تدفعنا الى الاكثار من الكلام في خدمة الدين . نسأل الله ان يغير ما بهم بان يجعلهم مخلصين للدين وينفعنا بهم انه السميع المجيب وانه على كل شيء قدير

٣ هذا ومما ينبغي ان ننبه اليه المطالع هو انه اذا سمع علماء الطبيعة يقولون بعدم صحة الدين وجب عليه ان ينظر في مقالهم نظراً دينياً محضاً اي ان يبحث فيما جاء في الدين مما عليه بنى علماء الطبيعة قولهم بعدم صحته لا ان ينظر فيه نظراً طبيعياً بمعنى ان يبحث عنه في الطبيعة نفسها — لان هذه ليس في وسعها ان تنبئه خبراً عن الدين لا سلباً ولا ايجاباً[١] راجع الفقرة الثانية من الفصل الاول

٤ واذا كان من الحماقة ان يتوقع الناس من الطبيعة خبراً عن الدين

(١) لا شبهة في ان الطبيعة خالية مما لا يخولها القول بصحة الدين لما بينها وبينه من البون العظيم . فاذا رأيتها تنقضه فذلك انما يكون من قبيل خلوها من الدلالة على صحته اذ لا يكون لديها اذ ذاك غير نقضه . فتأمل

ايًا كان نوعه(١) كان لا بد من القول بان الذين يسألونها عنه انما هم اولئك الذين يتعمدون تكذيبه باية حالة كانت والا فهم ارفع عقلا من ان يسألوا الارض عن السماء

٥ تلك مسألة ينبغي النظر اليها والبحث فيها لانها ذات بال ولا يهمه امرها الا اولئك الذين ادركوا رفعة الانسانية فعرفوا ما يترتب عليها من الاحكام الروحية

٦ ولامراء ان مقاومة الرؤساء للعلماء الباحثين هي من قبيل البحث في الطبيعة وحدها دون الدين بدليل ما نجم عنها عندهم من تكذيب العلم فكأنهم بحثوا في الطبيعة فوجدوها غير صحيحة . وبدليل ما يتبين لنا من خلالها من ان الطبيعة قادرة عندهم على ان تحمل الينا اخباراً عن الدين — فان لم تكن مقاومتهم هي كذلك فما معنى تكذيبهم للعلم اذن . فتأمل

٧ ومعلوم ان البحث فيما جاء في الدين مما عليه بنى العلماء قولهم بعدم صحته لا يكون بحثاً دينياً صحيحاً الا اذا جاء بما يشف عن عدم افتقار الدين الى الدفاع عنه تلقاء العلوم الطبيعية . فان لم يجيء كذلك كان كأنه من قبيل البحث في الطبيعة نفسها كما رأيت .

٨ ولا يظنن احد من ان مقاومة الرؤساء للعلماء المكتشفين صادرة عن دفاع حقيقي — لان ذلك لا يظنه الا المجنون الذي يلتمس منهم ان يخرجوا الشيطان من جسده اذ لا يتأتى للعقل ان يسلم بانهم يجهلون الحقائق

(١) لا يشكل بما نراه عند الطبيعة من البراهين على تكذيب الدين — لان ذلك حاصل عندها بطبيعة خلوها من الاحكام الروحية . ومعلوم ان من لا يستطيع تصديقك لا يكون لديه اذا سئل عنك الا تكذيبك

الدينية الى هذا الحد وهم اهلها وأربابها او ان يسلم بانهم يجهلون فوائد العلوم الطبيعية وهم يرونها باعينهم . فان لم تكن غايتهم قتل الدنيا واقامة الدين مقامها فما معنى مقاومتهم لها وما هي الحقوق الدينية التي تخولهم التداخل والتعدي ألا ترى الى هذا الحبر المسيحي الذي لا تستطيع ان تدخل عليه ما لم تتصور في نفسك انك داخل على إله. سله بحقك لماذا تمنع عن الاقتران بانثى الانسان ان لم يكن إلهاً . اما آن لك يا هذا ان تحس وتشعر . سحقاً لك وبعداً فما اجهلك أتترك الدين من اجل أناس أوهموك انهم هم الدين وانت تراه بعينيك آلة لصوالحهم الخصوصية . تالله انه لجهل كبير.

٩ هذا وليعلم رؤساء الاديان قاطبة ان علوماً هي غاية ما تمكن للعقل ان يصل اليه لا تكون عند الانسان الا في أعلى طبقة لانه يرى بعينيه ان سعادته في الحياة الدنيا صادرة عنها . فلو على فرض جاءه ملاك من السماء وقال له ان هذه العلوم مضرة بالدين لاعرض عنه ولآثر ترك الدين كله على ترك ذرة واحدة منها وهو انما يفعل ذلك لاسباب كثيرة منها ان الحقائق الطبيعية واقعة تحت المشاعر فاذا قيل له ان الدين يكذبها فلا يتردد في عدم تصديقه وحسبانه اسطوراً من اساطير الاولين . ومنها ان العلوم الطبيعية لمن عمل العقل والدين ليس كذلك كما تبين للمطالع وسيتبين له اكثر كلما تقدم في المطالعة الى الامام — وانما قبله العقل لانه جاء منطبقاً عليه ويظل قابلاً له ما دام الانطباق حاصلاً والا فلا سبيل الى قبوله . ومنها ان العلوم الطبيعية هي عنده افضل اشيائه الخصوصية التي جناها بعرق جبينه بخلاف الدين فانه ولئن يكن أشرف أشيائه الا انه ليس في نفس الامر من اشيائه الارضية التي جد في طلبها وعانى المتاعب والمخاطر في سبيل تحصيلها وانما هو شيء سماوي تناوله

الانسان وهو جالس على كرسيه بلا تعب . وبالجملة فان اسباب ايثار العلم على الدين عند وجود خلاف بينهما هي كثيرة . فلينتبهوا .

١٠ وغنيٌّ عن البيان ان الانسان ليس فقط يترك الدين من اجل العلوم الطبيعية بل انه ليتركه من اجل أدنى شيء من اشياء الارض اذا رأى انه يمانعه اياه . فمن الضرورة اذاً ان يجعلوا الدين شيئاً ارضياً اي مصدقا لاشياء الارض .

١١ واذ كان لا غنى للدين عن ان يكون له من الارض ما يخوّله البقاء فيها الى الانقضاء كان لا بد له من مشاركتها في ما يلائمه من اشيائها . ذلك ما شوهد فيه عياناً فانه ما جاء اليها حتى تناول منها جميع ما مست الحاجة اليه من اشيائها مما راق في عين الانسان ايامئذ ديناً ودنيا

١٢ ومعلوم ان ما تناوله الدين من الارض يختلف باختلافها . ولذلك لا بد له من ان يجاريها في كل تغيير يحدث حتى لا يكون خلافاً بينه وبينها . وانما ينبغي ذلك حفظاً لبقائه لا لبقائها لان هذه لا يهمها امره فان وافقها عاشت واياه كما يعيش الفرقدان والا اهملته كمن يهمل شيئاً لا حاجة له به . لهذا فمن الحماقة ان يتوقع المتدينون تغلب الدين على الدنيا

١٣ ومعلوم ايضاً ان اصلاح الخلاف بين الدين والدنيا مناط برؤسائه الدين من واجباتهم ان يجعلوا الدين مع الدنيا دائماً ابداً فان اغفلوا واجباتهم نحو هذا الاصلاح ضاقت حلقة الدين بالانسان وأحس بوجوب التملص منه .

١٤ ومعلوم ايضاً ان ليس في ازالة الخلاف بين الدين والدنيا ما يعبث بالحقائق الدينية لان الدين كما تقدم قد تناول اشياءه الدنيوية من

الدنيا نفسها وهو انما فعل ذلك ليشاركها في اشيائها ويجاريها في احوالها بدليل ان ما تناوله منها انما تناوله بالصورة التى حلت ايامئذ في عين الانسان

١٥ وليعلم المطالع ان جميع ما يراه من الخلافات بين الدين والدنيا سواء كان من قبيل العوائد او من قبيل العلم يندرج في حكم الخلاف الذي نحن بصدده لان جميع ما تناوله الدين من اشياء الارض علمياً كان او غير علمي انما تناوله للمجاراة . لهذا اذا قلنا ان الدين معد بطبيعته السماوية ان يكون مع الارض دائماً ابداً فلا يكون قولنا الا من عند الدين بلا اشكال .

١٦ ومجمل القول ان لمجاراة الدين للارض احكاماً لا بد لخدمته من مراعاتها . نعم ان الدين جاء ليكون ديناً في جميع احواله الا ان هذه المجاراة لهي دينية ايضاً لانه هو نفسه مشى عليها وجعلها من اشيائه . فمن الدين اذن ان تظل عاملة فيه عند كل تغيير دنيوي . فتأمل

١٧ وان قول الدين مثلا ان خباء المرأة من اشيائه لا ينفي كون الخباء من اشياء الدنيا لانه انما صار من اشيائه بالمجاراة كما علمت . ولا يشكل بالزيادة الحاصلة على المرأة المحمدية — لان هذه الزيادة المضرة اليوم بالدين والدنيا معاً هي مما اقتضاه ذوق الامة ايامئذ .

١٨ وان قوله ان الارض منبسطة ثابتة مثلاً لا ينفي كون الارض كرة طائرة في الفضاء لانه انما قال بانبساطها وثبوتها مجاراة للانسان في اعتقاده ايامئذ . ومع ذلك فهل ترى يوجد اليوم متشدق مهما كان صغير العقل يستطيع ان يقول — كان ينبغي للدين اذا كان صحيحاً ان ينبئنا بان الارض كرة دائرة حول الشمس وان لها حركتين يومية وسنوية وا

مسطحة من قطبيها وهلم جرًّا الى آخر ما يقوله العلم فيها — ولا يوبخ نفسه بنفسه . اذن لماذا نكذب الدين من اجل شيء هو في الحقيقة لا شيء .

١٩ ويعتبر المتشدقون وكثير من المؤمنين ان ازالة الخلاف بين الدين والعلم هي من قبيل التطبيق والتوفيق ونحوهما مما يشتم منه رائحة التكلف الذي لا سبيل معه الى التقنيع بل بالعكس يزيد الطينة بلة والطنبور نغمة والشر فتنة فيتعاظم الخلاف وتنقطع اسباب الصلات ويذهب الدين ضحية الجهل

٢٠ ولا مشاحة ان اعتبارهم لازالة الخلاف انها من قبيل التطبيق والتوفيق ناشيء عن الوقوف عند تفسير الكتب المنزلة الذي جاء به المفسرون الاولون بدليل انهم يعتبرون كل تفسير جديد تطبيقاً وتوفيقا مهما كان واضحاً .

٢١ واول مقال علمي نشأ عنه الاعتقاد بمضرة العلوم الطبيعية للدين والقيام ضد رجالها هو قول الفلاسفة بازلية المادة اذ توهم خدمته انه يزعزع اركان الدين فبادروا الى مقاومتهم وما يدريك من هم — هم اولئك الراسخون في العلم الذين يعلمون تأويل الكتاب .

٢٢ ومن الثابت الذي لا يحتاج الى برهان هو اننا معاشر المؤمنين بالاله الحقيقي لا نستطيع ان نتصور الهنا المبدع العظيم انه صرف ازليته بلا خلق لان إلهاً يوجد نفسه بنفسه في ملء الازل وهو موجود بطبيعته القدسية لا يصرف ازليته بدون ايجاد يحكي عن قدرته الخالقة المتصف بها منذ الازل

٢٣ ومعلوم ان القول بعدم ازلية المادة يلزم عنه القول بعدم ازلية القدرة الخالقة لهذا فان المؤمن الذي لا يعرف صفة بلا موصوف لا يستطيع ان يعرف خالقاً بلا مخلوق . فان كنا نحن المؤمنين بالمبدع العظيم نعتقد ان الهنا اله ازلي متصف بقدرة

الخالق منذ الازل فلا بد لنا من الاعتقاد ايضاً بازلية المادة التي منها تألف الكون ولا اشكال فيه .

٢٤ ولا سبيل الى القول بان الاعتقاد بازلية المادة مجحف بأزلية الخالق — لان المؤمنين يعتقدون اعتقاداً صحيحاً انه سبحانه هو الازل كله . على ان القول بان المادة الازلية معلولة منه لا يبقى معه اشكال بسبق العلة .

٢٥ هذا هو اساس الايمان الذي عليه تبنى قواعده وهو مدرك بالبداهة فلا يحتاج الى البحث عنه في كتب الدين . فتأمل

٢٦ واذ قد تبين لك ان القول بازلية المادة هو من قواعد الايمان بالله تباركت قدرته الخالقة وسنبين لك ايضاً ان الدين يقول بازليتها فخذ ذلك مثالاً لجميع مقاومات خدمة الدين لاهل العلم .

٢٧ ولما كان فلاسفة العرب رحمهم الله هم الحلقة المتوسطة بين سلسلة العلوم القديمة والعلوم الحديثة كان من نصيب خدمة الدين المحمدي ان يكونوا اول المقاومين للعلم وأهله . ويا للاسف فقد كان ينبغي ان لا يكون لهؤلاء الجهابذة المخلصين للدين دخل في الجهل او بالحري في الحسد تنكيساً لعلماء الارض اولئك الذين من صدورهم تنبثق انوار السعادة في الحياة الدنيا . ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً

٢٨ اما قول الدين بازلية المادة فانك لتجده واضحاً في كلام سيدنا موسى عن التكوين حيث يقول (وكانت الارض خربة خاوية وعلى وجه الغمر ظلمة) لان قوله هذا بعد قوله (في البدء خلق الله السموات والارض) لا يبقى معه اشكال بان السموات والارض التي خلقها الله في البدء هي المادة الاولى الغازية المظلمة التي اعدها لتكوين السموات والارض اذ لو كان الذي خلقه في البدء هو

السماوات والارض بعينها كما هي الان لما وصفها بالخراب وبانها كانت مياهاً محتفة بالظلمة

٢٩ ومعلوم ان قولنا بان التوراة عنت بالسموات والارض التي أوجدت في البدء المادة الاولى الغازية مستدل عليه من العلم نفسه — لان القضايا الدينية العلمية لا ترد في كتب الدين كما ترد في كتب العلم فلا بد من وقوع الخلاف بينهما لما هنالك من الصبغة الدينية لان الدين انما جاء بها ليخدم نفسه لا ليخدم العلم. لهذا تعذّر على المفسرين الاولين معرفتها من طريق العلم •

٣٠ على ان الاستدلال على المادة الاولى الغازية من العلم لا ينفي الدلالة الدينية — لاننا بعد ان رأينا المادة الاولى في العلم رأيناها ايضاً في الدين نفسه لان كلام سيدنا موسى عن التكوين يقتضيها بلا اشكال • فبناء عليه ليس فقط لا يسوغ القول في التفسير الديني المتحصل من العلم انه تطبيق وتوفيق بل ينبغي الاعجاب بالدين لان التوراة قد جاءت بالعلم زمان لم يكن العلم علماً زمان لم يكن العلم غير سحر وكهانة • ألا ترى ان قول التوراة (وكانت الارض خربة خاوية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على المياه) يفيد النمو الطبيعي بلا اشكال

٣١ على ان الذي يعمل الفكرة في كلام التوراة عن التكوين يراه مقصوداً على ما هنالك من الادوار حتى كأنه كلام العلم بعينه • فقولها في البدء خلق الله السموات والارض) هو للدلالة على الدور الاول الذى فيه كانت مادة الكون منتشرة في الفضاء غازاً او أثيراً او سديماً او نحو ذلك مما يحتمله الافتراض العلمي في هذا الصدد • وانما قالت (في البدء خلق

الله السموات والارض) ولم تقل (في البدء خلق الله المادة) اقتضاءً للاحكام الدينية لان الدين لا يقول مثل هذا القول العاري من الصبغة التي عليها تمشي مقاصده •

٣٢ وقولها (وكانت الارض[1] خربة خاوية وعلى وجه الغمر ظلمة) يدل على دور آخر وهو الدور الذي كانت فيه اجرام الكون ذائبة • على ان القرآن الكريم قد دلّ على هذين الدورين الغازي والمائي دلالة واضحة فدل على الاول بقوله (ثم استوى الى السماء وهي دخان) وعلى الثاني بقوله (وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء)

٣٣ ولما فرغ سيدنا موسى من الدلالة على دورين من ادوار المادة في الازل خرج من الوجود الازلي بدليل قوله (وخلق الله النور في اليوم الاول) ومن ثمّ اتى على ذكر بقية الايام الستة فوصف فيها باسلوب ديني يشف عن قدرة المبدع العظيم آخر دور من ادوار التكوين الطبيعي الذي به صار الكون صالحاً لحياة الانسان •

٣٤ ويعرف هذا الدور دينياً بالايام الستة ولكن فلنسأل عن مقدار هذه الايام هل كانت مدتها بمقدار مدة ستة ايام من ايامنا • كلا • فقد روي عن كثيرين من علماء الاديان الالهية انهم حسبوا كل يوم منها دهراً فسبحان من أوجد المادة من العدم وغرس فيها بيمينه القادرة ناموساً تمو بمقتضاه •

(١) لا يشكل تخصيص الخراب والغمر والظلمة بالارض وحدها دون سواها من اروض الكون — لانها موطن الدين ومقره • على ان ظلمة الارض نفسها يلزم عنها ظلمة السموات ايضا اذ لو كانت السموات نيرة لما لحق بالارض ظلمة حالكة لا يتعاقبها نور •

٣٥ وطالما تساءل الناس عن النور الذي اوجده الله في اليوم الاول فلم يهتدوا اليه فحسبوه عثرة في سبيل تصديق التوراة وانما حسبوه كذلك لاعتقادهم انها خالية من الدلالة على ازلية المادة فلو ادركوا كلامها لتحققوا انها لم تجيء بالنور في اليوم الاول الا للايماء الى الدخول في الوجود الزمني .

٣٦ هذا وليعلم الجميع ان اختلاف النص بين الدين والعلم لمن الامور التي لا بد منها لان للدين احكاماً روحية لا تعلق لها بالعلم . ولقد قلنا غير مرة ما يفيد ان الدين اذا انبأنا بخبر من اخبار الطبيعة فانما ينبئنا به من الطريق المؤدي الى حيث تستتب احكامه . فان كنا نحن معاشر الناس نلتمس ان نرى الاخبار العلمية الدينية كما نراها في كتب العلم والا فالدين غير صحيح فنحن اذاً نتعمد تكذيبه بلا سبب صحيح يبعث على التكذيب .

٣٧ على ان الذين يلتمسون ذلك كثار جداً فانك لا تكاد تجد احداً من ذوي المعارف او من الجهلاء المدعين المعرفة الا ويلتمس ان يرى اخبار التكوين الديني مطابقة لاخبار التكوين الطبيعي حرفاً بحرف . فاذا قلت له ان التوارة أرادت بالسموات والارض المادة الاولى الغازية لوى برأسه ولسان حاله يقول — لو كان هذا مرادها كما يزعمون لقالت في البدء خلق الله المادة غازاً — وان قلت له ان القرآن قد وصف بدء التكوين بما ينطبق على قول العلماء المكتشفين بان مادة الكون هي الاثير وذلك بقوله (ثم استوى الى السماء وهي دخان) تبسم ضاحكاً وقال انه لتطبيق جميل فكأنه يلتمس من الدين ان يقول — ثم استوى الى المادة وهي أثير .

٣٨ ولسنا نؤاخذهم اذا آنسوا اللياقة في مثل هذا الاستواء الغير

اللائق بذات الله تعالى — لانهم عبثوا بالدين وباحكامه معاً فهم يلتمسون ان يروا كل خبر من الاخبار الطبيعية الواردة في الدين كما يرونه في العلم سواء لاق به اولم يلق لانهم يريدون ان يعرفوا ان للدين احكاماً روحية تمشي عليها كلامه .

٣٩ فلا جرم اننا جميعنا معاشر الناس من فلاسفة وعلماء واغبياء وجهلاء عائشون في الدين بعقل واحد وفهم واحد لاننا كلنا فيه جهلاء فلا فرق فينا بين فلاسفتنا وجهلائنا . ومعلوم ان اعتقاد الفلاسفة بنصرة الدين للعلم ليس بأفضل من اعتقاد الجهلاء من المؤمنين بنصرة العلم للدين لان كلا الاعتقادين صادران عن جهل واحد

٤٠ ولامراء انهم لو كانوا في الدين فلاسفة كما هم في الدنيا لما نظروا الى اقوال خدمته كمن ينظر الى اقوال دينية صحيحة بل كانوا قاوموهم من عند الدين واوقفوهم عند حدودهم الدينية وبذلك يبلغون غايتهم من ترويج العلم ويظل الدين محفوظاً . فان هذا مما فعلوه جهلاً وظلماً اذ تركوا الرؤساء مقاوميهم وقاوموا الدين نفسه رجاء ان يقتلوه كمن يقتل عدواً له

٤١ هم يكذبون الدين لانه يفيد بان الله جل جلاله يحكم على الكون مباشرةً ولكن فاتهم ان للدين احوالاً مختلفة فحيثما دعت الحال الى توجيه القلوب الى من له ملك السموات والارض ارانا انه سبحانه هو الذي يميت ويحيي ويفقر ويغني ويمرض ويشفي وهلم جرا الى آخر ما هنالك مما يفيد الحكم الالهي المطلق الذي لا يقف دونه من قبل الطبيعة معارض . وحيثما باعت الحال الى التعليم والتهذيب حثنا على الاخذ باسباب الخير ونهانا عن ان نلقي بايدينا الى التهلكة وأرانا من خلال كلامه ما يفيد بان التمسك بالاسباب

لا ينافي التوكل وان للطبيعة احكاماً نافذة لا يقف دونها من قبل الله تخريب فتأمل

٤٢ ذلك مثال يتبين به للمطالع جهل الفلاسفة بالدين وكفاه دليلاً على جهلهم به انهم يكذبونه من اجل كل شيء من اشياء العلم حتى كأنه جاء ليكون استاذاً في مدارسهم العالية يدرس الطبيعيات وفنونها فان احسن التدريس قالوا له (عفرم[1]) والا غالطوه وكذبوه . تباً لك يا انسان أحتى الآن — وقد مرّ عليك الوف من السنين وانت تسجد لله خاضعاً لاحكامه وطرائقه — لا تدرك ما هو الدين .

٤٣ انت تقول ان العلوم الطبيعيه تكذب الدين وانا اقول لك انه ما دامت عقائدنا الدينية مخالفة لما اودعه الله في كتبه المقدسة فكل علم من العلوم ايًا كان نوعه يكذب الدين حتى ان العلوم الدينية نفسها تكذبه ايضاً ألا ترى الى هذا العلم اللاهوتي الذي يمشي رجاله على الارض كما يمشي الآلهة حتى كأن لهم علم السماء وما فيها — كيف انه كافٍ وحده لتكذيب الدين . فما بالك اذاً تسعى في تكذيبه من عند ڤولتر ورنان واسباب التكذيب قريبة منك . هل يخطر في بالك مهما كنت بهيماً ان الاله يتجسد سلهم عنه لعله هو اياهم فانهم كلهم والحمد لله آلهة

٤٤ وليس العلم الديني المسيحي وحده مضراً بالدين بل سائر العلوم الدينية مضرة به اذ لا يوجد علم ديني ينطبق كله على الكتب المنزلة كما انه لا يوجد ايضاً من ذلك ما ينطبق كله على الكتب المشتركة . ولكن من لنا

(١) كلمة تركية تكتب عندهم هكذا «افريم» ومعناها «نعما . عافاك الله . احسنت» يستعملها العامة في بلادنا ويبنون عليها قصصاً مآلها ان اجرة العامل عند الترك هي قولهم له «عفرم» والمراد هنا انهم لا يصدقونه ولو احسن التدريس .

بمن يفسر هذه الكتب المنزلة حق التفسير حتى نعلم يقيناً ان الدين بريء مما نراه فيه من المغايرات .

٤٥ على انه اذا كان لا بد من القول بان العلوم الطبيعية مضرة بالدين فليعلم رؤساء الاديان انهم اذا لم يلموا بمباديء العلوم الطبيعية فليسوا باهل لهذه الرئاسات لان اقتصارهم على العلوم الدينية يجعلهم في هذا الزمان الخبيث غير قادرين على صيانة قلوب المؤمنين من الكفر لا بل قد يكونوا سبباً لنفور الناس من الدين . نعم قد كانوا قادرين على صيانة الايمان في القلوب ولكن زمان لم يكن للعلوم الطبيعية ما لها اليوم من الفوز والتقدم على سائر العلوم

٤٦ وليعلموا علم اليقين ان عداءهم للعلوم الطبيعية واقتصارهم على العلوم الدينية القديمة واعتقادهم ان العلوم كلها في صدورهم وعدم مبالاتهم باحكام الدنيا في سبيل مصالح الناس دون مصالحهم وهلمّ جرًّا الى آخر ما يرى منهم — كل ذلك يؤدي الى انحطاط قدرهم الديني وبانحطاط قدرهم ينحط قدر الدين ايضاً ولا اشكال فيه .

٤٧ وخلاصة ما نريده من الكلام في هذا الباب هو انه يجب على رؤساء الاديان قاطبة ان يدخلوا الى مدارسهم الدينية العلوم الدنيوية الاستعدادية وهي مبادي التاريخ والجغرافيا والطبيعيات اذ لا يسوغ لاحد ان يرشح فيها لخدمة الدين ما لم يتعلم هذه المباديء ليكون خادماً دينياً صحيحاً — فان فعلوا ذلك فبشر المتدينين بفلاح عظيم اذ لا يمضي زمن يسير حتى يروا العلوم الدينية والعلوم الطبيعية كانهما اختان متعاونتان على التحدث باعمال الله وعجائبه

الفصل التاسع

في قول الشاعر

قسم الورى قسمان هذا عاقل   لا دين فيه ودينٌ لا عقل له

١ لقد كان المسيحيون في اول عهدهم بالمسيحية لا يعرفون من ديانتهم غير ما هنالك من تعاليم الانجيل والحواريين التي مدارها على ما يفيد ان الدين هو محبة الله ومحبة الناس فكانوا يمارسون شعائر ديانتهم من حيثياتها البالغة من البساطة ما يجعل الدين كله دنيا . فكان الدين عندهم والحالة هذه عبارة عما يعرف عندنا اليوم بالآداب والتمدن — فلو قيل لهم ايامئذٍ (ان الدين غير عقلي) كما يقول اليوم جميع الناس لما فهموا لهذا القول معنى لانهم ما كانوا يرون في الدين ما نراه فيه اليوم من الاشكال . ولكن لما طفق آباء الكنيسة يعبثون بتعاليم بولس ويفسرون الانجيل بما يخولهم مقامات عالية تفوق مقامات العوالم البشرية باسرها خفيت الحقيقة وأشكل الامر . وهكذا ظلوا يعرجون بالديانه على هذا النمط حتى أوصلوها الى ذروة يستحيل معها الوفاق اذ اصبحت كلها مشاكل . فوقع بينهم اذ ذاك الشقاق وتكاثرت الاحزاب وانقسمت الكنيسة على نفسها وأخذ كل فريق منهم قسده منها .

٢ ولما انتشرت الفلسفة في ابان السلطة الجبرية الرومانية وأخذت كنيسة رومية في مقاومتها حتى كأن الدين جاء ليكون وحده في الارض دون سواه ازدادت الديانة اشكالاً على اشكال وخصت بالجهلاء دون سواهم اذ تبين للناس بعد الدين عن العقل فلم يعد لديهم غير التسليم . ومن ثم دبت

عقارب الكفر في قلوب ذوي العقول منهم لما رأوه من نتائج مقاومة الكنيسة للفلسفة لانها أسفرت عن ان الحق في جانب الفلسفة وان الدين مبطلٌ في دعواه . وواضح ان كل مقاومة تجيء من غير طريقها لا يكون وراءها غير اضاعة الحق مهما كان واضحاً .

٣ وكان المسلمون في اول عهدهم بالدين لا يعرفون منه غير ما هنالك من تعاليم الكتاب والحديث اللذين اقل ما فيهما الحث على مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال . فكانوا يمارسون شعائرهم الدينية في اوقاتها ويدخلون في مصالحهم الدنيوية من ابوابها . فكان الدين عندهم عبارة عن سعادة الدارين فلو قال لهم ايامئذٍ قائل (ان الدين ينافي العقل) كما يقول اليوم جميع الناس لعدُّوه مجدفاً على الله ولحكموا بكفره لانهم ما كانوا يرون في الدين ما ينافي العقل . ولكن لما طفق علماؤه يتبادلون فيه الافكار عرّج به فريق منهم عن احترام حقوق الطبيعة فوقع الخلاف بينهم وبدت المشاكل الدينية . ولهم في هذا الصدد محاورات عظيمة الشأن وهي تنطوي على مباحث فلسفية شائقة تلذ النفوس وتستميل القلوب

٤ وكان من امر هذا الخلاف ان الائمة المجتهدين قد راعوا في الرد على محاوريهم اللياقة بالدين سواء طابقت ردودهم الحقيقة او لم تطابقها اذ كان يصعب عليهم الاقرار باستقلال احكام الطبيعة بخلاف محاوريهم فانهم كانوا يراعون الحقيقة نفسها دينية كانت أم دنيوية عالمين ان للطبيعة مجاري هي اعظم من السيول الجارفة وان احترام حقوقها واجب في كل حال

٥ والذي ألمَّ بردود الائمة المجتهدين يرى فيها ما يقرب من مذهب الفلاسفة الماديين الذين لا يعرفون العقل غير مادة . فلا ريب في انهم قد

توهموا بان الدين جاء ليجعل الدنيا ديناً اي ان يصرف احكامها الى اعمال الخالق مباشرة بدليل ان المباحث التي جاؤوا بها في سبيل مقاومة رصفائهم تفيد ذلك بلا اشكال لانهم ما تركوا للدنيا حكماً ولا للعقل عملاً حتى كأن الدين جاء ليقلب نظام الطبيعة . وبالجملة فان تغلبهم على محاوريهم أدى الى اشعار ديني جديد ، فبعد اذ كان الناس يعتقدون ببساطة الدين وانه امر عملي مداره على الايمان بالله ورسوله الذي رأوا صدقه رأى العين اصبحوا يشعرون بمنافاته للعقل وانه مبني على التسليم به طابق العقل او لم يطابقه .

٦ ولسنا نعجب مما جاء به علماء الاسلام الاولون من قتل الطبيعة حتى كأنهم قد اعطوا السلطان ان يتصرفوا في اعمال الخالق كيف شاؤوا (١) — لان عملهم هذا ليس بأعجب من عمل علماء الكنيسة الذين علموا الناس ان يسجدوا لاله واحد بثلاثة أقانيم .

٧ ولما انتشرت الفلسفة في الاسلام وقام المتكلمون ضد رجالها حتى كأنهم قد جاؤوا بديانة جديدة توجب المقاومة والتكذيب أخذ اولئك الفلاسفة رحمهم الله يثبتون العلم من طريق الدين كمن يثبت ديانة جديدة من ديانة قديمة . وكأن علماء الدين (نفعنا الله بهم) كانوا يقولون لهم كذبتم فان دياناتكم بدعة لا اصل لها في كتابنا

٨ وهكذا احتدمت نيران الخلاف بين الفلاسفة والمتكلمين حتى

(١) هم يظنون انهم قتلوا الطبيعة من عند الكتاب ونحن نوجه افكار المطالع الى الفقرة الحادية والاربعين من الفصل السابق لعله يجد فيها ما يبين له خطاهم . وانما نكتفي بهذا التوجيه على نزارته لضيق المقام عن الخوض في مباحث طويلة يمكن الاستغناء عنها بما قل ودل . نعم ان مظنات القتل وافرة في كتب الدين الا ان حرمة الطبيعة واضحة فيها كالصبح لذي عينين ولا يحفل بآياتك المظنات ويعمل بمقتضاها الا الذي فاته معرفة كنه الدين

صارت الفلسفة ديناً بل الدين فلسفة فتوارى عن العقل واستبهم الامر وبدت المشاكل واختلط الحابل بالنابل واحس المتكلمون باحتياجهم الى علم المنطق فالتمسوه فقويت شوكتهم اكثر وقُضي على الدين ان يُبطل العلم والفلسفة وعلى هذين ان يبطلا الدين وليس ثمَّ من يأسف او يتوجع والشوكة نافذة والامر لله من قبل ومن بعد .

٩ وليعلم الفلاسفة وعلماء الاديان معاً ان ما جاء في الدين من الاشياء الغير المنظورة لا يؤذن بان الدين غير عقلي ولا ينفي صحته ولا يقبل اعتراض من قبل العلم ولا يحتمل ان يكون الدين مقاوماً له ولا يقال فيه (متى صار الدين عقلياً لم يعد ديناً بل اصبح علماً) كما يقول هذا الكاتب الشرقي الذي سنفرز له فصلاً خاصاً به اظهاراً لفضله على الشرق ولا يقال فيه ايضاً (يقسم الانسان بالنظر الى الدين الى عقل وقلب (١)) وبالجملة فان كل محاورة جرت بين خدمة الاديان والفلاسفة من جهة الاشياء الدينية الغير المنظورة تقضي بجهل الفريقين وها نحن نبسط الكلام على ذلك فنقول .

اولا ان الاشياء الدينية الغير المنظورة هي الحياة الاخيرة وما هنالك من الثواب والعقاب . ما عدا ذلك من اشياء الدين فكله تعليم وتهذيب منطوي على اساليب عجيبة يقف عندها العقل مدهوشاً اذ لا يتأتى لمعلم مهذب

(١) ان تعليق الايمان بالقلب هو اصطلاح قديم مشى عليه الفلاسفة ولعله ديني الاصل بدليل ان كتب الدين من وثنية ورسولية لا تخلو منه . ومعلوم ان القلب هنا بمعنى العقل لا بمعنى هذا العضو القائم بوظيفة من وظائف الحياة اذ لو كان معناه كذلك لما وجد الايمان فيه مقرا له كما اذا قال لك المرائي (قلبي يحبك) وهو يريد العضو المودع في شق صدره الايسر . ومن هذا القبيل تعليق الفلاسفة للدين بالقلب وحده دون العقل . والغريب ان روساء الدين كانوا ولا يزال كثير منهم يوافقونهم في هذا التعليق التعيس الذي يدس سم الكفر في القلوب

ان يأتي بمثلها مهما كان عالماً فيلسوفاً .

ثانياً ان كون الاشياء الدينية الغير المنظوره غير معقولة في العلم لاينفي كونها معقولة في الدين لان العقل يراها من نافذة احكام الدين كما يرى الاشياء العلمية الغير المنظورة من نافذة احكام العلم .

ثالثاً ان قول العلم ان الاشياء الدينية الغير المنظورة هي غير معقولة لاينفي قول الدين انها معقولة لان كلاً من الاثنين يتكلم بحسب احكامه وطبيعته والعقل يسمع ما يقولان ويحكم لكل منهما بحسب ذلك. فان كان المسموع مبنياً على احكام من نوعه صدقه والاّ فلا .

٤ اذا قال العلم بوجود مادة مالئة الفضاء تعرف بالاثير صدقنا مقاله وان تكن هذه المادة غير منظورة لعلمنا انه يبني قوله على احكام تقتضيها . واذا قال الدين بوجود حياة اخرى ابدية اعتقدنا صدقه ايضاً وان تكن هذه الحياة غير منظورة لعلمنا انه يتكلم بمقتضى احكام تشف عن صدقه في المقال ونحن في كلا الحالين لانرى في التصديق ما ينافي العقل لعلمنا ايضاً ان كلاً من العلم والدين قد بنى كلامه على احكامه الخصوصية

٥ كما ان العقل لم يتعذر عليه تصديق العلم فيما يقوله كذلك لا يتعذر عليه تصديق الدين فيما ينبئ به ولا اشكال فيه

٦ ان الذين يحكمون في الاشياء الدينية الغير المنظورة بمقتضى احكام العلم لهم بمثابة هولاء القضاة الذين يحكمون في حقوق العباد بمقتضى احكام هذا الاصفر الرنان

٧ ان كون هذه الاشياء الدينية غير المنظورة لا يستلزم كونها غير معقولة كما يزعمون لان في العلم اشياء كثيرة غير منظورة وهي مع ذلك معقولة

٨ ان الاشياء الدينية الغير المنظورة انما صارت غير معقولة بالعلم وحده دون سواه بدليل ان الانسان قد عقلها وارتاح اليها منذ نادى به الدين حيَّ على العبادة ولا يزال كثيرٌ من العقلاء يشعرون بالارتياح اليها كما يشعر الجهلاء من المؤمنين بلا خلاف

٩ ان العقلاء الذين يرتاحون الى الاشياء الدينية الغير المنظورة انما هم اولئك الذين اذا سمعوا قول العلم بعدم صحتها أعرضوا عن الاحتفال بمقاله لعلمهم انه يتكلم في شيءٍ لا يعرفه

١٠ اذا قال العلم ان الاشياء الدينية الغير المنظورة مفتقرة الى اقامة البرهان على صحتها بالامتحان والتجربة فهو انما يقول ذلك جرياً على احكامه المادية ولا لوم عليه ولا حرج وانما اللوم على الذين يستمعون له

١١ اذ ادرك الانسان ان الاشياء الدينية الغير المنظورة انما تمشى على احكام روحية وان لادخل فيها للاحكام المادية فلا يبقى عنده شبهة في انها معقولة بطبيعتها وان الاستدلال على معقوليتها من العلم والفلسفة ضرب من الحماقة

١٢ ليس من حماقة في العالم مثل حماقة الذين يكذبون الدين لانه لا ينطبق على احكام العلم والذين يكذبون العلم لانه لا ينطبق على احكام الدين

١٣ ليس من العدل نقض الدين من طريق العلم او نقض العلم من طريق الدين لان كلاً من الاثنين خال مما يمكن ان ينظر منه الى الآخر .

١٤ اذا وجد في العلم نوافذ ينظر منها الى الدين فلا اكثر من مناظر

مبهمة كقولهم بالعلة وبخلود لا يعرف كنهه هذا عند الفلاسفة المقرين بان العقل جوهر مجرد والا فليس هنالك غير مناظر المادة المظلمة كيفما قلبت الطرف ·

١٥ ان مثل من يلتمس الاستدلال على الدين من العلم والفلسفة كمثل من يلتمس النور من الظلمة

١٦ ليس من عاقل يلتمس من علم ما ان يثبت اشياءه بمقتضى احكام علم اخر · فاذا كان كل علم من العلوم الطبيعية بل كل فرع من فروعها يثبت اشياءه بمقتضى احكامه نفسها لا بمقتضى احكام غيره فبالاحرى كثيراً جداً ان نلتمس من الدين ان يثبت لنا اشياءه الغير المنظورة وبمقتضى احكامه الروحية لا بمقتضى احكام العلوم المادية

١٧ اذا كنا نلتمس من الدين ان يثبت لنا الثواب والعقاب مثلا بالامتحان والشواهد فالامر واضح ان التماسنا صادر عن جهل وحماقة اذ لا يتأتى ان يقام على قضايا دينية من هذا النحو برهان ارضي البتة ·

١٨ اذا كنا نرفض الاستدلال على الثواب والعقاب من الاحكام الروحية القائمة على دعائم هذه النفس الناطقة فذلك بحث آخر هو مجرّد رفض لا تعلق له بما يقال من ان العلوم الفلسفية لا توافق على الاصول الدينية لان عدم الموافقة حاصل بطبيعة هذه العلوم سواء كان الدين صحيحاً اوغير صحيح

١٩ ان الذين يتخذون عدم موافقة الفلسفة على الاصول الدينية دليلاً على عدم صحة الدين انما هم اولئك الذين لا يريدون ان يعرفوا لعدم هذه الموافقة مصدراً صحيحاً فيعمدون الى جعل الدين عبداً للفلسفة وشيئاً من اشيائها القديمة المنبوذة ·

٢٠ لا سبيل الى تخصيص المعقولات بالاشياء المنظورة وحدها لان للمعقولات احكاماً تقطع بصحة الغير المنظور كما لو كان منظوراً

٢١ كما استدل نيوتن على تسطيح قطبي الارض من انتفاخها عند مركزها كذلك يستدل المتدين على اشياء الدين الغير المنظورة من احكام هذه النفس الناطقة التي يشير اليها كل احد بقوله انا

٢٢ اذا قيل ان مدار الفلسفة على العقل فلا يلزم عن ذلك تسلط الفلسفة على الدين بناء على ان العقل لها وحدها وانه لا يصدق شيئاً ما لم يقع تحت حسه لان العقل لا يتناول الدين من حيث يتناول الفلسفة ·

٢٣ اذا كانت الفلسفة مدارها على العقل فالعقل ليس مداره على الفلسفة وانما مداره على نفسه ·

٢٤ كلنا يعلم ان العقل جوهر مجرد عن المادة يدرك المحسوسات بالمشاهدة والغائبات بالواسطة ويحكم في الاشياء بمقتضى احكام من نوعها وتحتمل مداركه جميع ما يرد عليها من الاشياء المتنوعة من روحيات وماديات على اختلاف المقادير والصور ·

٢٥ اذا ارتك الفلسفة ان اشياء الدين الغير المنظورة هي غير معقول فانما تريك ذلك بالنظر اليها نفسها لا بالنظر الى العقل مطلقاً لانها هي شيء من العقل لا العقل كله ·

٢٦ لا تستطيع الفلسفة ان تستغرق جميع اعمال العقل في سبيلها ولا ان تقول ان العقل كله لها لان العقل وان يكن يقارنها في اعمالها لما انها منه الا ان له اعمالاً اخرى تشغله عنها .

٢٧ اذا طلبت الفلسفة من الدين ان يثبت لها اشياءه الغير المنظورة

بادلة عقلية مبنية على احكامها فذلك انما يكون بمثابة كما لو زعمت ان العقل كله لها وهذا باطل الا اذا قالت ان المخلوقات جميعها مادة كما يقول النفر القليل من رجالها

٢٨ لا شبهة في ان العقل يخدم الدين كما يخدم الفلسفة بل يخدم كل ما يراه ويسمع به ايّاً كان نوعه .

٢٩ ان الاشياء الدينية التي يقول عنها الفلاسفة انها غير واقعة تحت الحس العقلي هي كذلك بالنظر الى الفلسفة لا الى الدين لانها بالنظر اليه واقعة تحت حس العقل بلا اشكال

٣٠ اذا أبى الفلاسفة الا ايقاع الدين تحت احكام الفلسفة فليس ذلك مما يجعله من اشيائها لان من طبعها ان تقبل كل ما يرد عليها وان تحكم فيه بحسب احكامها خلافاً للعقل فانه يحكم في كل شيء يرد عليه بمقتضى احكام من نوعه .

٣١ اذا ورد الدين على الفلسفة فلا يلقى منها غير التكذيب لانها لا تستطيع الخروج عن احكامها ولكنه اذا ورد على العقل لقي منه قاضياً عادلاً يحكم له بمقتضى احكامه الروحية

٣٢ كل من يقول لك ان الدين غير عقلي انفر منه كما تنفر من عدو يتمنى ايقاعك في تهلكة لان هذا القول هو اليوم شرك اعداء الدين الذي به يصيدون الناس . وكن على يقين ان الفلسفة ليست الا بعض العقل لا كله

٣٣ كل نبل يرمى بها الدين عن قوس العلم والفلسفة غير مصيبة لان المسافة بين الدين والفلسفة كما بين السماء والارض

٣٤ ان تعليما مداره على الروحيات لا يكون الا بعيداً عن مرامي الدنيويات بأسره

٣٥ اذا قال العلماء الطبيعيون ان هذه المعجزات التي جا بها دعاة الدين غير معروفة من الطبيعة فليس في قولهم ما يحدو بنا الى تكذيب الدين لان الذين صدقوها قبلنا كانوا يعرفونها كذلك .

٣٦ ان تصديق المعجزات الدينية لمن متعلقات الايمان فان احسن الانسان ايمانه بالله ورسله سلم بصحة الكرامات الرسولية مهما كان عقله كبيراً لان العقل يسلم في مثل هاته الحال بما جاء في الدين لعلمه ان شيئاً تعضده الكرامة يتفلت من قيود الطبيعة .

٢٧ اذا قالت لنا الطبيعة ليس للانسان ان يصعد الى السماء صدّقناها واذا قال لنا الدين ان عيسى صعد الى السماء صدّقناه ايضاً ونحن في كلا الحالين لا نشعر ان في التصديق خلافاً بين القولين .

٢٨ ان عدم تصديق الكرامات الرسولية ناشيء عن الايمان لا عن خلاف بين الدين والطبيعة لان مثل هذا الخلاف هو كلا شيء تلقاء الايمان .

٣٩ ان الدين كله مداره على الايمان بالله ورسله فان صحّ هذا الايمان من طريق الوحي فاشياء الدين كلها صحيحة والا فلا

٤٠ اذا لم يكن في وسع الانسان ان يستدل على التدين بدون مرشد فوقاني فكيف لا يكون الوحي صحيحاً .

٤١ اذا كان من وسع الفلسفة ان تبين لنا عدم صحة الوحي فمن اي طريق يمكن لها ذلك يا ترى .

٤٢ اذا قيل ان هنالك طرقاً شتى فان للفئة المؤمنة من فضل استاذها في السماء والشيطان ما يريها فساد ذلك .

٤٣ ها هو مقبل عليها فاتنهض لاستقباله .

الفصل العاشر

في فساد ما يقال من ان الدين من عمل العقل

اهلا بحضرة الاستاذ . كيف حالكم وفيمَ كنتم كل هذه المدة الطويلة — فيما يعود اليكم بالنفع والخير — نشكر لكم في كل حال ولكن عبثاً تسهرون علينا فقد اوشك المتشددون ان يتغلبوا على قلوبنا — كيف ذلك وعهدي بكم اشداء — لا تسألوا عن احوالنا الدينية فانها قد تضعضعت لاننا منذ فارقتمونا ما فتئنا عاملين على اقناعهم فلم يقنعوا ولن يقنعوا .

— بمَ انتم عاملون على اقناعهم

— بما امرتمونا به فاننا اجتنبنا تكذيب العلم ووفقنا بينه وبين الدين وخضعنا لجميع احكام الطبيعة فكانت النتيجة اننا صدقنا العلم واولئك ظلوا مكذبين للدين

— حسناً فعلتم ولكن كيف نشأ عن ذلك تغلبهم على قلوبكم

— لا نعلم غير ما نشعر به اليوم من اضرار تصديقنا للعلم فيا ليتنا كذبناه وقاومناه كما يفعل الجهلاء من المؤمنين وكما كنا نفعل نحن من قبل لاننا لو ظللنا كذلك لما لحق بقلوبنا ما نشعر به الآن

— ماذا لحق بقلوبكم وانتم انما صدقتم ووفقتم لتقنعوا انفسكم وحدكم لا لتقنعوهم

— نعم هو كذلك الا اننا قد رأينا عندهم من احكام الكفر ما يتمشى على غير القواعد التي دربتمونا عليها بحيث اندفعنا بطبيعة تصديقنا للعلم الذي اكتسبناه منكم ان نصدق جميع اشيائهم العلمية الكفرية

— ما هي الاشياء العلمية الكفرية التي رأيتموها عندهم ان لم تكن هذه الاشيا الدينية العلمية التي دربناكم على التصرف فيها من وجوهها الصحيحة

— ان هذه الوجوه الصحيحة هي نفسها اليوم مصيبتنا العظيمة لاننا بعد ان حسبناها شيئاً في سبيل الدفاع عن الدين رأيناها كلا شيء .

— كيف ذلك

— ان الفلاسفة اليوم قلما يحفلون بالاشياء الدينية العلمية ولعلهم ادركوا ان الخلاف فيها بين الدين والعلم ليس مما يؤخذ دليلا على التكذيب . فقول الدين مثلا ان الارض منبسطة ثابتة لا يتخذه دليلا على تكذيبه الا الجهلاء الذين لا يعثرون الا به

— اذن بمَ يحفل الفلاسفة اليوم في سبيل تكذيبهم للدين

— بالاحكام التي مدارها على العقل فهم يطلبون من الدين ان يثبت لهم اشياءه الغير المنظورة بادلة عقلية مبنية على الامتحان والمشاهدة .

— ان هذه الاشياء قد وقعت تحت طائلة الانتقاد الفلسفي منذ حلَّ العلم في اماكن العرب .

— نحن نجهل ذلك اذ لم يكن يخطر على بالنا قط ان في الدين اشياء منظورة واشياء غير منظورة فكنا نحسب ان ما علمتمونا اياه هو منتهى الخلاف بين الدين والعلم . وعليه فاننا عندما رأيناهم يطلبون من الدين تثبيت اشيائه الغير المنظورة بادلة عقلية حسية خلنا ذلك خلافاً جديداً ورأينا انفسنا ازاءه كأننا ما تعلمنا شيئاً

— لا يهمنكم الامر اذ ليس للعلم سلطان على نقض اشياء الدين الغير المنظورة لان عائدها على احكام هذه النفس الناطقة لا على احكام العلم .

— اذا كان الامر كذلك فلماذا يطلبون من الدين اثبات اشيائه بادلة عقلية مبنية على التجربة والامتحان

— لا تعجبوا من طلبهم هذا فانه مبني على الاعتقاد بان الدين من عمل العقل

— كيف عرفتم ذلك

— لان طلبهم نتيجة عدم الاعتقاد بواضع الدين .

— على اي شيء يحملون عدم الايمان بالله وهم يقرون بوجوده .

— ان اقرارهم بوجوده عزّ وجل لا يلزم عنه الايمان به بمعنى ان يكون عندهم معبوداً لان العبادة لمن اشياء الدين وهم ينكرونه برمته

— أفلا يعرفون الله كما يعرفه المتدينون

— كلاً

— كيف يعرفونه اذن

— هو عندهم قوّة مبهمة تعرف بالعلة

— من دلهم على هذه القوة المبهمة

— العقل .

— لماذا جاءت دلالته ناقصة .

— ليس في وسعه ان يدل على الخالق دلالة دينية .

— اذن كيف يقولون ان الدين من عمل العقل

— يتوصلون الى هذا القول بتعاليل فلسفية

— ما هي التعاليل الفلسفية التي يستندون اليها في سبيل انكار الوحي

— هي ما يتراءى لهم من اعمال الفكرة في البحث عما يضرّ بالدين لانهم قد وضعوا نصب عيونهم ملاشاته بأيّة حالة كانت

— اذا أجهدوا العقل في البحث عما يضر بالدين فهل يجدون مطلوبهم

— لِمَ لا والعقل يفعل من حيث يجهد

— اذا وجدوا باجهاد العقل ما ينفي كون الدين سماوياً أفلا ينبغي ان نصدقهم

— كلاً . لان الفلسفة لا تخلو من زخرف القول .

— هم لا يقولون شيئاً ما لم يقيموا عليه البرهان .

— ليس كل برهان فلسفي بصحيح واكثر ما يكون ذلك في الاشياء البعيدة عن الحس او المتوغلة في الخفاء .

— ما هي مباحثهم الدالة على ان الدين من عمل العقل

— ان مباحثهم في هذا الصدد جارية على احكام تواطئهم على قتل الدين باية حالة كانت . فاذا عرفتم انهم يستدلون على عدم صحة الوحي من علم فلسفي يعرف باشتقاق اللغات تأكد لكم انهم قلما يبحثون في شيء قصد تعزيز الكفر ما لم يفتح لهم الغرض باباً يتوصلون منه الى البرهان واذ عرفتم ايضاً ان العلوم الفلسفية واسعة المدار تأكد لديكم ما يلاقيه الباحث فيها من المساعدة على تأييد غرضه ايّاً كان نوعه

— كيف يستدلون على عدم صحة الوحي من اشتقاق اللغات فهل ترى يحملون استدلالهم هذا على حادثة برج التفريق الموسوي المعروف ببرج بابل

— كلا . فانهم وان كانوا يجهلون كون حادثة البرج مجازية الا انهم لا يجهلون ضعف الاستناد اليها في سبيل تكذيب الدين فهم ارفع من ان يتنازلوا الى ما هو من شأن الجهلاء الذين يطالبون الدين باشياء رمزية من هذا النحو

— اذن كيف يستدل الفلاسفة من اشتقاق اللغات ان الدين من عمل العقل

— ان الكلام في ذلك يطول شرحه وانما نفيدكم الخلاصة باسلوب وجيز وذلك ان لكل علمٍ من العلوم الفلسفية نوافذ يُنظر منها الى حيثيات طبيعية لا تخلو من توليد مباحث متنوعة وأهم ما يتولد من علم الاشتقاق هو البحث

عن احوال الانسان القديم .

— هل يبدو من البحث عن احوال الانسان القديم ما يدل على عدم صحة الوحي

— ان الذي يبدو من هذا البحث هو ان الانسان قد كان في اجياله الاولى غير بعيد عن العجماوات

— هل الذي ينتج من ذلك ان الدين غير صحيح

— ان الذي ينتج من ذلك هو ان الانسان قد عاش في ازمنته الاولى بلا دين

— اذا كان الانسان قد عاش في تلك الازمنة بلا دين فهل ينتج من ذلك ان الدين من عمل العقل .

— ان الاحكام الطبيعية تستلزم هذه النتيجة

— كيف ذلك

— ان في كون الانسان قد عاش قبل ارتقاء العقل بلا دين دلالة واضحة على انه قد تدين بعد الارتقاء

— هل يحسب التدين بعد الارتقاء مقدمة صحيحة لتلك النتيجة

— هو كذلك عند الفلاسفة

— ما هو التدين عندهم

— هو قوة عقلية غريزية كانت كامنة في الانسان قبل ارتقائه العقلي

— على اي حكم يحملون هذه القوة

— على ان الانسان لم يتدين حتى ارتقى عقله وبدت فيه المبادىء الغريزية كالشعور الديني والناموس الادبي .

— هل يلزم عن عجماوية الانسان في ازمنته الاولى انه عاش في تلك الازمنة بلا دين

— ان الذي نعلمه دينياً هو ان الدين قد وضع لذوي العقول فاذا كان الانسان قد عاش في ازمنته الاولى بلا عقل كما يقول الفلاسفة فلا ريب في انه قد عاش فيها ايضاً بلا دين

— متى بدا فيه الشعور الديني حسب زعم الفلاسفة

— حينما اخذ يسأل نفسه عن علة الكائنات وعن الغاية التي اوجد لاجلها ففطن اذ ذاك للعبادة ومن ثمّ سنّت الشرائع الدينية

— هل في سؤال الانسان نفسه عن علة الكائنات قوّة الاستدلال على العبادة .

— ليس لدى الفلاسفة قوّة اخرى يستدلون بها على عدم صحة الوحي غيرها

— ما رأيكم الديني في هذه القوة الفلسفية

— ان الذي نراه هو ان على المتدينين ان يقروا بان في الانسان قوة عقلية قابلة للتدين اذ لو لم تكن الحال كذلك لما جاء الدين قط

— ما هو الفرق اذن بين الدين والفلسفة اذا كان كلٌّ منهما يقرر قوة التدين الفطرية .

— ان الفلاسفة يقولون ان الانسان قد استدل على العبادة بقوّة فطرية كامنة في العقل والمتدينون يقولون ان الانسان قبل التدين بهذه القوة نفسها فالفرق اذن بين الدين والفلسفة حاصل من جهة الخلاف فيما يقوله كلٌّ من الفريقين ، فقول الفلاسفة ان قوة التدين الفطرية هي لاستنباط الدين ينافي قول المتدينين انها لمجرَّد قبوله فقط .

— نحن نسمع ان لهم على تأييد قولهم بمجيء الدين من عند العقل براهين قاطعة لا يتخللها شك .

— ان افضل براهينهم ضد الوحي هوما بنوه على اكتشافهم أن في الانسان قوّة فطرية للتدين

— اذا كانت هذه القوة هي لقبول الدين لا للاستنباط فلماذا جعلوها للاستنباط

— لخلو الجو عندهم للفلسفة وحدها دون الدين

— هل جعلها للقبول كان مستطاعاً لهم لو شاؤوا

— لو عملوا باحكام الدين لرأوها حرية بان تكون للقبول وحده دون الاستنباط

— ما هو الدليل على ذلك .

— هو ان القبول ينازع الاستنباط قوة التدين .

— كيف ينازعه اياها .

— اذا قلنا للفلاسفة ان برهانكم فاسد فلا تصح اقامته الا على القبول وحده دون الاستنباط فلا يمكن لهم ان يثبتوا لنا صلاحيته بغير منازعة او بعبارة اخرى بغير وضع تكذيب الوحي في الوسط .

— اذا تناول برهانهم صلاحيته من التكذيب نفسه فهل يعتبر عندكم فاسداً

— كيف لا والبرهان الصحيح لا يكون صحيحاً بطبيعته الا اذا سلم من الشوائب من جميع وجوهه .

— ما هي طبيعة برهانهم اذن .

— اعملوا الفكرة فيه جيداً تجدوه قابلا بطبيعته للتحول من الدلالة على الاستنباط الى الدلالة على القبول لان صرفه الى الدلالة الاولى قائم بتكذيب الوحي فان انتفى التكذيب انتفت صلاحيته لا محالة . والمعنى ان التكذيب نفسه هو الذي يجعل برهانهم ضد الوحي برهاناً صحيحاً لانه غير صحيح بطبيعته بدليل انه ينصرف الى الدلالة الثانية بلا اشكال .

— اذا لم ينصرف برهانهم الى الدلالة على القبول وحده دون الاستنباط أفلا يكون التكذيب في موضعه .

— لا شك فيه ولكنه محال لان القول بالاستنباط كثير الاحتمال للانتقاد اذ يستحيل التصديق بكون الانسان قد استدل على العبادة من نفسه . هذا فضلا عن ان الانسان المستدل عليها من نفسه هو ذلك الانسان القديم الذي ما استطاع ان يكتشف او يستنبط غير ما دلته عليه حاجاته الضرورية .

— كيف يستحيل تصديق الاستنباط والفلاسفة يصدقونه .

— ان من لا يزيد ان يعرف في الدنيا غير ما مداره على العلم والفلسفة لهو مدفوع بطبيعة معارفه الى القول بان الدين من مستنبطات العقل .

— ما هي الفلسفة عندهم .

— هي معرفة النواميس المستولية على هذا الكون العظيم

— نحن نسمع ان الفلسفة هي معرفة الاشياء بعللها .

— هي كذلك ايضاً

— لماذا لا يبحثون اذاً في الاشياء الدينية بعللها .

— ان الشيء الذي اليه تنتهي الاشياء الدينية هو الوحي وهو ليس من اشياء الكون بشيء وانما هو حالٌ من احوال الله جلّ جلاله .

— اذن غير مستطاع تثبيت الوحي من الفلسفة

— لئن خلت الكائنات بأسرها من الدلالة على الوحي فقد خلت ايضاً من الدلالة على عدم صحته .

— اذا كان الامر كذلك فالى اي شيء يستند الفلاسفة في الحكم بعدم الصحة

— الى لا شيء لانهم سألوا عن الوحي من لا يعرفه

-- لم يكن في وسعها الانباء قبل ان جاء الدين

— هل استحالت طبيعتها بمجيئه .

— كلا . وانما هي مستودع له فلم يكن لها به معرفة حتى جاءها

— اذا ثبت وتأكد ان الانسان نفسه هو المستنبط للدين فما قولكم .

— اذا ثبت ذلك وتأكد فلا ريب في ان الذين فعلوا ذلك في تلك الازمنة المتوغلة في القدم قد اعطوا من سمو المدارك ما لا يبقى معه شبهة في انه الوحي بعينه لان من سنَّ الشرائع الادبية زمانئذٍ وعلمَّ الناس كيف يعبدون الله لهو ولا مراء من الله

— هل يحسب سمو المدارك وحياً .

— ان للوحي احوالاً متنوعة ولعل الذين اختارهم الله قديماً لتعليم الناس العبادة قد خصوا من لدنه تعالى بقوة عقلية فوق الطبيعة فكان الوحي اليهم عبارة عن مدارك سامية هي اسمى كثيراً جداً مما خصَّ بالانسان من ذلك ويعرف هذا النوع بالوحي الباطني ويطلقه اليوم الفلاسفة الروحيون على جميع انواع الوحي وفقاً لاحكام الفلسفة .

— ما هي بقية انواع الوحي .

— ان من انواع الوحي ما يعرف بالتكليم وهو ما خصَّ بنبي الله موسى لانه تناول الوحي بصوت سماوي كان يسمعه كمن يسمع صوت مكالمه . ومنه ما يعرف بالاستدلال الروحي وهو ما خصَّ بالمسيح عليه السلام بدليل قول الانجيل عنه (وكان يتهلل بالروح) وقول القران (وايدناه بروح القدس) وقد رؤي الوحي هابطاً عليه بصورة حمامة كما كتب الحواريون الانجيليون الذين لا شك عندنا في صدقهم وامانتهم . اما الوحي الذي به تلقى خاتمة

— اذا لم يكن في وسع الفلسفة ان تدل على الوحي فهل يتأتى اليوم للانسان ان يصدقه .

— لا سبيل الى تصديق الوحي الا بالتسليم بصحة الكتب المنزلة . فان لم يكن اليوم راحة للقلوب الا بالسؤال عنه فعليكم بالسؤال عن الدين لا عن الوحي بالذات لانكم لا تجدون عنه خبراً عند الطبيعة اصلاً .

— هل من فرق بين الوحي والدين .

— كيف لا والوحي حالٌ الهية واضعة للدين

— اذا سألنا عن الدين هل نجد من يعرفه

— سلوا الانسانية عنه تنبئكم .

— كيف نسألها

— اسألوها ما هي ولاية غاية اوجدت

— ماذا تجيبنا اذا فعلنا

— اذا سألتموها سؤالاً صحيحاً يسبر غورها ويستنبش اعماقها فانكم لتجدون عندها من انباء الغيب ما تخضع له عقولكم صاغرة وتبيت اذهانكم عنده متحيرة .

— أفلا تظنون ان الانسان القديم قد سألها ذلك يوم دبَّ على وجه الارض انساناً صحيحاً كما يقول الفلاسفة .

-- قد سألها ذلك لا محالة .

-- اذن كيف تقولون باستحالة الاستدلال على العبادة بدون دليل فوقاني

— لقد انبأته ايامئذ بعلة الكائنات واما بالعبادة فلا .

— لماذا لم تنبئه بها وكلها السنة ناطقة بصحة ما جاءت به الاخبار الدينية

الانبياء القران المجيد فقد كان بواسطة ملك مقرَّب ويعرف هذا النوع بالوحي مطلقاً ولعله قدعمّ جميع الانبياء لما فيه من تعزيز جانب العصمة اكثر بدليل انه كان يُوحى به الى السلف كلما دعت الحال الى التعزيز .

— لا ينتظر اليوم من الباحثين في المخلوقات ونواميسها ان يصدقوا الوحي مهما تكاثرت انواعه .

— هو كذلك لان الفلاسفة لا يصدقون شيئاً غير واقع تحت الحس .

— ليس الفلاسفة وحدهم كذلك بل لا يكاد يوجد شاب في بلادنا تستهويه الاحوال الحاضرة الا وفيه لمحة منهم .

— لا تعجبوا من هذا فان العقول تنصرف الى حيث يصرفها ذووها وليس من تعليم جديد يخلو من الرغبة فيه والاقبال عليه مهما كان فاسداً . اما انتم فقد علمتم ان براهين الفلاسفة على عدم صحة الوحي لم تصر براهين صحيحة الا لخلو العلم مما يكذبها ولعلكم سمعتم ان براهين كثيرة علمية قد لحق بها الانتقاد والتكذيب من العلم نفسه وانما تأتى ذلك لانها منه بخلاف براهينهم ضد الوحي فان انتقادها وتكذيبها ليس من وسع العلم بشيء .

— اذاً كيف تحقق لنا انها قابلة للانتقاد وانها غير مجردة بطبيعتها لتكذيب الوحي .

— ان الذي يتحقق لكم كونها غير مجردة لتكذيب الوحي هو ان العلم نفسه لا يقول ان الوحي غير صحيح الا لانه غير منظور . يدلكم على ذلك انكم اذا سألتم الفلاسفة بان قلتم لهم — مَن هو الانسان الذي استطاع باديء بدء ان يسن الشرائع الادبية ويعلم الناس عبادة الخالق — اجابوكم . هو ذلك الذي اعطته الطبيعة من سمو المدارك اكثر مما أعطت غيره من

سائر الانسان . فاذا سمعتم هذا الجواب وانكم لتسمعونه اذ ليس لديهم غيره فلا سبيل الى التعجب والاضطراب والاسترسال الى ما يأول لتمزيق غشاء الايمان المتحصنة فيه قلوبكم ولا حاجة الى التحدث فيما بينكم بان تقولوا : لماذا يقول الفلاسفة ان تلك المدارك هي من الطبيعة لا من الوحي — لانكم قد اصبحتم اليوم والحمد لله على يقين من ان العلم لا يعرف غير الطبيعة وانه ينسب كل شيء يراه اليها .

— اذا كانت الحال كذلك فكيف اثبت الفلاسفة النفس من طريق العلم وهي كالوحي غير منظورة .

— هم لم يثبتوها في نفس الامر من العلم ولكنهم رأوا افعالها بادية في الانسان فالتجأوا الى تعاليل فلسفية تحكي عنها . ولذلك تجدونها عندهم شيئاً وكأنها لا شيء .

— لماذا يقفون عند علة واحدة لم تسبقها علة اخرى والتكثير مباح لهم .

— هم يتصورون الكثرة ولكنهم لا يرون نتيجة من تقدُّم لا نهاية له فيقفون عند علة واحدة هي عندهم شيء وكأنها لا شيء .

— اذن ليس في وسع الفلاسفة ان يبدوا حكماً صحيحاً في الاشياء الغير المنظورة

— ان ما لاح لكم الآن واتضح هو غاية ما اردناه من جميع ما اوردناه على مسامعكم .

— لم يبق عندنا شك في فساد كل برهان فلسفي ضد الدين ولم يعد يهمنا شيء مما نسمعه من هذا القبيل وانما يهمنا ان نعرف ان كان الدين يوافق الفلسفة فيما تقوله من ان الانسان قدعاش في ازمنته الاولى بلا دين اولا يوافقها

— لا شك في موافقته لها لانه لم يذكر الانسان قبل ان أرتقى عقله بدليل

انه أوجده متديناً .

— ان الاخبار الموسوية تفيد ان الانسان قد عاش في ازمنته الاولى متديناً فكيف ذلك .

— ان ازمنة الانسان الاولى الموسوية هي الازمنة الاولى للانسان الصحيح اي للارتقاء العقلي .

— لماذا سكتت التوراة عن ذكر الانسان في ازمنته الاولى الصحيحة .

— لخلوها مما يبعث على ذكره دينياً .

— كيف خلت ازمنة الانسان الاولى بأسرها مما يبعث على ذكره فيها دينياً

— لانه كان فيها بلا دين بل كان وحشياً لا مزية له على غيره من سائر الحيوان الا بما أعطي من الاستعداد للارتقاء

— ما هو الدليل على انه كان كذلك في ازمنته الاولى

— لا حاجة الى دليل لان العقل لا يستخلص الانسان من البهيمة الا بالتعليم والتهذيب كما هو مشاهد عياناً ولا يزال في الارض قبائل تحكي احوالها عن الانسان القديم الى هذا اليوم وهي عائشة بلا دين .

— ما هو دليلكم الديني على ان أزمنة الانسان الاولى الموسوية هي للارتقاء العقلي لا للانسان نفسه

— اذا لم يكن لدينا دليل ديني غير ما هنالك مما يستنتج من اساليب الكلام الموسوي فان لنا من العلم دليلاً واضحاً

— لا شك ان دليلكم لهو دليل علمي لان التوارة تفيد بصريح العبارة ان تلك الازمنة هي أزمنة الانسان نفسه لا ازمنة الارتقاء .

— لقد كنا نرى ذلك زمان لم يكن في العلم ما يدل على احوال الانسان

في ازمنته الاولى . اما الان وقد دلنا العلم على احواله فيها فلم نعد نرى في التوراة ما كنا نراه من قبل .

— هل تتشكل المرئيات الدينية بتشكل العلم .

— كلا . وانما ندركها بالعلم ونجهلها بدونه لان اكثر ما جاء في الدين مما يتعلق بالعلم شديد الغموض فلا يبدو معناه الصحيح الا بالعلم . فامس كنا نرى التوراة تتكلم عن الانسان في ازمنته الاولى واليوم لا نرى فيها حرفاً واحداً من ذلك

— ما الذي ترونه اليوم في كلام التوراة عن الانسان الاول .

— لا نرى فيه غير ما ينطوي عليه مما لا تمكن المفسرون الاولون من معرفته لجهلهم الاكتشافات المتأخرة . وما لحق بالتوراة من الجهل بحقائقها قد لحق ايضاً بغيرها من الكتب المنزلة . اعملوا الفكرة في كلام التوراة عن الانسان تجدونها قد ابتدأت بذكره منذ ارتقى عقله وأضحى انساناً صحيحاً قابلاً للعبادة .

— اذن من هو آدم ان لم يكن أبا البشر كما نصت التوراة .

— هو احد المختارين الذين اختارهم الله قديماً للتعليم والانذار ولعله اول نذير اختاره الله لاعظم شعب .

— كيف تثبتون لنا ذلك والتوراة قد اخبرت عنه بما يفيد انه ابو البشر .

— ان احسن دليل على صحة ما نقوله هو ان التوراة قد اوجدته متديناً بل معلماً ونذيراً وجميع المتدينين بالاديان الالهية يعدونه نبياً .

— لا نرى كونه نبياً ما يبعده عن الابوة

— لا شبهة في ان التفاسير القديمة قد تمكنت من اذهانكم وصرفت

عقولكم حتى عن ادراك ما يُدرك بالبداهة بحيث أصبحتم مقيدين بها غير قادرين ان تروا غير ما أرتكم أياه . اتجهلون ان كون آدم نبياً لا يبقى معه شبهة في ان الانسان قد اوجد من قبل والا فامن بعثه الله يا ترى ان لم يكن للانسان .

— حسناً تقولون ولكننا نلتمس من فضلكم ان تفيدونا من هو آدم بحسب منطوق التوراة لا بحسب نتائج دينية كما تفعلون .

— ان التوراة عندما جاءت بذكر الانسان ما ذكرت له أباً قط . راجعوا كلامها عن ايجاد الانسان في اليوم السادس من ايام الخليقة الذي فيه خلقه الله ذكراً وانثى يتبين لكم ان ليس هنالك ما يفيد بانه سبحانه قد اوجد الانسان زوجين فقط .

— هذا نبأ جديد أوضحوه لنا ان شئتم .

— ليس فيما نقوله لكم شيء جديد وانما جهلكم للقديم يريكم اياه جديداً قال نبيُّ الله موسى في سياق كلامه عن الانسان يوم ايجاده (فخلق الله الانسان على صورة الله خلقه ذكراً وانثى خلقهم)

— هل يستفاد من هذا القول الموسوي ان الانسان قد اوجد اكثر من زوج

— ان الايجاد نفسه غير مقيد بزوج واحدٍ من الانسان بل يحتمل اطلاقه على ازواج كثيرة والكثرة اكثر احتمالاً كما يتضح لكم من مراجعة بقية الكلام الموسوي عن ايجاد الانسان في اليوم السادس

— لا حاجة بنا الى مراجعة الفصل الاول المنطوي على اخبار ايّام الخليقة الستة وانما الحاجة الى مراجعة الفصلين الثاني والثالث من السفر نفسه لانهما ينفيان ما اقتصرتم على اسناده الى يوم الايجاد .

— لا علاقة بين الفصل الاول المنطوي على ذكر الخليقة وبين الفصول التي بعده لانه مستقل عنها بطبيعته فهو لمجرّد ذكر الخليقة وحدها دون سواها

— اذن هو الفردوس الذي اوجد الله فيه أبانا آدم كما جاء في الفصل الثاني

— هو اسلوب لافتتاح ذكر الانسان متديناً وفيه رموز تمشي على اصول دينية صحيحة .

— يظهر من كلامكم ان الفردوس غير صحيح وان آدم قد ولد في الدنيا من اب وام كسائر الناس

— ان الذين يقولون بوجود الفردوس الارضي وان آدم ابو البشر انما هم اولئك الذين لم يدركوا ما وراء هذا الفردوس من المقاصد الالهية الآئلة لتأسيس الدين على نموذج يحكي عن طبيعته .

— ما هو الدليل على ما تروونه لنا الآن .

— لو كان آدم ابا البشر حقيقة لجاء ذكره في اليوم السادس يوم خلق الله الانسان .

— لماذا ذكرته التوراة في مقام يوهم انه ابو البشر .

— انما فعلت ذلك لغرضين متباينين الاول ان تسبك كلامها عن الانسان في قالب تاريخي والثاني ان لا تذكره قبل مجيء الدين اليه .

— كيف عرفتم ذلك .

— انه لواضح في التوراة لانها بعد ان ذكرت في الفصل الاول الخليقة بأسرها من المادة الاولى التي منها تكوّنت السموات والارض الى الانسان الذي هو آخر المخلوقات افتتحت الفصل الثاني بما يوهم محافظتها على التاريخ اخفاء لسكوتها عن الانسان في اجياله الاولى فجاءت على ذكره متديناً اذ

اظهرت رفعة مقامه الديني بقولها (وعمل الله آدم وجبله من تراب الارض ونفخ فيه نسمة حياة ووضعه في جنة عدن) الى آخر ما جاء في هذه الرواية الموسوية العجيبة التي يقف عندها لمتأمل مدهوشاً وانما يقف كذلك اذا ادرك رموزها ومعانيها .

— اذا كان آدم ليس بابي البشر فكيف اوجد بفعل إلهي خصوصي خلافاً لسائر الانسان .

— متى تحققتم ان التوراة لم تأتِ على ذكر الانسان قبل ان جاءهُ الدين يتأكد لكم كون هذا الفعل الالهي الخصوصي الذي أثبته نبيُّ الله موسى ليس الا مثالاً اقتضاه ذكر الانسان متديناً .

— كيف يتحقق لنا ان التوراة لم تأتِ على ذكر الانسان قبل ان جاءه الدين

— يتحقق لكم ذلك من مجيئها بذكر خلقة آدم بعد انقضاء ايام الخليقة الستة اي بعد ان أكملت السموات والارض وكل جندها واشرقت شمس اليوم السابع الذي فيه استراح الله من جميع اعماله . وهذا كله واضح في التوراة فأعيدوا النظر فيه وتدبروه جيداً .

— أفلا يوجد في التوراة ما يستفاد منه استفادة صريحة كون آدم ليس بأبي البشر . لاننا لا نقنع ما لم يكن هنالك نص صريح يدعو الى الاقناع .

— ان الاستفادة حاصلة فيها بكثرة غير ان ما هنالك من السكوت عن الانسان زمان عجماويته والمحافظة على الاسلوب التاريخي يخفيها فلا تبدو الا بالبحث والتنقيب عنها . على انكم اذا امعنتم النظر فيما جاءت به في الفصل الرابع في الكلام عن قايين وهابيل ابني آدم يتضح لكم جلياً ان الارض كانت معمورة وان آدم ليس الا نبياً قد بعثه الله للناس زمان خلع الانسان

اطمار العجماوية وتردى بثوب خاطه من اوراق شجرة المعرفة .

— نراكم تومئون الى شيء من الرموز الفردوسية فزيدونا منها رحمكم الله

— لم يعد في الطاقة ان امكث معكم اكثر مما مكثت فلا تنتظروا مني الآن غير ما سمعتموه لا سيما وان الكلام عن الرموز الفردوسية يستغرق وقتاً طويلاً جداً .

— نلتمس من فضلكم ان تمكثوا ريثما نسأ لكم سؤالاً واحداً وهو ان القرآن الكريم قد ذكر آدم وحوا بما يفيد كونهما ابوي البشر فهل فيما أفاده هذا الكتاب العزيز رموز وتعبيرات كما في مفاد التوراة .

— لندمر بكم ما يفيد بان الدين لم يعرف الانسان قبل ان تديَّن يدلكم على ذلك انكم لو سألتم الدين عن الانسان القديم الذي عاش بلا دين لما رأيتم عنده خبراً عنه البتة . وبما ان آدم هو اول المرسلين وبعبارة اخرى هو اول من حمل الدين على منكبيه وجاء به الى الناس فلا بد من ورود ذكره في كتب الدين بصفة ابي البشر لما ان الدين كما تقدم لم يتكلم عن الانسان السابق ومعلوم ان هذه الصفة هي دينية محضة لا تعلق لها بالانسان الذي عاش بلا دين والمعنى انه ابو البشر الروحي . فتأملوا .

— اذا لم نجد عند الدين خبراً عن الانسان الغير المتديّن فهل ينتج من ذلك ان الانسان كان موجوداً قبل مجيء الدين اليه .

— لا شك في انه كان موجوداً اذ لا يتأتى ان يوجد الانسان والدين معاً في وقت واحد . ولا اخالكم تجهلون ان الدين انما جاء الى الانسان وحده وانه لم يجيء اليه الا عند ما دعت احواله الى مجيئه كما دعت احوالكم الآن الى مجيئي اليكم واني استودعكم الله .

الفصل الحادي عشر

فيما لا بد منه

١ لقد ابتدأ البعض من ارباب الصحف الشرقية ان يرووا لنا من شرائع الامم القديمة ما ينطبق على اشياء من الشرائع الدينية وهم انما يفعلون ذلك تعريضاً بالدين فيطعنون فيه ولكن من وراء حجاب

٢ ومما يقال في هذا الصدد ان كثيراً من الشريعة الموسوية ينطبق على شرائع قديمة لبعض الامم السالفة وان من الشريعة الاحمدية ما ينطبق على شرائع الرومانيين . ولسنا نريد هنا ان المقول غير صحيح — لان هذا الاتفاق ليحصل بالطبع . وانما نريد ان الغاية التي اليها ترمى مثل هذه الاقوال ليست بصحيحة .

٣ ومعلوم انه اذا كانت الشرائع الدينية قد وضعت للانسان وحده كالشرائع الدنيوية كان لا بد من اتفاقهما في احوال كثيرة لان الامم قلما يختلف بعضها عن بعض في جميع الاحوال . فربّ مادة شرعية كانت لامة سالفة اتخذها الدين لنفسه اذ رآها صالحة لان تكون من اشيائه

٤ ومن الواضح والمعلوم عند كل انسان ان الشرائع الدينية ليست في نفس الامر الا شرائع دنيوية اي انها موضوعة من لدن الله وفقاً لاحوال الدنيا ومطالبها . ويعلم المطالع مما مرّ به في مواضيع كثيرة من هذا الكتاب ان الدين انما جاء الى الارض ليماثلها في احكامها وان الانسان لا يقبل التعاليم الدينية ما لم يرَها شيئاً من اشياء الارض والا رفضها . لهذا فمن الحماقة ان نطمع في ان نرى الدين شيئاً لا نظير له في الارض

٥ ومن الحماقة ايضاً ان نقرأ آيةً من آيات الكتب المنزلة ثم نقول الله اعلم بمراده — لانه ينبغي ان نفهمها بالمعنى الذي اراده الله بها تماماً فان تعذّر علينا فهمها وجب حذفها لانها لا شك موضوعة والكتاب بريء منها وعليه فمن اللازم ان نفهم معنى كل آية من آيات التوراة والزبور والانجيل والقرآن رغماً عن كل مكابر يتعمد تمثيل الدين بهيئة تفوق العقل تعظيماً لرفعة مقامه وعلو مكانه في العلم لان الله عز وجل ما انزل للانسان كلاماً لا يدركه العقل او لا يقبله او لا يجده شيئاً من اشيائه او لا يأنس به او لا يرتاح اليه او لا يراه كانه صادر منه — اذا علمت هذا كله يا انسان وتحققته جيداً فلا تعود تجد نقصاً في ديانة سماوية جاءتك بشيء مما جاء به الانسان من قبل بل لا تعود تجد فيها نقصاً ولو جاءت كلها مسبوقة .

٦ على انك متى علمت ان الانسان لم يكد ينفض غبار الهمجاوية عنه حتى جاءه الدين بالمدنية واحكامها أيقنت ان الدين أقدم أشياء الانسان الادبية وان الكل مغترفٌ من حوضه

٧ ولسنا نعجب من الذين يعرضون بالدين لانه مسبوق باشياء ارضية لان هؤلاء أصلحهم الله يفتشون ولو على نور ضئيل ليستضيئوا به في ظلمة التشدق الحالكة التي لا يخوضها الا من جهل فضل الدين ولم يدرك له قدراً وانما نعجب من الذين يكذبون الاشياء الارضية السابقة دفاعاً عن الدين او يتمحلون لها التعاليل التي لا طائل فيها — فمن الحال الاولى ما رأيناه لكاتب مراسل زعم ان قول امرء القيس (قتل الانسان ما اكفره) هو دسيسة دينية لبعض المتأخرين اذ يستحيل على امرء القيس او على أحد آخر سواه ان يسبق القرآن الكريم بشيء من اشيائه — ومن الحال الثانية ما رأيناه

لبعض اصحاب المجلات زعم ان قول ارسطو (بما تريدون ان يعاملوكم به) جواباً لمن سأله (بم نعامل اصدقاءنا) لا يماثل قول الانجيل (عاملوا الناس بما تريدون ان يعاملوكم به)

لا ريب في ان صاحب الحال الثانية قد كلف نفسه لدفاع باطل لان ما قاله ارسطو لا ينقص عن قول الانجيل ذرة واحدة وانما الفرق بينهما واقع على السؤال وحده دون الجواب لانه (اي ارسطو) لو سئل (بم نعامل الناس) لاجاب ايضاً الجواب نفسه ولا اشكال فيه .

٩ ولا نعلم ما الذي حدا بصاحب الحال الاولى الى الدفاع عن الكتاب العزيز بما لا طائل فيه ولا حاجة اليه . فليته كسر قلمه قبل ان دافع عن الدين من حيث فاته ما وراء دفاعه الباطل من الجناية عليه . وقد يلوح لي انه حمل دفاعه على قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين)

١٠ نقول : ان معجزات الكتاب المجيد انما تمشي على السور لا على الآيات لان هذه مستطاعة للبلغاء . على ان معجزات الكتاب ليست البلاغة كما يعتقد الكثيرون بل الاسلوب لان بلاغته ممكنة لفحول البلغاء . وعليه فان المراد الالهي بالآية المذكورة آنفاً الاسلوب لا البلاغة . على ان النبي نفسه صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يقول لقومه فأتوا بمثله ان كنتم قادرين ولم يلق منهم معارضاً فلو كان مراده البلاغة لعارضوه لا محالة . وانى لهم ان يعارضوه وقد نظروا الى كتابه كمن ينظر الى شيء غير مستطاع . ومعلوم ان هذا الكتاب الالهي قد جاء كلامه متردداً بين النظم والنثر فلا هو بالنظم ولا هو بالنثر . ذلك ما جعل اكابر بلغاء العرب ان يقفوا عنده مبغوتين مدهوشين

لانهم سمعوا منه لغتهم ولكن باسلوب غير معروف عندهم ولا هو مستطاع لهم ولا يزال غير مستطاع للبلغاء وسيظل كذلك الى النهاية اذ يستحيل على الانسان ان يفرغ كلامه في مثال هذا القالب السماوي مهما كان بليغاً اذ ليس للبلاغة وصول الى هذا الاسلوب .

١١ وخلاصة ما اردناه مما اوردناه هو ان الذي يعيب الدين على انه جاء باشياء ارضية فالعيب في عقله لا في الدين والذي يكذب الاشياء الارضية دفاعاً عن الدين او يتمحل لها تعاليل باطلة ننصح له ان يكف عن هذه المدافعة الباطلة التعيسة لانه اذا لم يكن فيها غير تنبيه الافكار الى تجسيم ما لا جسم له يكفي لان يجعلها آفة على الدين .

١٢ وانني اختم كلامي هنا بما يضيف الى معارفك الواسعة ايها المطالع هذه النصيحة وهي . اذا قال لك قائل ان الدين مسبوق من الدنيا فقل له ذلك ما اتوقعه وانتظره لانني لا اصدق تعليماً دينياً ليس كمثله على الارض . فان أبى إلا ان يمثل لك الدين بشكل غريب يباغتك به من وراء العقل فأعرض عنه أو يريك رأي العين ماذا كان ينبغي ان يكون الدين .



الفصل الثاني عشر

في تهافت

١ ليس بين الازياء الجديدة والعوائد الحديثة وجميع ما لحق بالشرق من مضرات الغرب ما يوازي ذرة واحدة من الاضرار التي تنشأ عن ترك الدين . لان تلك المضرات قد لا تخلو من منافع بل ان منها ما يؤثر على علاته لكثرة منافعه خلافاً لاضرار الكفر فانها شر محض عارية بطبيعتها من كل نفع وخير .

٢ ولسنا نعجب من تهافت الشرقيين على الاشياء الجديدة — لانهم لفي حاجة اليها تلقاء احكام هذا الزمان الذي قضت طبيعته ان لا يكون للشرق من اشيائه غير اسمه . وانما نعجب من تهافتهم على نظم الدين في سلك الاشياء القديمة المنبوذة وجعل الكفر من الاشياء الجديدة التي يهيمون اليوم من اجلها على وجوههم وليس بينهم من يدري اين يتوجه .

٣ ويتهافت اليوم البعض من كتبة الشرق الى ما يبعث على انحطاط قدر الدين فيرسلون عليه من نفثات اقلامهم ما يحقره في عيون الناس ولكن بنوع لا يتجاوز التعريض الا واحداً منهم فانه لا يهاب ولا يستحي فيرسل قلمه على الدين كما يرسل الحطاب فأسه على شجرة لا صاحب لها .

٤ على اننا اذا رأينا ڤولتير وروسو وغيرهما قد طعنوا في الدين فقد رأينا لهم عذراً امام العدل لانهم قد رأوه واقفاً في سبيل مقاصدهم الشريفة متعمداً الايقاع بهم فكان من واجباتهم الدنيوية ان يعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليهم . نعم انهم توهموا ان خدمة الدين هم الدين بعينه الا ان الانسان

لا يطالب باكثر مما يعرف . ولكن اي عذر نراه اليوم لكتبة الشرق اذا رأيناهم يعرضون بالدين وخدمته عندنا كالسماك الاعزل . بل اي عذر لهذا الكاتب المجاهر بعداوة الدين الذي يملأ اعمدة مجلاته باقوال كتبة الكفر من الفرنسيس والحاجة غير ماسة عنده الى الطعن كما مست عندهم ايجهل حضرته ان لا حاجة بنا الى الطعن في الدين وانما الحاجة الى النهضة الصحيحة اي المشفوعة بالوسائط الفعالة . فان قال ان خدمة الدين في بلادنا ينظرون اليوم الى اشياء التقدم الجديدة بعين الازدراء والغضب . قلنا . ليس ذلك مما يعتد به في جنب الاجماع على الاخذ بفروع التقدم لان من يقف في طريقك وهو ليس بذي سلطان عليك فلا يهمك وقوفه وانما يهمك ان تكون شجاعاً مقداماً متزوداً بالهمة والعدة لا يهولنك الطريق ولا يثنيك عنه خوف . بخلاف ما اذا كنت جباناً وليس خلفك من تشد به أزرك فانك لترى اذ ذاك من كل جذع منصوب ووتد مضروب ما يخيل لك ان الطريق ملأى بمن يترصدون قتلك فتنثني راجعاً وليس ثمَّ غير الجذع والوتد او نحوهما من كل جامد لا حراك به

٥ ابحث يا هذا عن المدنية الصحيحة المتكفلة براحة الانسان كله فما لك ولنشر مدنية غريبة قائمة عند اهلها لمجرد الفخر بالباطل كما سنبين ذلك في الفصل التالي . أما آن ان يستقبح في عينيك ولو شيء واحد من اشيائهم المستقبحة . وحتى مَ تظل مسترسلاً اليها بكليتك حاسباً لهم الكمال في كل حال . ومالك ايضاً ولنشر الكفر والحاجة غير ماسة اليه بل بالعكس يزيد الطينة بلة اذ يجعل الجهل في موضع المعرفة فيتطاول فيها اهله على ذويها ويضع الخفة في موضع الرزانة فيتمادى الغرور ويكثر الهرج والمرج وينحدر الشرق

باهله الى اسفل دركات الخراب والاضمحلال . لا تقل ان التعصب الوخيم الضارب اطنابه في بلادنا يحول دون النهضة — لان هذا لا يعد شيئاً في جنب الشرور الكثيرة الناشئة في العالم الغربي عن هاتيك التحزبات المتنوعة ومع ذلك فان النهضة حاصلة عندهم . هل من فرق بين شر ينشأ عن تحزب ديني وآخر ينشأ عن تحزب دنيوي .

أليس للشر طبيعة واحدة في كلا الحالين . وبعد فان كان ولا بد لك من قتل الدين فاقتل مبادئه الفاسدة بان تمثله للناس بلباسه السماوي الذي يشف عن فضل الدين اياً كان نوعه . لماذا تضع نصب عينيك قتله لانك ترى فيه عيباً هو في نفس الامر من عيوب الجهل به لا من عيوبه : ارني عيباً في الدين ولو مثقال ذرة ان استطعت لاكون انا كاتب الحروف في مقدمة العابثين به ولا أسف .

٦ اتق الله يا انسان واشفق على هذه الانسانية المسكينة التي قد صيرتها بعملك صورة بلا معنى واسماً بلا مسمى وانزع عن هذا العمل المضر الى ما يخول محلتك الاسم الحسن والصيت الطيب فتكتسب رواجاً اكثر وبضاعتك والحمد لله وافرة فمالك ولمجاراة اناس ما طعنوا في الدين الا بعد ان دفعتهم الى الطعن احوال بلادهم . أتجاري اناساً فيما لو كان بالامس شيئاً واليوم اصبح لا شيء . افرض نفسك انك انت ڤولتر بعينه فهل لديك من اسباب الطعن ما كان لديه أظن ان ليس لديك ولا سبب واحد وأظن ايضاً انك لست بڤولتر كيفما كانت الحال وان الاسكندرية او بالحري ميناء طرابلس الشام ليست بباريس .

٧ ماذا يمنعك يا هذا من احترام الدين ومثلك يحترم كل فضل فان

كنت لا تريد ان تحترمه فلا اقل من ان تحترم ابناءه اولئك الذين يسجدون لله كما سجد له آباؤك واجدادك . ومنهم من يسجد للقمر وللحجر ولكل بعيم اخرس ومعبود اصم — جميع هولاء يا هذا هم انسان واحد متدين يعاملك بمقتضى قواعد دينه الامرة بالمعروف والناهية عن المنكر[1] فبالاحرى كثيراً جداً ان تحترمه لانه أفضل منك بكثير اياً كان معبوده . فقد كفاك — وانت مندفع على الدين بكل قواك — عناء بالباطل ألهذا الحد وصل الشرق بك . تالله انها لاحدى الكبر .

٨ تأمل يا انسان في (ما هو الدين) يتبين لك ان اشتغالك بقتله لهو الجهل بعينه بل هو عداوة بلا سبب لانه (اصلحك الله) ما أضرك ولا آذاك ولا لحقك منه مكروه بل بالعكس يتمنى لك كل خير ويصرف قصارى جهده في سبيل فلاحك وسعادتك بلا فتور ولا انقطاع حتى كأن اجدادك ايام جاء دعاته قد دفعوا لهم عنك سلفاً اجرة تعليمك وتهذيبك .

٩ هذا ومن اغرب ما رأيناه من اعمالك هو انك تحمل تكذيب الدين على ما عند كل فريق من المتدينين من الاعتقاد بافضلية دينه . فلا جرم انك تجهل الاصول الدينية كل الجهل اذ لو لم تكن كذلك لادركت الحقيقة من وجوهها الصحيحة ولكفيت نفسك مؤونة وصمة أسفرت عن تهافت سخيف ولايضاح ذلك نقول .

(١) ما من دين من اديان البشر قاطبة الا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ولا يشكل بما نراه في بعض المذاهب الدينية من اباحة الاضرار بالغير — لان المذاهب نشأة العناد والمكابرة تأييداً للراي مما لا بد وان يأتي بتعاليم مغايرة . بخلاف الاديان فانها وضع اصلي جاءت للاصلاح الحقيقي غير مدفوعة بطبيعتها الى تعاليم مغايرة تخرجها عن الغاية التي جاءت لاجلها

١٠ ان من يمعن النظر في مدارج الشرائع الدينية يجدها كالشرائع الدنيوية بلا خلاف لان كلا منهما قد تقدم بتقدم احوال الانسان الاجتماعية لهذا فلا بد وان يكون المسبوق من الاديان أفضل من السابق . ومعلوم ان الدين رسولياً كان ام وثنياً انما يجيء ليزحزح ديناً سابقاً عن موضعه ويأخذ هو مكانه وذلك لا يتسنى له الا بالتعليم بكونه أفضل . غير ان هذا التعليم وان يكن للترغيب فيه الا انه في نفس الامر هو حق ديني ثابت لما ان المسبوق أفضل من السابق كما علمت . فبناء عليه اذا سمعت المسيحي يقول للموسوي (ديني افضل من دينك) فقوله من عند الدين . وكذا اذا سمعت المحمدي يقول ذلك للموسوي وللعيسوي معاً فانه ليقوله من عند الدين ايضاً ولا اشكال في كل ذلك . ومعلوم ان هذا العند هو كما تقدم حق ديني ثابت خال مما يبعث على تكذيب الدين لان مزية المسبوق على السابق لا بد منها في كلا الحالين اي سواء كان الدين من السماء او من الارض .

١١ ولا بد من اختلاف الحال عند المتدينين بين ذي دين سابق وذي دين مسبوق اذ لم يسمع قط ان ديناً قال عن نفسه انه أفضل مما سيجيء بعده لهذا فلا ينتظر ان يقول الموسوي للمسيحي (ديني افضل من دينك) وانما ينتظر منه ان يقول له (ديني حق ودينك باطل) لانه اذا قال له (ديني افضل من دينك) لزمه الاذعان للحق لما ان الافضلية لا تكون الا للمسبوق . فتأمل .

١٢ وخلاصة القول فليس في مسئلة الافضلية والتبطيل عند المتدينين ما يدعو الى تكذيب الدين او يشف عن التباس والتباك لانها بسيطة عارية من الاشكال كما رأيت .

١٣ ولا يخفى ان ما اوردناه هنا انما تمشى على الاديان لا على المذاهب التي اسستها الاغراض وشادتها المكابرات لان هذه لا يعول عليها في جانب الحقائق الدينية . فاذا قال اليوناني مثلاً انه افضل من الروماني فهو يقول ذلك من عنده لا من عند الدين لان دينهما واحد . فتأمل

١٤ اما قول كل فريق من المتدينين ان السماء له وحده دون سائر الفروق فذلك ليس مما يعتد به في جانب الاحكام المنزلة من لدن الله لان الكتب المقدسة تشف عن الصحة شفيفاً تاماً فلا يخفيها الا التعاليم الموضوعة التي جاء بها المفسرون . فالقرآن الكريم ارفع منزلة واصح واكمل من ان يقول ان جهنم معدة لليهود والنصارى . فان كنا نرى فيه شيئاً من ذلك فلا يكون الا حيثما يبدو غضب الله على فاعلي الأثم منهم او مما هنالك من العدول عن احكام التوراة والانجيل والا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وهكذا القول في الانجيل من جهة اليهود كما سنبين ذلك ان شاء الله في الكلام عن الكتب المنزلة حتى تعلم يقيناً ان ما اتيته في كتابك من تشييع الدين وتوديعه بقولك (وداعاً ايتها الآمال . وداعاً ايتها اللذة) الى آخر ما لفقته في هذا الصدد من التشدق الباطل ليس الا دليلاً على استغرابك في الضحك على الدين .

١٥ وبعد فعلى مَ ادعيت التغلب على فضيلة الاستاذ ألانك قلت (يجب فصل الدين عن العقل) وانت تريد فصله عن الحقيقة . ام لانك دافعت عن الانجيل بان قلت (ان بنوة المسيح رمزية وان الانجيل ليس باكثر من تلك الخطبة على الجبل) وانت تجهل وجهة الرمز في البنوة ولا تدرك من الانجيل غير ما ادركته الكنيسة . وعلى مَ تفخرت على رصيفك

صاحب المنار لانه لم يتعود الخوض في المواضيع الفلسفية . مثلك ألا انك مثل الطائر المعروف بالببغاء تسمع ما يقول رنان وتقول من ورائه . سامح الله الذي علمك الافرنسية فانه ضرّك اكثر مما نفعك .

١٦ ولا نعلم ويمين الله كيف انفردت بنفسك عن سائر اصحاب الصحف الشرقية وعلقت بالطعن في الدين كمن يعلق بالغادة الحسناء بدليل انك ترفض كل رد يرد عليك دفاعاً عن الدين بل تأبى ان تسمع باذنيك مثل هذا الرد . فالظاهر تحسب نفسك انك مخلص البشر من قيود الدين وان على الناس ان يقابلوك على هذه النعمة بالشكر وان الذي يقاومك منهم في مقاصدك النبيلة لهو محتال يتذرع بالدين الى مآرب خصوصية . وفي الجملة فانك — بعد اذ ناديت بالناس حي على التملص من قيود الدين — لا تريد ان تصدق ان الدين باق على الارض . فان قيل لك ان فلاناً يقاومك في مباديك وغر عليه صدرك وقمت وقعدت وأبرقت وارعدت وقلت (هو يفعل ذلك اشهاراً لنفسه لانه يقاوم اعظم الرجال) اجل هذا هو لسان حالك بل لسان مقالك واقرب شاهد على ذلك هو ما قلته في كتابك عن حضرة صاحب المنار من ان غرضه بالرد عليك اشهار مجلته لدى الجمهور او جعلها لدى البسطاء بمثابة القائمة بالدفاع عن المبادىء الاسلامية على سبيل المتاجرة بالدين .

١٧ لا جرم انه لامر مضحك بل مبكي اذ لو لم يكن هنالك اختلال في الشعور لما سمعنا مثلك يقول عن متدين يدافع عن مباديء دينه انه تاجر بالدين اذ لم يسمع مثل هذا القول من عاقل قط . ولا اخالك تجهل ان المتدين كان ولا يزال اذا أضطهد دينياً مدّ عنقه للسيف ولا يفوت دينه

فان كنت تعتقد انك قتلت الدين ومحوت سطوره المنقوشة على صفحات القلوب وان كل من يقول عن نفسه انه متدين هو كذاب فالاحرى بك يا هذا ان تعتزل عن كل عمل وتمضي الى حيث تعالج العقول المريضة .

١٨ على انا نجاريك في تصوراتك الخيالية بان نفرض صحة ما ترسله مخيلتك على باصرتيك من الوان المناظر واشكالها ونقول معك ان المتدينين يدافعون اليوم عن الدين لمجرد المتاجرة به . ولكننا نسألك بأي شيء انت تتاجر ان لم يكن بقتل الدين الذي منه يستمد الانسان قوامه ورجاءه . قل لنا بحياة الانسانية عليك بأي شيء انت تتاجر ان لم يكن بقتلها . سبحان الله بطبعك أتبريء نفسك والنفس امارة بالسوء . أتهين من يغالطك في سبيل الدفاع عن الدين وكلك غلط . أتعير مغالطاً لانه لم يتعود الخوض في الفلسفة وللفلسفة رجال لا يعرفونك . أتحسب نفسك مقدساً لا يسوغ لاحد ان يدنو منك بمقاومة وعقلك لا يصدق التقديس . ليتك لم تتعود الخوض في الفلسفة لانه ليس فقط لم يكسبك اياها بل قد خسّرك اثمن شيء في العالم

١٩ وليس يخاف عنك ان المتاجرة بالكفر لقصيرة المدة فلا بد وان تعود عليك بالخسارة . فان كنت ترى اليوم رواجاً لمجلتك ففي الغد لا تجد من يمسها باحدى اصابعه اذ يحسبها الناس نجسة ، على ان منهم من ابتدأ يحسبها كذلك مذ اليوم ومنهم من لا يذكرك الا بالمذمة والمسبة . فاحذر اذاً ان تغش نفسك بنفسك بان تعتقد انك قادر على قتل الدين او ان تصغي الى هولاء الشبان الذين يحومون حولك مستحسنين عملك فانك لا تجهل احوال شباننا في هذه الايام الخبيثة . نعم انك لا تزال شاباً الا اني اجلك عن كثير منهم لعلمي انك من الشبان المتخرجين في الاداب والمعارف فلا

يتعذر عليك ان تنبذ في الغد ما يستهويك اليوم اذا آنست فيه المضرة .

٢٠ وواضح ان من يتصدر بين الجماعة ويجلس على كرسيه عاكفاً رجلا على الاخرى ثم يقول (انا عقلي لا يصدق الوحي) يريد ان يري الناس ان مقدار عقله بمقدار الفلسفة وقد يقول ذلك من لا يعرف من الفلسفة الا اسمها . لكن سواء كان القائل فيلسوفاً او مدعي الفلسفة فليس علينا ان نحفل بقوله لاننا نعلم يقيناً ان للعقل مقداراً غير محدود وان للفلسفة مقداراً محدوداً . فشل الله يداً تمتد الى فصل الدين عن العقل

٢١ وكيفما كانت الحال عندك فاني انصح لك ان تنزع عن عملك الحاضر وتسلك الخطة التي يسلكها ارباب الصحف وان تطرق التعليم والتهذيب من ابوابهما الصحيحة فتكتسب رضى الله ورضى الناس وتربح اكثر اذ تذخر لمجلتك صيتاً شريفاً . وانصح لك ايضاً ان تحرق هذا الكتاب الذي اهديته الى المشتركين في مجلتك لان اكثره غلط فضلا عما فيه من دس السم في قلوب المؤمنين . فان كان ولا بد منه حرصاً على ما فيه من الفوائد فأعد طبعه مرة اخرى على ان تفرغه في قلب يلايم طبيعة البلاد ويشف عن اصلاح ديني لا غش فيه لانه هو اليوم مرذول من كثيرين . وعندي ان الاجمل بك ان لا تتعرض للاشياء الدينية لا عليها ولا لها . اما الحال الاولى فلأنها مجلبة للويلات التي يجلبها عادة الاشرار الجهلاء الذين لا يدركون نتيجة اعمالهم حتى يصلوا اليها ويروها باعينهم واما الحال الثانية فلانك لست بكفوء لها اذ قد تبين لي انك ضعيف في الدينيات . لكن اذا لم يكن لك الا الاستحسان بان تكون لها فاختر منها الاشياء التي تقدر على الخوض فيها . على ان جنوحك الى اللعب في الدين هو اكبر دليل على

عدم المامك باحكامه ومراميه المتنوعة .

٢٢ هذا واني استعطفك الآن من اعماق قلبي اذ لا تخلو الحال من ان اكون قد غظتك . غير اني — ولا اقصد التملص من الذنب — اراني مدفوعاً الى ما فعلت اذ لديّ من المواجب ما لو اغفلت بعضه لاصبحت مذنباً الى كتاب الدليل فخلني اذنب اليك ولا اذنب اليه فانك لتصفح وهو لا يفعل .

٢٣ واظنك لا تجهل ما لقداسة الحبر الاعظم بابا روميه من المقام الرفيع الذي ليس كمثله في عوالم الرياسات الدينية بل ان مقامه الادبي ليعلو على مقامات الملوك ومع ذلك فاذا اتى كتاب الدليل على ذكره ورأى فيه غفلة دينية فانه ليذكره بها غير ناظر الى ما هنالك من المواجب المستدعية للسكوت لانه لم يبرز من عالم الغيب الا لينظر في عالم الوجود نظرة دينية صحيحة . بل نظرة دنيوية ايضاً كما سترى في الفصول التالية وفي فصول اخرى سوف يجيء بها في مواضيع متفرقة .

٢٤ ولقد جرت عادة الكتاب ان لا يذكروا العيوب الا من باب التعريض فيؤلفون في سبيلها المقالات الطويلة توصلا الى الغرض . ونحن لا ننكر ما في اصطلاحهم هذا من سمو المباحث والفوائد الجزيلة والتأثير الذي ليس كمثله في التصريح . غير ان لكتاب الدليل منهجاً آخر لانه مجعول للعامة كما للخاصة بلا خلاف . وقد علم المطالع وسيعلم اكثر من كتبه التالية ان هذا الكتاب يبحث في مواضيع كثيرة متنوعة من دينيات ودنيويات ويخوض المعاني على اختلاف طبقاتها ويستقصي فروعها من جميع جهاتها ويستنبشها من الاعماق ثم تفرغها كلها في قالب واحداي في كلام مبسوط

يكاد لولا المحافظة على المهم من قواعد اللغة وعلى الالفاظ التي لا بد منها في الكتابة ان يكون عامياً . وانما يفعل ذلك ليفهمه كل قارىء على اختلاف درجات القراء في الفهم .

٢٥ فاذا تأملت في طبيعة هذا الكتاب يتأكد لك اني استعطفك من قلب نقي لا يعرف للمواربة معنىً سيما وانت ابن بلدي وزد على ذلك اني لا اعرفك شخصياً فبالاحرى كثيراً ان اودك واتوق الى معرفتك ولا اكذب اذا قلت اني اتمنى لك كل خير . وانما يحزنني ان اراك تقاوم الدين في بلاد لا يقاومه فيها الا الغريب الذي لا يهمه امرها .

٢٦ وليس المراد هنا ان تجتنب ما تعودته من نشر اقوال كتبة الكفر لان الدين اعز من ان يبالي باقوالهم بل ارسخ واركن من ان يتقلقل بها او يتزحزح شيئاً عن موضعه فلك ان تنشر منها ما شئت ولا بأس عليه ولا خوف . وانما المراد ان تجتنب نشرها في مقام الاستعانة بها كمن يستعين بصديقه على قتل عدوه .

٢٧ ومعلوم لديك ان عملاً هذا شكله يكدر صفاء الحاسات الدينية ويغيظ القلوب المؤمنة وانت ارفع من ان تسقط في مثل ذلك لانك مهذِب ومهذَّب معاً

٢٨ واذ قد مر بنا ما مر ولم يبقَ لديك على ما اظن غير العفو عما سلف أسمح لي ان ادلك على ما يؤهلك لان تكون كاتباً صحيحاً لعلك تتأكد انت وسائر كتبة الارض انكم تضربون اليوم في حديد بارد اذ ليس بينكم من يعرف مكان الوجع . وهاءنذا أبسط لك الكلام في ذلك كما ترى في الفصل التالي .

الفصل الثالث عشر

في مكان الوجع

١ انه لمن الواضح انك تقصد بكتاباتك طرق ابواب التعليم والتهذيب كما يفعل سائر الكتاب . غير ان كلا منكم يقصد هذه الابواب من السبيل الذي اعتقده انه موصل اليها فتختلف السبل بينكم ولكن بلا وصول لان جميع السبل التي يسلكها اليوم الكتبة قصد نشر التعليم والتهذيب غير موصلة الى المراد .

٢ ولسنا نريد هنا كتبة الشرق وحدهم بل كتبة الغرب ايضاً — لان التهذيب غير مستطاع نشره على الارض ما دامت شرائع الانسان وقوانينه لا تزال جارية على روح الشرائع والقوانين القديمة .

٣ ولا سبيل الى القول بان التهذيب منتشر في العالم الغربي — لان المهذبين هنالك التهذيب الصحيح قليل ما هم كما في بلادنا بلا خلاف . فان قيل ان المهذبين هنالك اكثر فذلك من قبيل كون الاغنياء اكثر لان الغني قابل بطبيعته للتهذيب ما لم يكن بخيلاً لئيماً فانه ليكون أرذل من الفقير بكثير جداً . وانما يكون الغني الكريم مهذباً لاستغنائه عن الكذب والمكر والحيل مما يفعله الفقير بالرغم عنه تحصيلاً للمعيشة . اذهب الى باريس حيث نبض عرق التمدن الحديث تجد الذين يحومون حولك من اهاليها طمعاً في كسب الدراهم منك بالكذب والحيل اكثر من ان يحصوا .

٤ وليس ذلك بالغريب — لان الانسان يلتمس الرزق في جميع احواله فان تعذر عليه بالطرق المشروعة توصل اليه بطرق اخرى اياً كان

نوعها مهما كان مهذباً لان الفقر لا يطاق ولا يحتمل وخصوصاً في هذا الزمان الذي تفاقم فيه ترف الاغنياء وبذخهم مما ينغص على الفقير عيشه ويجعله مقهوراً حزيناً يؤثر الموت على الحياة . وانما الذي ينتظر منه الموت حتى يوافيه في حينه هو الفقير الشرقي العائش على الارض كالبهيمة بخلاف الفقير الغربي فانه يضيق بالانتظار ذرعاً فيعمد الى الانتحار .

٥ ولئن كان الفقير الشرقي عائشاً على الارض كالبهيمة فان الفقير الغربي لا يزال جاهلاً كما كان قبل ڤولتير لانه لو لم يكن كذلك لعمد الى قتل غني لئيم قبل ان يقتل نفسه اذ يكون الانتحار في مثل هاته الحال مثمراً اذا نتيجة يغير شكل الارض الحاضر الذي كله تعاسة . فما الفائدة ان يقال (انتحر فلان من الفقر) والغني اللئيم يسمع ذلك ويضحك . ولعمر الحق لو انتحر في كل يوم مئة الف نسمة على هذا النحو لما تقلقلت الارض ولا احست بما حدث عليها وبالعكس لو انتحر كل يوم فقير واحد على النحو المثمر لفطنت حكومات الارض اذ ذاك لما من شأنه ان يخفف الويلات عن الفقير ولبادرت بالحال الى سبر الشرائع على روح الكتب المنزلة التي حتى الآن لم يقم على الارض من ادرك ما فيها من الاحكام العائدة على المجتمع البشري بالخير والصفاء وبسط العيش . اذاً ان بضعة انتحارات من النحو المثمر أفضل كثيراً جداً من الثورات التي لا تسفر الا عن فظائع وتخريب .

٦ ومعلوم ان ڤولتير يعد اول من نظر في حالة الانسان على الارض نظرة صحيحة . الا انه قصر النظر على مكانٍ واحد من الوجع متوهماً انه الوجع كله . وانما توهم ذلك لانصراف اصلاحه في سبيل ازالة ما رآه من الضغط على السواد الاعظم من الانسان بحيث صرف اكثر قواه العقلية في

هذا السبيل فلم يبق منها ما يدله على السبيل المؤدي تماماً الى الاصلاح النهائي الذي به يحصل الانسان على التمدن الصحيح وتستريح الارض من صراخه اذ يغدو شبعان كاسياً لا يهمه غير ان يكون اديباً مهذباً .

٧ وكما تقدم ان ڤولتير قد وجه عمله الاصلاحي نحو تسلط القوي على الضعيف فلم ينظر في جوع هذا المسكين الا من حيثيات الاصلاح الذي قصده . لهذا ذهب اصلاحه ضياعاً وراحت اتعابه سدى بل قد جاء اصلاحه معاكساً لما قصد لان العظماء والكبراء الذين اهتم ڤولتير بانقاذ الشعب من نير العبودية لهم هم اليوم حكامه لان هذه المجالس المعروفة بمجالس الامة هي في الحقيقية مجالسهم لا مجالس الامة كما يتوهم جميع الناس

٨ وبعد فما اشقى وأتعس هذا الحزب العثماني المعروف بتركيا الفتاة اذ يظن بمجالس الامة خيراً فهو لا شك احمق (استغفر الله) ان الاحمق لهو صاحب كتاب الدليل لان هذا الحزب هو ولا مراء من الجنس القوي الذي يطمح اليوم عند جميع الامم في طلب مجالس الامة لينفرد وحده بالسلطة دون الملوك . فحاشا له ان يكون احمق وانما هو يسعى ليرعى . ولكن فليعلم الانسان ان هذه المجالس مضرة بالارض ضرراً بليغاً وان لا خير عليها ما لم يكن زمام السلطان بيد ذلك الفرد الواحد المعروف بالملك . وسنبين ذلك في الفصل التالي

٩ هذا ولئن كان الاصلاح الڤولتيري عظيماً في ذاته الا انه غير وافٍ وحده بالمراد بل قد يكون حال الوحدة كلا شيء فهو محتاج الى ان يُشفع باصلاح آخر من نوعه اي الاصلاح الذي يرفع الجوع عن الارض التي عليها بسط الله الرزق للانسان كما صرحت الكتب المنزلة اي الاصلاح

الذي يخوّل الضعيف ان يأكل كما يأكل القوي بلا خلاف . والا فما الفائدة من رفع سلطة القوي عن الضعيف اذا ظلّ هذا المسكين جائعاً يحتاج اليه في جميع احوال الجوع . فمن يا ترى يدفعه الجوع الى الاحتياج اليك ولا يكون سلطانك عليه ناشراً اعلامه على كل شيء من اشيائه المادية والادبية وكيف لا يكون لذي عيش واسع المدار سلطاناً على من يبس قوته وخشن كساؤه . ألا ترى كيف ان القوي الشرقي يضرب الضعيف لاقل سبب ولا يبالي (١) وقد يفعل القوي الغربي فعله اذا لم يكن هنالك حزبٌ يخشاه . اذن ان الانسان لمحتاج الى اصلاح آخر كامل بطبيعته لم يفطن له ڤولتير ولا غيره منذ سنت الشرائع والقوانين الى هذا اليوم .

١٠ على ان الاصلاح الذي قصده ڤولتير نفسه لم يأت به مستكملا حيثياته الطبيعية اي التي تتكفل بصيانته من الشوائب وتحليته بحلى السكينة والسلام . ومع ذلك فقد زاد الطينة بلة بان قرنه بالضحك على الدين . فكان ذلك مع ما لحق من كتاباته من الغلو والتطرف داعياً الى الاضطراب والقلاقل وشبوب نيران الثورات والفظائع الى آخر ما فعله الشعب الفرنساوي من التخريب الذي لم يحلَ منه بطائل بل لم يسفر الا عن حرية فاسدة كان ينبغي ان تكون محظورة على الانسان لانه هو نفسه قد باع حريته بادىء بدء للعدل فلم يبق منها لنفسه غير ما يعود عليه وعلى الهيئة الاجتماعية بالنفع .

١١ على انه (اي الشعب الفرنساوي) انما فعل ذلك التخريب ليحصل

(١) اتفق في زمن خلافة عمر (رضي الله عنه) ان اميرا لطم فقيرا . فلم ينثن عمر عن قوله للامير (اما ان ترضيه بالمال واما ان يلطمك كما لطمته) فما ابدع هذا الحكم الذي جاء به الدين وما اشدنا ظلما وحماقة اذ لم يلق منا الدين على فضله ومعروفه غير انكار جميله والطعن فيه .

على الجديد الڤولتيري حال كونه لم يكن يدري تماماً ما هو شكل الجديد الذي كان يلتمسه باعماله الزائغة . على انه لا يزال جاهلا ذلك الجديد الى هذا اليوم بدليل انه مستعد دائماً ابداً للنزول الى الثورة لاقل باعث يبعث عليها فهو كل يوم في شان لانه غير واجد نفسه مستريحاً على الارض ولا يدري ماذا يفعل للحصول على الراحة . فغاية ما يظنه محطاً للراحة هو الاشتراك في اموال المتمولين وقد فاته ان هذا الاشتراك لهو في مقدمة المستحيلات لخروجه عن المبادىء الصحيحة التي عليها تمشي نظام العمران خصوصاً وان الانسان يختلف بعضه عن بعض لما انه متفاوت في الهمة والنشاط والعمل ونحو ذلك مما لا بد وان يكون فيه غني وفقير ومتوسط . فاذا على فرض تمكن الاشتراكيون من اغراضهم ومقاصدهم فلا يلبث الانسان بضع سنين حتى يعود الى تفاوت درجاته كما كان من قبل . اذاً ان هذا الشعب الجاهل يلتمس اليوم امراً مستحيلاً . ومن الغريب انه على عدم حصوله على الراحة فلا يشعر بكونه لا يزال هو هو كما كان قبل ڤولتير . ولعله يحسب هذه الحرية الفاسدة المعروفة في بلادنا بالتمدن انها ذلك الجديد الذي كان يبتغيه

١٢ واعلم ان الاصلاح الصحيح الذي لا يزال مجهولاً ميسور اكتشافه لمن ينكب على مطالعة الكتب المنزلة مطالعة صحيحة حتى يشق عقله حجاب مخبآتها ويخرقها الى الاعماق لا كما فعل صاحبك رنان في مطالعته للانجيل . اما سمعت قول السيد المسيح (لا تهتموا للغد) فهل تدري ما ينطوي عليه هذا القول الرسولي . لا تقل لا ينطوي على شيء فان معناه ظاهر . فان قلت عدّ قولك اهانة لهذا الرسول العظيم . فمن يا ترى يقول لك اليوم (لا تهتم بالغد) . ولا تضحك على عقله . وكيف تقول ان معناه

ظاهر والظاهر من معناه لا يفيد غير تخريب العمران وتسكين كل حركة من حركات المجتمع البشري والانجيل انما جاء ليخدم المجتمع كما يستفاد ذلك من مواضع كثيرة منه لا ليبطله . وبعد فما قولك في هذه البهيمة التي تمرح في المروج والغياض والرزق لديها وافر أليست بأحسن حالة من الانسان . وما معنى هذا التمدن الذي لا رزق فيه الا للنفر القليل منا . هل خلق الله التمدن للاقوياء وحدهم وهم ليسوا من الانسان الا جزءاً من الف او اقل . وهل قدّر الله على سائر الانسان ان يحمل التمدن على ظهره الى قصور الاقوياء والعرق يتساقط من جبينه ولا يكون له منهم من الجمالة ما يخوّله ان يأكل ولو كما تأكل كلابهم (اجلك الله) . وما المراد بقول الكتب المنزلة ان الرزق مبسوط في الارض والمبسوط منه فيها ليس باكثر من القوت اليابس والكساء الخشن بل هو لا ينال عند الكثيرين الا بشق الانفس . وعلامَ يقول السيد المسيح (انظروا الى طيور السماء فانها لا تفلح ولا تزرع وابوكم السماوي يقيتها) هل اراد بقوت الانسان هذا القوت اليابس والطير تأكل من كل رطب يانع . وما معنى قوله تعالى في كتابه العزيز (كلوا من طيبات من رزقناكم) هل خاطب به الاغنياء وحدهم دون سائر الانسان . ولأي شيء قال الانجيل (خذ صكك واكتب خمسين) اذا كان الانجيل ليس الا تلك الخطبة على الجبل كما تفاسف صاحبك رنان . هل ادرك ما معنى ذلك الصك الذي دفعه الوكيل لمديون موكله . وهل أدرك ايضاً ما المراد من تلك الخطبة نفسها التي زعم انها هي الانجيل كله . وهل شق عقله حجاباً واحداً من حجب الانجيل ورأى ان هذا الكتاب المقدس يبيح سرقة الغني اللئيم كما سنبين ذلك في الكتاب التالي ان شاء الله تعالى . وبعد فبأي

عدلٍ يزج الجائع في السجن اذا هو سرق غنياً لئيماً ليأكل . وكيف يأمر الكتاب العزيز بقطع يد السارق اذا لم يكن ذلك محمولاً على فرض الزكاة(١) وعلى آيات كثيرة آمرة بالاحسان المحمدي الذي يغني عن الطمع في اموال الاغنياء وهي فيه اكثر من ان تحصى . اذن كيف يسوغ قطع يد جائع سرق اذا هو لم يجد في الارض على كده ورحبها ما يشبعه . ان هذا لظلمٌ فادح وان الدين لبريء منه .

١٣ انظر الى نبي الله موسى تجده يأمر برجم رجل لانه احتطب في يوم السبت فكم هو يا ترى مقدار الجرم الذي اقترفه ذلك المسكين وما الفرق بين السبت وبقية ايام الاسبوع . لا جرم ان ذلك المحتطب انما أذنب الى الاحسان الموسوي الذي يخول الفقير حقوقاً يوازي مقدارها القناطير العظيمة التي لا يوجد منها اليوم على الارض درهم واحد ويعرفها كل من المَّ بمواد الشريعة الموسوية — نعم انما اذنب الى الاحسان الموسوي لا الى السبت كما يعتقد حملة التوراة . يدلك على ذلك ان الاحسان الموسوي مداره كله على يوم السبت ولا اشكال فيه .

١٤ تأمل في هذا الضعيف الذي هو السواد الاعظم من الانسان تجده يموت في زاوية بيته وليس من يدري به ولكن هل تعرف قاتله — لا شك ان قاتله هو القوي بعينه ومن كان مثلك يدرك الامور من

(١) لقد فرض ائمة الاسلام الزكاة واحدا من اربعين من المال دون العقار . فالظاهر ان اولئك الائمة « رضي الله عنهم » قد كانوا اغنياء فلم يروا للفقير حاجة الى اكثر من القوت اليابس والكساء الخشن . او لعلهم فعلوا ذلك بالنظر الى رخاء تلك الايام وبساطة المعيشة فيها مما لا يذكر في جنب مطالب هذه الايام . على ان هذه الزكاة نفسها هي اليوم عندهم تحت رحمة ذويها ان شاؤوا ادوها والا فلا .

وجوهها الصحيحة يعرف ذلك حق المعرفة . وعليه افرض نفسك انك من اولئك الذين يفاخرون الشرق بتمدنهم (١) ويباهونه بعدلهم وان المقتول من الذين ينتمون اليك وان من واجباتك الانتقام من قاتله بمقتضى القوانين المتكفلة لكل فرد من افراد الانسان بتأمينه على حياته . فهل ترى يمكن لك ان تجد في العالم المتمدن كله ولو محكمة واحدة تسمع لك هذه الدعوى . ولماذا لا تجد من يسمعها والدعوى راهنة لا تحتاج الى شهود ولا ينقصها غير اصدار الحكم على القاتل . أليس لان قوانينها خالية من حقوق التعاون الذي عليه مدار المجتمع البشري

١٥ اذن ما هو الاصلاح الذي جاء به ڤولتر غير ما تراه اليوم بعينيك من الاوجاع . وما الذي جاءت به تلك الثورات الهائلة التي يتمثل بها اليوم العالم البشري وبعدها منفجر ينابيع التمدن وهي ليست الا منفجر ينابيع الرذيلة . وعلى مَ يطنطن بها المؤرخون ويحسبونها خاتمة التاريخ القديم وفاتحة التاريخ الحديث . فهل نجم عنها وتولد منها غير قوة الشعور بالتعاسة فبعد ان كان الضعيف عندهم قد ألفها منذ الوف القرون ورضخ بطبيعته لاحكامها أصبح اليوم كالمجنون تارة يسكن وطوراً يهيج . اذاً فعلى مَ ما يقولون عن انفسهم انهم متمدنون وان مدنيتهم ما صار مثلها وان يصير وان شرائعهم مسبورة على العدل وهم لا يفقهون غير هذا العدل الحسي المنتشر في جميع الارض من قديم الزمان وفضله لواضعيه لا لهم . لا جرم ان الانسان

(١) لا يخفى ان للتمدن حيثيات متنوعة فهو لم يبلغ كماله عندهم الا من حيث اكتساب القوة . اما بقية حيثياته فاكثرها كذب وخداع . على ان ما كان منها صحيحاً كالاكتشافات العلمية ونحو ذلك مما يعود على الانسان بالنفع فهو تحت استيلاء القوي فلا يؤخذ فائدة منه للضعيف اذ لا يمكن الحصول عليه الا بالمال كسائر الاشياء .

لا يزال على القديم وان ما تراه فيه جديداً ليس الا صبغة خارجية لا طائل فيها غير الاوجاع .

١٦ هو ذا علماء الطبيعة يستخرجون من خزائنها من كل طرفةٍ ما ترقص له الارض طرباً . ولكن لمن هذا كله يا ترى ؟ أليس للقوي وحده . انظر الى باستور مكتشف المكروبات المرضية الملقب بالمحسن الى الجنس البشري تجده لم يحسن الا الى الجنس القوي من الانسان . اما كان الاجدر به ان يهتم ايضاً باكتشاف مكروب الجوع ليكون محسناً صحيحاً الى الجنس البشري . بماذا يا ترى أحسن باستور الى الضعيف من الانسان وهو لم يكتشف المكروب الا ليرسله كله على هذا المسكين حتى لا يبقى منه ما يلتهي عنه بالقوي . بماذا يا ترى أحسن اليه وطعامه وشرابه وكساؤه وفراشه وبيته — كل ذلك يقول للمكروبات الباستورية بلسان الحال (هذا عشك فلا تدرجي) أرأيت يا اخي كيف ان الارض وخزائنها وكل ما عليها موقوف لخدمة القوي من الانسان وانه هو وحده الجنس البشري .

١٧ فانت تعتقد بل سائر الانسان يعتقد اعتقادك ان اصلاح الحال التي يسودها المال ضرب من المستحيل لما ان الكل قائمٌ به وانه هو السلطان الوحيد على الارض . اما انا كاتب الحروف فاني اخالف الناس اجمع في هذا الاعتقاد واقول لك ان الذي قائم به الكل هو الشرائع والقوانين لا المال . وانما يتبين للناس قيام الكل به لسبرها على احكامه من جهة وعلى احكام العدل الحسي(١) من جهةٍ اخرى . على انه قد ينظر فيها في احوال كثيرة من كلا

(١) لعل المطالع لم يفهم تماما ما المراد بالعدل الحسي لانه استعمال جديد غير موجود في قواميس اللغات . وانما استعمله للدلالة على عدل اخر غير معمول به على الارض

الجهتين نظرة واحدة فيراها الناظر مسبورة على مصلحة القوي بلا اشكال لان العدل الحسي مصروف في كثير من احواله الى الضغط على الضعيف .

١٨ ولا بد وان يتبين لنا بالتأمل واعمال الفكرة ان العدل الحسي لا يفيد الانسان راحة على الارض الا اذا كان كله متماثلاً وهذا محال . والمعنى ان الحكم بمقتضاه بين اثنين متخالفين اي بين قوي وضعيف لا يكون الا ظلماً بخلاف ما اذا حكم بمقتضاه بين اثنين متماثلين في القوة او في الضعف فانه في مثل هاته الحال لهو العدل الصحيح بعينه

١٩ وبما ان ليس على الارض عدل آخر يحكم بمقتضاه بين اثنين متخالفين يتضح لنا عدم صحة ما يقال من ان الحكومة انما اقيمت في الارض لنصرة الضعيف وتخليصه من مخالب القوي لان شرائع الانسان وقوانينه الحاضرة التي لا تزال تحكي عما كانت عليه منذ سنها الانسان تدل دلالة واضحة على ان الحكومة قد تألفت باديء بدء من القوي وحده وانها هي التي اقامت نفسها بنفسها للتسلط على الضعيف تحت اسم هذا العدل المنتشر اليوم في الارض الذي يفاخرنا به العالم المتمدن في حين عندنا منه مثلهم وزيادة

٢٠ وواضح انه لو كان الانسان نفسه هو الذي اقام الحكومة بيده وقال لها كوني حكماً بين قويي وضعيفي ليعشا معاً على وجه العدل الصحيح لكانت شرائعه وقوانينه تختلف كثيراً عما هي عليه ولا اشكال في كل ذلك

٢١ ولا بد لحكومات الارض اليوم من الاهتمام باصلاح هذا

يعرف عندي بالعدل المعنوي وهو الذي عليه يتمشى الاصلاح الحقيقي الذي هو موضوع الكلام في هذا الفصل . اما العدل الحسي فهو المعروف بالعدل مطلقا اي هذا العدل الذي تراه بعينيك منتشرا في الارض من قديم الزمان .

الخلل العظيم المنطوية عليه الشرائع والقوانين . وهي انما تفعل ذلك لخيرها وخير الانسان كله فتستريح هي واياه معاً لا سيما وان الضعيف الغربي ينظر اليها اليوم بعين شريرة متوهماً ان مصيبته فيها غير فاطن ان مصيبته في الشرائع والقوانين وان لا قوم له الا بالحكومة التي يرأسها الملك وحده دون سواه . ألا ترى كيف انه يطمع في تشكيلها على سبيل التجربة رجاء ان يجد راحة في التشكيل وليس بواجد ولا في شكل من الاشكال ، على ان الذي يطمعه في التشكيل هو القوي الذي لا بغية له غير استخلاص السلطان من يد الملك والاستئثار به وحده حتى اذا رأى من الاحوال ما يساعده على بغيته نازع الملك وشاح السلطة وحث الضعيف على التشكيل وزجه في معتركه وخرّب به البلاد في سبيل مقاصده وذلك الضعيف لا يعقل ولا يفطن حاسباً نفسه انه يخدم صالحه لا صالح القوي . مسكين هذا الضعيف واي مسكين فانه آلة بيد القوي يتصرف فيه كيف شاء .

٢٢ واعلم ان العدل المعنوى هو العدل الغير المعمول به على الارض بل هو العدل الذى لا راحة عليها للانسان الا به . وليس المراد هنا الغاء العدل الحسي واقامة العدل المعنوى مقامه . كلا . لان العدل الحسي هو كما تقدم لا بد منه في الحكم بين المتماثلين كما انه لا بد من العدل المعنوي في الحكم بين المتخالفين . فالفرق اذاً بين الاثنين ليس الا لتعديل الفرق الحاصل بين الانسان وبذلك تحصل الموازنة وتستتب الراحة على الارض .

٢٣ ولسنا نعجب اذا لم نرَ بين الفلاسفة (١) والعلماء والمشترعين والكتبة

(١) ان الفلاسفة الذين يبحثون اليوم عن اصلاح جديد يعود بالخير على الانسان كله بلا استثناء هم فلاسفة الروس وحدهم . غير انهم يتصورونه كمن يتصور خيالا اذ ليس

وسائر الكبراء والعظماء من بحث عن الاصلاح الحقيقي الذي يمنح الانسان الراحة على الارض — لان هؤلاء جميعهم لا ينتظر منهم وخصوصاً من اولئك الاقوياء الذين يتربعون في مجالس الامة ان يبحثوا عن اصلاح جديد يعود على الانسان كله بحسن المعيشة ٠ وكيف ينتظر منهم ذلك وجميعهم يعتقدون بان من كان من الانسان دونهم فقد يكفيه ان يسكن كوخاً ويأكل طلمة ويلبس عباية ٠

٢٤ واذ قد مر بنا جميع ما تقدم نقول : لا يخفى ان المجتمع البشري هو عبارة عن عائلة يسكن افرادها في بيت واحد وينفرد كل منهم بعمل من اعمالها على وجه التعاون قياماً بخدمة اجتماعهم العائلي على نظام يتكفل بقوامه وواضح انه لا ينظر الى الفرق في هاتيك الاعمال بمعنى ان بينها أعلى وادنى لان الكل يعملون لصالح واحد وغاية واحدة ٠ نعم قد يكون بينهم الرئيس والمرؤوس ونحو ذلك غير ان الفرق من هذا النحو ليس باكثر من فرق أدبي لانهم جميعهم سواء يعيشون عيشة واحدة ولغاية واحدة ٠ وواضح ايضاً انه لا بد لهم من احترام بعضهم بعضاً لان العائلة التي لا تفعل ذلك لا تستطيع ان تعيش معاً في بيت واحد ٠ فالوالدون انفسهم ينبغي لهم احترام اولادهم اذا كانوا كباراً (١) والا فالاولاد يندفعون كرهاً الى خرق احترامهم

له في ادمغتهم صورة صالحة تحط عندها حقيقة تمكن الاركان اليها والتعويل عليها ٠ واذا تجد في كلامهم بهذا الصدد ما يشم منه رائحة التخريب هذا فضلاً عما يبدو منهم من احتقار السلطان الارضي ٠ وعندي ان الجهلاء خير من فلاسفة هذا شكلهم ٠

(١) لا يخفى انه ينبغي الاب ان يكون صديقاً لابنه الكبير لا سيداً له ٠ ويوجد في بلادنا كثير من الاباء المتخلقين بالاخلاق القديمة فيأتون من حجز حرية اولادهم ما يترتب عليه اضرار ادبية تلتحق بالاولاد ٠ ومن هذا القبيل حجز حرية المرأة غيرة عليها فانه يدنيها من تلك الاضرار ٠

في احوال كثيرة كقول شاعر في ابيه

لو كان في زمن النبي محمد ما جاء في القرآن برُّ الوالد

ومن ابعث ذلك على سلب الراحة البيتية التي ليس على الارض راحة سواها اعراض الحماة عن احترام كنتها فانه يجعل البيت كله شقاء وتعاسة ٠ وبما ان هذا الاعراض القبيح نشأة الجهل بالمواجب العائلية يستحيل حدوثه حيث تكون الحماة من النساء الفاضلات اللواتي لا يرين خيراً في عمل غير مسبور على شرف الطبع ومن أغرب الامور ان تترك الحماة الجاهلة وشأنها وليس في البيت من يكرهها على الوقوف عند حدودها الادبية ٠

٢٥ فبناء على ما تقدم من المثال العائلي يتضح لنا ان الانسان هو سواء بطبيعة التعاون القائم به المجتمع الانساني فلا فرق بين قويه وضعيفه لان كلاً منهما يعمل العمل الذي خص به من قبل المجتمع المذكور بحسب تقسيم الاعمال ٠ وبديهي ان ليس هنالك ما يبعث على القول بتفاوت تلك الاعمال في الدرجات بمعنى هذا رفيع وهذا وضيع لان المجتمع محتاج الى الكل على السواء فلا فرق عنده بين التاجر والفلاح والصراف والحمال والكاتب والمعلم والاجير وسائق الحمير والصائغ والنحاس والحداد والخولي والطبيب وبياع الحليب والطحان والعجان والخباز واللحام والسماك والسمان والزيات والبقال والعطار والبيطار وبياع المحالي وصانع المقالي والزبال والحطاب والفحام والحجام والبناء والنجار والحائك والخياط وصانع الزرابيش وبياع الطرابيش ومكنس الطرقات وحاصد المزروعات وصانع الخف والجرموق ومنظف الكنف والبواليع والذي يحمل في بلادنا طبق الكعك على رأسه وينادي سحراً يا كريم وهلم جراً الى آخر ما هنالك مما يحتاج اليه المجتمع — جميع هولاء هم

انسان واحد لما ان لكل منهم وظيفة من وظائف حياة المجتمع القائمة بالكل لا بالبعض ·

٢٦ فان كنت ترى اليوم او منذ الوف الالوف من الايام فرقاً بين التاجر والحمال مثلاً فذلك فعل الشرائع والقوانين بل فعل ذلك القوي الذي اشترعها قديماً وسبرها على مصلحته جاعلاً الضعيف عبداً له الى الابد بل فعل هذه الاجرة التي لا تخوله ان يفرح بعمله تحت الشمس بل فعل قول الغني (ان مالي كله لي) وليس من محكمة على الارض تستطيع تكذيبه بل فعل هذه اللحوم المعلقة في الاسواق وليس على الارض من يخوله ان يأكل منها كما يأكل القوي او يهدم اماكنها ويحرقها بالنار حتى لا يبقى لها أثر على وجه الارض بل فعل هذا التمدن الخبيث الذي لا ينيله ذرة واحدة من خيراته ولا يطلق سبيله لعله يعيش منفرداً كما تعيش البهيمة فيستريح بل فعل كل ما تراه بعينيك من زينة الحياة الدنيا وليس للضعيف نصيب منه ·

٢٧ والحاصل فان المجتمع البشري هو اشبه بعائلة واحدة كما مثلنا وانه مؤلف من الانسان كله الا ما كان منه من اولئك الذين يضربون خيامهم حيثما طابت لهم الارض · وان لا فرق بين قويه وضعيفه لان كلا منهما يعمل للمجتمع لا لنفسه لما ان العمل للنفس حاصل بطبيعة المجتمع كما انه حاصل الافراد العائلة بطبيعة الاجتماع العائلي لان المجتمع متكفل لكل فرد من افراده بالمعيشة التامة اي المعيشة التي لا يتخللها فرق بين انسان وآخر والا فما معنى هذا المجتمع ان لم يكن كذلك هل خلق الله تسعة اعشار الانسان ليكونوا عبيداً للعشر الباقي · وهب ان الامر كذلك فاي عبد لا يأكل من الطعام الذي منه يأكل مولاه · اذن فما معنى هذا المجتمع ولاية مصلحة تألف فاننا لا نفهم له ويمين الله معنى · أليس التفلت

منه والنزوع الى ضرب اطناب الخيام حيثما يطيب المرعى أحسن بكثير جداً لا تقل انه لعمران زاهر يحكي عن مجد الانسان — لانه اذا لم يكن فيه من العيوب غير الجوع المستحوذ على السواد الاعظم يكفي لتركه بلا أسف · وبعد فما هو هذا التمدن الذي اذا لم يكن فيه غير ان قوي الانسان يأكل ضعيفه أبلغ الاكل مما لم يكن مبلغه في التمدنات الغابرة نصف هذا المقدار يكفي للقول بانه هو الهمجية بعينها · ثم ما هو هذا التمدن الذي ليس فيه غير شقاء وتعاسة ان لم يكن هو الكذب بعينه · وعلى مَ يفاخرنا به أهله أجهلاء هم ام يضحكون علينا · أليس في الشرق رجال يميزون بين الغث والسمين · ثم على مَ يفاخروننا ايضاً بالمدنية ويعمدون الى نشرها في الشرق ولو بالقوة · هل المدنية عندهم غير رصف الطرقات وفخامة الابنية ونحو ذلك من بهجة المناظر مما هو معلوم اما آن لهم ان يصلحوا مدنيتهم ثم يعمدون الى اصلاح مدنية الشرق · أليس الاليق بهم ان يصلحوا مدنيتهم من ان يدعوا بشيء هو لا شيء · ما الفائدة يا ترى من فلاسفتهم وعلمائهم وجميع هؤلاء (عفا الله عنهم) من الاختراعات والاكتشافات التي تجعلهم آلهة على الارض اذا كانوا يجهلون الشيء الاهم الذي عليه تمشي منافع اعمالهم · اللهم يسر للشرق اصلاحاً قريباً ليكون له الفخر المؤبد الذي لا توازيه مفاخر الغرب بأسرها انك السميع المجيب ·

٢٨ لقد اتضح مما سبق ان المجتمع البشري هو للقوي والضعيف معاً بلا استثناء اي للانسان العامل فيه كله · لا لملائكة السماء ولا للشياطين ولا للبهائم ولا لخلائق اخرى لا نعرفها · وعليه فكما ان المجتمع هو للانسان كذلك الانسان هو للمجتمع ولا اشكال فيه ·

٢٩ قف هنا قليلا واعمل الفكرة فيما اوردناه من احكام المجتمع وتبصر

فيه وتدبره جيداً تجد ان هذا الغني الذي يقول اليوم على بزوغ شمس العلوم والمعارف (ان مالي كله لي) وليس في وسع الشرائع تكذيبه هو مديون للمجتمع الانساني ديناً شرعياً اي ديناً ثابتاً لازماً لا مفر له منه لانه لم يجن ماله بعرق جبينه وحده كما يزعم وكما يعتقد سائر الانسان بل بعرق جبين المجتمع ايضاً . افرزه عن المجتمع ثم انظر اليه ان كان يستطيع كسب درهم واحد على ان هاته الحال مشاهدة عياناً في اغنياء كثيرين يعتزلون عن الاعمال وخصوصاً في من كان منهم قد ملأت وساوس البخل دماغه فانه يفرز نفسه بنفسه عن المجتمع ويخزن ماله في خزائنه خوفاً عليه من الناس ان تأكله حتى اذا مضى عليه ردح من الدهر اصبح فقيراً لا يملك درهماً وذهب ماله كله من حيث أتى اي صار كله الى المجتمع . وما ذلك الا لانه لم يبق لنفسه من فضل المجتمع غير ابتياع اشيائه ولو امكنه الانفراد عنه بالكلية حتى لا يعود يرى وجهه لفعل منكراً حقوقه وجميله متجاهلاً كونه انما صار غنياً من فضله

٣٠ والحاصل فان كنت ترى اليوم مفراً للغني من دينه للمجتمع فلا يلزم عنه كون المفر صحيحاً لان في الارض حقوقاً كثيرة من هذا النحو لا تعرفها المحاكم . فحقوق المجتمع البشري المعنوية بأسرها غير معروفة من الشرائع والقوانين لان المعروف عندها من حقوقه هو ما تمشى احواله على الاشياء الحسية ليس الا .

٣١ واذ كانت حقوق المجتمع المعنوية غير معمول بها وكان اهمها هذه الاجرة البخسة التي تعطى للعامل كان لا بد للانسان وان يحتاج في سبيل المعيشة الى كل رذيلة يجد فيها فائدة لنفسه . غير ان ما كان من هذه الرذائل ما هو معنوي اي غير مسؤول عنه من قبل الشرائع والقوانين كالرياء مثلاً خلا

الجو لصاحبه فباض وصفر ناصباً حبائله لسلب اشياء الناس . وان ما كان منها ما هو حسي اي مسئول عنه من جانب الشرائع والقوانين كالسرقة مثلا اقتصت الحكومة من فاعلها حتى كأن لسان حالها يقول له (ينبغي لك ان تموت جوعاً ولا تسرق) وما احسن الاستشهاد هنا بقول الشاعر .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له   اياك اياك ان تبتل بالماء

٣٢ وليس المراد بما تقدم جواز السرقة وان لا حق للحكومة بقصاص السارق — لان الحكومة التي لا تقتص من المذنبين ليست بحكومة . وانما المراد الاصلاح الذي عليه تمشى كلامنا اي الاصلاح الذي لا يترك للانسان على الارض سبباً من اسباب الذنوب . لان الاقتصاص من مذنب دفعته الى الذنب اسبابه بالرغم عنه ليس من العدل بشيء — وهنا يتبين لك ان العدل الحسي اذا لم يقترن بالعدل المعنوي في كثير من احواله فلا يكون الا ظلماً

٣٣ والذي لا بد من الاشارة اليه هنا هو ان العدل المعنوي يستلزم ان يكون كل شيء بيد الحكومة لان الاضرار المعنوية تعادل الاضرار الحسية وزيادة . فهذا الشاب الذي يمتنع اليوم عن الزواج مثلاً هو مكره عليه شاء او لم يشأ لكن اذا قال ان ليس له عمل يكفيه للنفقة على عائلة فالاصلاح الجديد لا يترك له سبيلاً لمثل هذا المقال . وهذا التاجر الغني الذي يغلق ابواب تجارته على كونها مدخلاً للارتزاق ويخلد الى الراحة غير مبال بحقوق المجتمع هو مكره عليها شاء او لم يشأ . لكن اذا قال انه يخشى الخسارة فاعتزاله عن الاعمال هو الخسارة بعينها خصوصا وان المجتمع المتكفل باعالة الكل لا يخسر بخسارته بل يظل هو هو بدون ان يلحق به ادنى ضرر وانما الذي يضره حقيقة هو ترك العمل عند وجوبه والمقدرة عليه لما في ذلك من ازدياد

عياله — وان قال انه يخشى الافلاس فالعدل المعنوي يستلزم ان يكون راس ماله حينئذ بمثابة الديون التي عليه اي انه يتناول من موجوداته كما يتناول ارباب الديون لان راس مال التاجر هو دين على محله التجاري كسائر الديون التي عليه بلا خلاف . فبناء عليه فلا خوف على التاجر من الفقر بعد التفليس لانه يظل تاجراً غنياً مؤتمناً كما كان من قبل — واذا قال انه يبتغي الراحة فلا يسمع مقاله ما لم يكن مبلغ عمره السبعين . على انه ينبغي له في مثل هاته الحال ان يقيم اولاده مقامه فان لم يكن له اولاد وجب عليه ان يشدّ بماله ازر من يثق بنشاطه وخبرته من ضعفاء تجار بلدته اذ لا يسوغ وضع المال عند الصيارف ما لم يكن هنالك أخذ وعطاء كما هي الحال عند الاغنياء العاملين — وان قال انه غير امين على ماله من الغير فالعدل المعنوي لا يترك على الارض سبباً من اسباب الطمع في اكل اموال الناس وخصوصاً ان حقوق الانسان المالية تغدو به مقدسة اكثر كثيراً مما هي اليوم لانها حقوق المجتمع المتكفل لكل فرد من افراده بما يغنيه عن اكل مال غيره . فان وجد حينئذ على الارض من يقترف هذا الجرم العظيم فقصاصه الاعدام بلا اشكال . ومن أهم الاضرار المعنوية ما ينشأ عن الاعمال القائمة عند الافراد والامم على ما يعرف بالتنازع في البقاء الذي ليس باكثر من حالة وحشية لما انه من اشياء الحيوان من غير الانسان . وبما ان الكلام فيه يستلزم فصلاً على حدة نتركه للكتاب التالي وحيئنذ يتبين للفلاسفة والعلماء والكتبة انهم يتكلمون في حقيقة ليست مما يليق نظمه في سلك الحقائق التي عليها يتمشى البقاء الانساني الصحيح .

وواضح ان التنازع في البقاء هو عبارة عن قتال دائم بل هو عبارة عن هذه المبارزة الشخصية الكائنة عند الفرنسيس والمعنى انه لا يفوز به فرد ما لم يذل

بفوزه فرداً آخر غيره ولا تفوز به امة ما لم تذل امة اخرى غيرها بل الفرد قد يهلك به افراداً والامة قد تقهر به امماً فالاليق اذاً بالانسان ترك هذه الحقيقة العاملة على اكل القوي للضعيف لاصحابها اي للبهائم التي ليس لها حقيقة اخرى غيرها . فعار عليه ان يشاركها في اشيائها ومجتمعه الانساني الذي يحكي عن مجده ورفيع مقامه متكفل ببقائه امماً وافراداً بلا تنازع . فان قيل ان التنازع في البقاء مدفوع اليه الانسان بطبيعة ناموس الارتقاء . قلنا ان للارتقاء احوالاً اخرى أصح وأليق سنأتي على ذكرها في الكلام على التنازع وقد يكفينا هنا ان نقول : ان التمدن والتنازع ضدان لا يجتمعان فاما ان يظل الانسان وحشياً يدعي التمدن كذباً وخداعاً واما ان يذكر كونه انساناً فيتمدن . ومن الاضرار المعنوية الغاء الرقيق ولا بد لكتاب الدليل وان يجعل فصلاً من فصوله للكلام عن وجوب استعمال الرقيق حتى يتبين للممالك المتفقة على الغائه ان لا طائل في هذا الالغاء غير الاضرار . ومنها العفو عن المجرمين كاستبدال الاعدام بالسجن كما هو الحاصل في هذا الزمان في حين ينبغي اعدام المجرمين بلا شفقة اذ لا راحة للهيئة الاجتماعية الا بالقصاص الصحيح الذي قررته التوراة وثبته القرآن . ومنها الحكم بسجن مذنب يقدر على فداء نفسه بالمال — وهنا نقول : لا يخفى ان السجن هو في نفس الامر للتأديب لا للاهانة وبما ان التأديب يحصل بالغرامة فلا يسوغ سجن الغني الا اذا اريد بسجنه الاهانة وذلك غير ممنوح للمحاكم من قبل الشرائع والقوانين بل غير مسموح به أن يكون اصلاً . لهذا ينبغي هدم كل سجن معد للمذنبين القادرين على دفع المال الذي به تدفع اضرار معنوية مهمة . فبناء عليه فلا يسجن الغني مهما كان ذنبه عظيماً بل يكره على تأدية الفداء الذي لا

بد وان تمشي مبلغه على نسبة مبلغ الذنب . فان كان الذنب قتلا يؤدي الدية لاهل القتيل لا اقل من مائة كيس ثم يدفع بعد ذلك لبيت الاحسان (١) من المائة كيس الى الالف بحسب اقتداره وان كان من ذوي الالوف الكثيرة فلا أقل من ألفي كيس . على ان الذي يدفع الدية ثم يتعذر عليه دفع مثلها لبيت الاحسان او يصبح بعد دفع المثل فقيراً فلا يسوغ للرئيس حينئذٍ ان يأخذ منه شيئاً بل يترك ما بقي معه لعياله لئلا تغدو عالةً على بيت الاحسان ثم يسلمه للحكومة ليجري الحكم عليه بالاعدام لان القاتل يقتل مهما كانت اسباب القتل ما لم تكن دفاعاً عن النفس — وفي الجملة فان الاضرار المعنوية لكثيرة جداً ولذا فليس في كتاب الدليل كله مواضع لبسط الكلام عليها . ويكفي هنا ان نقول : ان هذه الكذبة الصغيرة المضرة التي يكذبها عليك زيدٌ من الناس ينبغي ان يكون لها مادة في قوانين الحاكم مضروبٌ عليها القصاص . على ان الذي يلم بالاضرار المعنوية ويزن مقاديرها بميزان العقل يقف مدهوشاً متعجباً مما هو جارٍ على الارض اذ لا يجد فيها حكومة قائمة

(١) المراد هنا ببيت الاحسان مجلس خصوصي يؤلف من رئيس واعضاء لمساعدة المعوزين مساعدة صحيحة لا يتخللها نقصان البتة . ولا بد وان يكون هذا البيت في كل مدينة بلا استثناء . وبما ان رئيسه الحقيقي هو الملك وحده دون سواه يعتبر رئيسه نائب الملك ويكون له التقدم على حاكم البلدة حيثما وجدا . ويعتبر هذا البيت حكومة مستقلة بذاتها قائمة في الارض لخدمة الاحسان . وفيه تجري محاكمة الاغنياء المذنبين بدلا من محاكمتهم في محاكم الجزاء ورئيسه يفاوض في اموره رئيس المركز وجميع روساء البيوت في المراكز العالية يفاوضون الرئيس الكائن في المركز الاعلى وهذا يفاوض الملك راسا على ان لكل رئيس الحق ان يفاوض الملك راساً اذا مست الحاجة وموارد هذه البيوت هي من الاحسان السنوي الذي يؤخذ من الاغنياء على ان لا يكون اقل من خمسة من المئة من المال والعقار معا . ومن الفداء الذي مر ذكره . ومن استيلائها على اوقاف المعابد والاديرة . ومن غير ذلك مما لا محل لبسطه هنا .

لدفع هذه الاضرار الجسيمة الفادحة . ولايضاح ذلك خذ المثال الآتي

٣٤ افرض ان قوياً استعمل هذا الضعيف على ان يعمل عنده النهار كله بهذه الاجرة الشائعة التي لا تفي بربع مطالب المعيشة كما هي الحال في الشرق والغرب وسائر انحاء المعمور اذ ليس عند القوي اجرة تخول الضعيف العامل ان يأكل مثله (حاشية) لا تقل ان الضعيف معتاد على القوت اليابس كما يقول الناس أجمع فان قلت فليكن الله خصمك لانك تعلم ان القوي انما صار قوياً بالاغتسال بذلك الماء البارد المنفجر من صخرة جبين الضعيف . وتعلم ايضاً ان الذي عوده على شظف العيش هو القوي بعينه . وتعلم ايضاً ان هذا الضعيف هو مثله بلا خلاف لانهما عضوان متماثلان في المجتمع الانساني . سبحان الله بطبعك اما آن لك والمعارف تحتف بك من كل صوب ان تنطق بالعدل . وبعد فاذا سجن المجرم وبتمادي الايام اعتاد على السجن فهل ينسيه الاعتياد عليه من طلب الخروج منه وهل يحسب السجن بالاعتياد عليه صالحاً للحياة . فتأمل . ثم افرض ان ذلك الضعيف بعد ان عمل النهار كله واخذ اجرته ذهب تواً الى الحاكم وقال له يا مولاي ان فلاناً استعملني عنده النهار كله ولم يعطني اكثر مما شارطني فمره ان يعطيني ايضاً لان ما اعطانيه لا يكفيني . فما قولك هنا هل يلقى ذلك المسكين من لدن الحاكم غير اما الطرد ان كان شرس الخلق متصلفاً واما الملاطفة ان كان كريماً رضيَّ الخلق بان يقول له بلطف وتوجع لست بقادر يا بني ان اكرهه على ان يعطيك اكثر لانه ما ظلمك قرشاً شارطك قرشاً اعطاك (١) .

٣٥ أأدركت الآن ان شرائع الانسان وقوانينه مسبورة على مصلحة

(١) لا يشكل بقول الانجيل « ما ظلمتك دينارا شارطتك دينارا اعطيتك » لانه

القوي لا على العدل . على انك لا تجهل كون المدنية هي ارتباط الامة بناموس التعاون على وجه العدل. فاين هذا العدل يا ترى وما معنى هذا التعاون ان لم يكن هو العبودية للقوي . واين المدنية التي يفاخرنا بها العالم المتمدن اما آن لهم ان يخجلوا بجهلهم . وبعد فحتى مَ تظل انت وسائر الكتبة مهتمين بتسويد الاوراق تبييضاً للارض والارض تزداد باوراقكم سواداً على سواد . أما آن لكم ان تنزعوا عن الاتباع الى الابتداع وانتم تعلمون ان الخير بالابتداء لا بالاقتداء . على انه حبذا الاتباع لو يغني عن الابتداع ولكن انى له ذلك واكثر ما تأخذونه عن كتبة الغرب مصروف في سبيل خدمة القوي التي ليس وراءها غير قهر الضعيف . كيف لا وهو اذا لم يكن فيه غير هاتيك النصائح الصحية والتدريبات البيتية ونحو ذلك مما يسمعه الضعيف ولا يستطيعه فيبيت حزيناً مقهوراً بل ان منه ما لا فائدة به للقوي فتنشرونه لمجرد قهر الضعيف كقولكم مثلا (ان الفاقة من اسباب الجنون) قل لي يا اخي ماذا يفيد الانسان حال المرض اذا قال له الطبيب (غداً تموت) فهل هنالك غير ازدياد الحسرة وهل حسن قول الطبيب ام قبيح . قبح الله تلك الاوراق التي تأخذون عنها فانها مضرة بالارض ضرراً بليغاً وقبح الله تمدنهم فانه لخبيث .

٣٦ لا جرم ان الخطة التي انتم سالكوها اليوم مضرة بالبلاد لانكم تعلمون يقيناً ان الضعيف الشرقي لا يزال خاضعاً للضغط كخضوع البهيمة

لم يقل ذلك حتى جعل الاجرة اكثر كثيرا من اللازم ولذلك وبخ الذي طلب الزيادة . على ان التوبيخ محمول اكثره على الحسد لا على طلب الزيادة لان الانجيل قد تفضل على من عمل ساعة واحدة بان اعطاه دينارا كالذي عمل النهار كله . فتأمل .

التي يستخدمها الانسان لمصالحه . وتعلمون ايضاً ان الضعيف الغربي الساهر على تخريب الارض لم يسهر هذا السهر الا لجوعه . فعلى مَ اذاً تنبهون الضعيف الشرقي على الجوع وهو غافل عنه . أليس الاجدر اذا كان ولا بد من تنبيهه على الجوع ان تشفعوا التنبيه باصلاح يتكفل باشباعه .

٣٧ ولا شبهة ان ما تعتمده في الشرق من التعاليم المنبهة الى ترك الدين قصد تمدينه لعلمك ان اولئك ما تمدنوا حتى تركوا الدين هو ضلال ظاهر لان الانسان لو يسلك بمقتضى التعاليم الدينية الصحيحة التي جاءت بها الكتب المنزلة بل لو يبني عليها شرائعه وقوانينه لرأيته وافر الرزق ناعم البال لا يهمه غير عبادة الخالق والفضيلة معاً .

٣٨ ولا مراء انك لو ادركت ان الكتب المنزلة هي مستودع العمران وانها المدرب الوحيد على احكام المجتمع الانساني الصحيحة التي اراك كتاب الدليل شيئاً منها وانما اراك ذلك من فضل هذه الكتب المقدسة — لو ادركت هذا كله لسجدت لها ووضعتها فوق رأسك احتراماً واجلالاً ولملأت اوراقك مما يري الامم المتمدنة ما هو التمدن والمدنية . بل لو ادركت الانجيل وحده فقط ومن واجباتك ان تدركه لانه كتابك لسجدت له بالحال ولاشغلت قسماً كبيراً من مجلتك بما تكتشفه من دقائقه وخوافيه التي لا تزال مجهولة بل لا تزال مرصودة بالطلاسم كما يقول العامة عن خبايا الارض المودعة فيها نقود الانسان القديم — نعم لو ادركته لاشغلت بما تنطوي عليه تلك الصفحات القليلة قسماً كبيراً من مجلتك لانها تنطوي على اسمى المعاني واشرف الغايات في سبيل اصلاح الارض اصلاحاً صحيحاً . وسيوافيك كتاب الدليل باشياء كثيرة من غوامضه ورموزه ان شاء الله تعالى .

٣٩ هذا واني اخالك لا تزال تقول ان الدنيا دائرة على هذا الاصفر المدور كما اني لا ازال اقول لك بل هي دائرة على الشرائع والقوانين وانما تراها كما تقول لسبرها عليه اذ لا فرق بين هذا المدور وبين العدل الحسي . على انك لا تستطيع الآن ان تحقق ذلك جيداً لان ما اوردته على مسامعك ربما لا يكفي للوصول الى هذه الحقيقة . لكن اذا تغيرت الشرائع والقوانين التي هي مستودع سر الاحوال الحاضرة بان سبرت ايضاً على احكام العدل المعنوي فحينئذ ترى رأي العين ان ذلك المدور العظيم الشان قد خسر ثلاثة ارباع أهميته وانصرف كله الى معنى واحد لا يتخطى حاجات المعيشة كما هي الحقيقة . بل ترى بعينيك ان لا فخر يبقى على الارض لمن عنده مال ما لم يبذله في سبيل منفعة بني الانسان . بل ترى بباصرتيك ان الاغنياء يجودون من اموالهم كما يجود اليوم الغني من مال غيره يومئذ يرى الناس ان ليس للبخل على الارض اسم يعرف . بل ترى بناظريك ان الفقير يأكل كما يأكل الغني وان الارض خالية من مخاوف الجوع . يومئذ ترى ان غاية ما يكون من الفرق بين الغني والفقير هو ان الاول مشغول بما يبنى لنفسه من المفاخر الصحيحة التي تخوله ان يمشي على الارض كما يمشي الاله في السماء اذ يسع فضله حاجات الناس وان الثاني لا همّ له غير ان يعمل ويأكل كما قال الكتاب (بعرق جبينك تأكل خبزك) بل ترى ايضاً كثيراً من المحاسن مما ليس هنا محل لبسط الكلام عليه . ويكفي ان نقول هنا كفي بالجديد كهلا انه يشفي مكان الوجع فيستريح الضعيف وتطمئن الملوك في عروشهم ويستولي التمدن الصحيح وينتشر التهذيب حتى يغدو هذا الضعيف المخشوشن الطبع ألطف من الاغنياء المهذبين في هذا الزمان الذي لا يترك سبيلا لانسان

ان يستكمل الحالة الادبية التي ينبغي ان يكون عليها مهما كان غنياً .

٤٠ ومعلوم انه بالنظر الى الاحوال الحاضرة فلا يلام الغني اذا رأيناه حريصاً على ماله لانه يرى بعينيه ان احوال الارض قاضية ببخس حقوق الضعيف وذله وبموته قهراً وظلماً . فهو والحالة هذه مدفوع الى الحرص خوفاً من الفقر اما على نفسه واما على اولاده من بعده لعلمه انه اذا لحق به الفقر يموت جوعاً (١) ولا يجد على الارض من يشبعه لا من طريق العمل ولا من طريق الاستعطاء لان كلا الطريقين حالة واحدة من شظف العيش . الا ترى الى هذا الضعيف العامل كيف انه على اتعابه ومشقاته وانواع اعماله لا رزق له على الارض غير ما قدّره له القوي مما هو من نحو قول العامة (قوت لا يموت)

٤١ على اننا اذا رأينا للغني عذراً على الحرص فلا نرى له عذراً على اللئامة لما فيها من الدلالة على خلوه من عواطف لا يكون الانسان انساناً الا بها واني اعرف اغنياء (اقول ولا اكذب) لا يعرفون للاحسان معنى ولا اسماً بدليل ان الواحد منهم لا يعطي قرشاً واحداً احساناً . وفي الارض اغنياء كثيرون من هذا الشكل القبيح مما يدل ان الضعيف لضعيف العقل ايضاً اذ لو كان يعقل او في عروقه دم يجري لعلمهم واجبابهم نحوه ولكن اين

(١) لقد جرى على السنة الناس قولهم (لا احد يموت من الجوع) وقد فاتهم ان شظف العيش الذي يموت به اكثر من ثلاثة ارباع الانسان على الارض لهو الجوع بعينه على ان هذا القول مصدره من القوي ثم شاركه في استعماله الضعيف لبساطته غير فاطن لما فيه من التبطين والترقيع .

الضعيف الذي يزازل الارض . على انه اذا ظلت احوال الاضر كذلك سيأتي يوم يزلزلها فيه لا محالة .

٤٢ واقبح ما يكون ان نرى اللئامة في اكابر الاغنياء اولئك الاقوياء الذين يمتازون بكثرة الالوف لان هولاء ليسوا بحاجة الى الحرص الناشيء عن الخوف من الفقر . على انهم يعرفون ذلك حق المعرفة بدليل انهم لا يشفقون على المال في سبيل البذخ والترف وقلما يوجد بينهم من يحرص حرص البخلاء الا انهم من حيث الاحسان لجميعهم حريصون الا ما ندر . فمثالهم كمثل هذه المرأة التي تنفق الاموال الطائلة في سبيل ازيائها وتبرجها بلا مبالاة ثم هي اذا رأت يوماً ان قد وُقد في البيت اوقة فحم بزيادة اهتمت للامر وعدته خراباً .

٤٣ ولا يشكل بما يرى من بعضهم احياناً من التهافت على فعل الخير — لان لهذا التهافت عندهم حدوداً هي بالنظر الى سعتهم لا تخرجهم عن كونهم غير بعيدين عن البخل ، ثم ان هذا التهافت نفسه انما يحصل عندهم باسبابه فان انتفت الاسباب انتهى هو معها لا محالة . ولهذا السبب عينه قلما ترى احساناً موضوعاً في موضعه .



الفصل الرابع عشر

في اضرار مجالس الامة

١ لا جرم ان من يلم بكنه العدل المعنوي يتأكد لديه ان العدل لا يقوم على الارض الا بالسلطة الملكية المطلقة لانه ينافي التفاوت العظيم الحاصل بين القوي والضعيف ويهدم ما للاول من السلطة ويجعل الاثنين واحداً تلقاء الهيئة الاجتماعية . ولهذا يستحيل قيامه على الارض ما دام للقوي سلطة عليها لانه يقاومه أشد المقاومة .

٢ ومعلوم ان مجالس الامة مؤلفة من الجنس القوي وبما انها كذلك فهي ولا مراء آفة العدل المعنوي . هذا فضلا عن عدم صلاحيتها في كثير من الاحوال السياسة ناهيك بما لها من الاضرار الادبية التي يعرفها كل من ألمَّ باحوال الامم القائمة فيها هذه المجالس .

٣ على ان الذي يحبب بها الامم في هذه الايام ويجعلهم يتهافتون عليها كتهافت الفراش على السراج هو مجرد الاسم المطلق عليها لان في كونها معروفة بمجالس الامة اشارة الى ان الامة هي الحاكمة . ولا يخفى ما في ذلك من الضحك على الضعيف ومن الدلالة على ان الامة هي القوي وحده ، على انها تعرف بمجالس نواب الامة ولكن اي عاقل يستطيع ان يصدق ان يسمع ان هذا القوى المتربع في دستها لم يتربع فيه الا ليكون نائباً عن الضعيف وهو انما تربع ليستخلص السلطان من الملك ويستأثر به وحده . لا جرم ان الانسان لا يزال على ما لديه من العلوم والمعارف عريقاً في الجهل .

٤ ولسنا نريد هنا دخول الضعيف ايضاً في هذه المجالس التي يتناول

رجالها الرواتب الطائلة — لانه اذا دخل أضحى قوياً ونسي اخاه الضعيف الذي لم يدخل . ألا ترى الى هذا الفقير الذي يقول ليتني اصير غنياً لاعطي نصف مالي للفقراء والمساكين ثم هو اذا صار كذلك نسي الفقراء والفقر معاً واضحى لا يعرف للاحسان اسماً ولا للعطاء معنىً .

٥ ومعلوم ان هذه المجالس قديمة العهد غير ان الذي يخوّلها الحياة في هذه الايام المتنورة التي تموت فيها كل ظلامة قديمة هو مالها كما تقدم من من الاسماء الملفقة كقولهم مجلس الشيوخ ومجلس المبعوثان ومجلس الشورى الى آخر ما هنالك من التلفيق واذ كان الضعيف يجهل ان الامة هي القوي وحده يخيل له بمجالس الامة انه هو الحاكم وقد يرضيه من هذا الحكم ما يناله بطبيعة هذه المجالس من الحرية الزائغة فيلهيه العرض عن الجوهر . على ان الذي يدفعه الى الطمح في طلب مجالس الامة هو القوي (راجع ما جاء في الفقرة الحادية والعشرين من الفصل السابق) ولو ادرك اضرارها اللاحقة به لما استطاع ايضاً ان ينازع ملكه السلطة الارضية لان أزر الملك يشتد حينئذ بشعبه الضعيف فيرتد عنه القوي خاسراً . ولكن ان الضعيف الذي يفهم ويفهم فيحيي الارض بصوته الصحيح الذي لا تخلله ثورات ولا تخريب .

٦ وواضح انه حيثما تكون مجالس الامة فتلك الامة واقعة تحت سلطة لا اقل من الف ملك . وجميع هولاء الملوك هم كما تقدم من الجنس القوي الذي يحتقر الضعيف ولا يرى له حقوقاً غير ما وافق منها شكله — لا من الجنس الملوكي المفطورة افراده على واجبات مقدسة تحدو بكل منهم ان يكون لرعيته كأب لاولاده لا يميز بين قويها وضعيفها .

٧ لا تقل ان التميز حاصل عند جميع الامم على اختلاف انواع السلطة —

لان ذلك حاصل بطبيعة الشرائع والقوانين المسبورة على مصلحة القوي لا بالملوك ولا بمجالس الامة ايضاً لان السلطة في كلا الحالين انما تعمل كما هو معلوم بمقتضى الشرائع التي لديها . فتأمل .

٨ والمراد مما تقدم هو انه اذ كان لا بد من اصلاح الارض اقتضاء لراحة الانسان كله وتخلصاً من الويلات الحاضرة التي يتعمدها الضعيف للحصول على الراحة من حيث يجهل السبيل المؤدي اليها — كان لا بد ايضاً من هدم تلك المجالس وحرقها بالنار حتى لا يبقى لها أثر على وجه الارض لان الاصلاح الجديد غير مستطاع بوجودها .

٩ على ان ليس بيننا من يجهل ان القوي يقاوم كل مشروع يؤذن بالتسوية بينه وبين الضعيف . لهذا فلا سبيل الى سبر الشرايع على العدل المعنوي الذي به ينبسط الرزق للضعيف ويغدو هو والقوي سواء الا بانفراد الملوك في السلطة دائماً ابداً اذ لا يستريح الانسان اذا كان له اكثر من سيدين « الله » في السماء « والملك » على الارض .

١٠ وواضح انه لا يسوغ ان يظل الضعيف محتقراً مهاناً يستكثر عليه ما زاد عن هذه المعيشة التعيسة التي اعتاد عليها كما يقول الظالمون الذين لا يعرفون حقوقاً لسواهم . فقد يكفيه ويمين الله وقد مرّت عليه الالوف من الاجيال وهو ميت . اما آن له ان يحيا على الارض حياة صحيحة خصوصاً وهو اليوم ينظر من جرّاء ذلك الى القوي نظرة الواجد المنتقم ولا يدري السبيل الصحيح المؤدي الى الانتقام بحيث اصبحت الارض غير امينة منه على حياتها . ولِمَ لا اذا هو تكاتف التكاتف الفعلي بان شد بعضه بعضاً مندفعاً عليها والعياذ بالله .

١١ ومعلوم انه حيثما تكون مجالس الامة فلا فرق بين ان يكون هنالك ملك كما عند الانكليز وبين ان لا يكون كما عند الفرنسيس لان الملك غير مستطاع له بها ابرام أمرٍ ما لم يُشفع بالمصادقة عليه منها وقد يستحيل تنفيذ امرٍ من اوامره اذا اشتم منه رائحة نصرة الضعيف تلقاء القوي .

١٢ اما قوله تعالى (وشاورهم في الامر) فليس فيه ما يقضي بمجالس الامة كما يزعم اليوم كثيرٌ من المسلمين وخصوصاً حزب (تركيا الفتاة) لان الدين انفع واصلح وأسبق علماً من ان يأمر بمجالس كلها ضرر . فغاية ما أراده الدين من هذه الآية الكريمة هو انه ينبغي طلب المشورة عند مسيس الحاجة اي عند ما تدعو الاحوال الى الطلب كما اذا حدث أزمة او مجاعة او حرب ونحو ذلك مما يدعو الى المشاورة فيه مشاورة وقتية اي ريثما تصطلح الحال — وواضح ان النبي نفسه عليه الصلاة والسلام قد سلم زمام الخلافة لفردٍ واحد اختاره للملك بعده . ولما اتصلت الخلافة الى عمر (رضي الله عنه رضواناً كبيراً) خطب في الناس بان قال لهم (انتم المؤمنون وانا اميركم) فلو كان معنى الآية يفيد اقامة هذه المجالس لاقامها الخلفاء الراشدون الذين كانوا (رضي الله عنهم) اعرف بفحوى الكتاب من جميع علماء الدين الذين قاموا في الاسلام الى هذا اليوم خصوصاً وان هولاء (نفعنا الله بهم) قد فاتهم كثيراً من معانيه كما سنبين ذلك في الكلام على القران الكريم ان شاء الله تعالى . وانما فاتهم من معانيه ما فات لاتخاذهم الاحكام المنطقية دليلاً على ما اودع الله في كتابه الاكمل من المقاصد الغامضة والمرامي البعيدة فلم يدر في خلدهم ان الكتب الالهية تقول في كثيرٍ من احوالها شيئاً وهي تريد شيئاً آخر . لهذا فان اعتمادهم على القياس والدليل قد خسر اهل الاسلام كثيراً من

مقاصد الكتاب ومراميه — وواضح ايضاً ان المسلمين كانوا ولا يزالون أحرص الامم على توحيد السلطان فهم لا يعرفون للسلطان المحمدي غير ان يكون في قبضة امير واحد يعرف عندهم سياسياً بالملك والسلطان ودينياً بالخليفة وامير المؤمنين — هذا ملخص ما عرفه الاسلام من امر السلطة .

١٣ وخلاصة ما تقدم ان راحة الانسان على الارض موقوفة عند كل امة على حصر السلطان بالملك وحده بدون ان يشاركه فيه احد من افرادها اي ان يكون مطلق السلطان يفعل ما يريد لان سلطة القوي على الارض لا يبطل عملها الا كذلك . ولا بد من احترامه كما تحترم الشرائع والقوانين بلا خلاف بل ينبغي احترامه اكثر لانه هو وحده المحافظ عليها والمنفذ لها ولا سيما انه لقائم في الارض مقام الله القدير .

١٤ لا تقل لقد مرّت الدهور الكثيرة على تسليم السلطان للملك وحده ولا تزال الحال كذلك عند اكثر الامم والقوي لا يزال متسلطاً والضعيف لا يزال مضغوطاً عليه غير مسئول عنه — لان اصلاح الارض هو كما تقدم في الفصل السابق موقوف على تغيير الشرائع والقوانين لا على تغيير هيئة السلطان ولا على ملاشاته والعياذ بالله كما يطمع اليوم احزاب العالم الغربي . وبعد فمن منا يا ترى يجهل ان الشرائع شيء والسلطان شيء آخر . ومن منا ايضاً لا يرى بعين البصيرة بل الباصرة ان السلطة في الارض هي في الحقيقة للقوي وانها ليست للملوك الا بحسب الظاهر . ومن الذي يملأ خزائنه بهذا الاصفر الرنان ولا تكون الدنيا له . واي ملكٍ على الارض يستطيع اليوم ان يقول لذي الملايين منه (اما ان ترضي هذا الضعيف بالمال واما ان يضربك كما ضربته) واية حكومة مستطاع لها ان تستخلص منه ما

عليه من حقوق الزكاة السنوية التي قررتها الكتب المنزلة . بل اية حكومة تستطيع دفع ذرّة واحدة من الاضرار المعنوية التي تضاهي مقاديرها القناطير المقنطرة . قل لي من قاتل هذا الضعيف الذي يميته الفقر . اذن ما حيلة الملوك اذا كانت شرائع الانسان قاضية بان الدنيا للقوي وان السلطة للمال وحده لا لغيره . فاي ملك يا ترى لا يرغب اليوم في اصلاح احوال رعيته وفقاً لما لديه من الشرائع والقوانين . هل يوجد لديه شرائع اخرى غيرها أصلح منها ليعمل بمقتضاه . أليس من الظلم ان ننسب اليهم اوجاع الارض وهم وحدهم الذين يجسون نبضها كما يجس الاطباء نبض المريض ولكن ما حيلتهم والذنب ذنب باستور وامثاله الذين تعاموا عن اكتشاف مكروب هذه الاوجاع . قال الشاعر

ما حيلة الرامي اذا التقت العدى   وأراد رمي السهم فانقطع الوتر



الفصل الخامس عشر

في الفضل

١ لقد جعلنا هذا الفصل موسوماً بالفضل والتعبير به عن العدل المعنوي لاننا لم نجد كلمة يحتمل معناها العدل المعنوي في كثير من احوالها مثل كلمة « الفضل » ولذلك جعلناها موضوع كلامنا هنا ليقرب من ذهن المطالع ما المراد بهذا العدل . على اننا نأتي على القليل من هذا المراد ونصرف اكثر الكلام في سبيل الفضل نفسه فنقول .

٢ تأمل ايها الانسان في هذا الكون العظيم تجده صالحاً لحياتك مسخراً لخدمتك حتى انه ليخال لك ان ارضك اشرف اروض الفضاء بأسرها والواقع غير ذلك لانك انت الاشرف وليس هي . فكم من ارض في هذا الفضاء يملأ الكون عجيجها ويندك لهولها الوف من الاروض مثل ارضك

٣ واذا ادركت ان هذا الكون العظيم مودع في فضاء لا نهاية له وانك لتدرك ذلك لما ان الفضاء عدم والعدم لا شيء وقفت مندهلاً مدهوشاً من فضل عظيم منتشر في عوالم الكون اجمع . واذ ذاك يتأكد لك ان هنالك خلائق كثيرة قائمة حياتها بصلاحية هذا الكون للحياة عموماً وصلاحية كل ارض مسكونة لحياة سكانها خصوصاً لان الفضل الكوني يدل ولا مراء على وجود مخلوقات حية تستفيده وتتمتع به اذ لو كانت العوالم الكونية القصوى خالية من مخلوقات حية للزم عن ذلك خلوها من الفضل ايضاً وهذا باطل اذ لا يجوز على الخالق الحكيم ان يخلق شيئاً عبثاً

٤ واذا تأملت يا انسان في هذا الكون فلا يهولنك كبره وعظمه

لان هذا الجوهر المودع في خزانة دماغك الصغيرة هو اكبر منه واعظم بل اعلم ان ما يهولك منه هو هذا الفضل الطبيعي وحده . فعارٌ عليك ان تعيش في الدنيا بلا فضل وفضل الطبيعة يتدفق عليك كمجاري السيول

٥ واذا تأملت ايضاً في فضل الطبيعة وتحققت كونه هو وحده مدار العلم والفلسفة تأكدلك بسهولة ان هذا الكون كله ليس باكثر مما تراه فيه من الفضل حتى لو قال لك قائل ان الكون هو هذه الاجرام الهائلة السابحة في الفضاء لاعرضت عنه كما تعرض عن الجاهلين لعلمك ان هذه الاجرام لو كانت عارية من الفضل لحسبت مناظر خيالية لا حقيقة لها . فالكون اذاً ليس في نفس الامر الا ما تراه بعينيك من الفضل الطبيعي .

٦ واذ كان ما من شيء حقيقي في عالم الوجود غير الفضل لما انه هو الشيء الوحيد الذي يمكن للانسان ان يعده حقيقة ابدية كان لا بد لمن يرغب في الوقوف على كنه شيء اياً كان نوعه ان يبحث فيه عن الفضل لانه كنه الاشياء كلها المادية والروحية والادبيـة فان لم يجده فيه فذلك الشيء باطل لا محالة .

٧ واذ كان على الفضل وحده مدار الاشياء جميعها فاحذر يا انسان ان تعبد الله لغير فضله لان من يعبد الله خوفاً من العقاب او لنوال الثواب لا يتأخر عن عمل الشر كلما تهيأت له اسبابه لانه لا يكون الا جاهلاً للفضل فالذي يحترم الملك خوفاً منه لا لفضله فلا يتأخر عن معاكسة اعماله عند الامكان . والذي يحترم الغني الكريم لغناه لا لفضله فلا يسلم ذلك الكريم الفاضل من لسانه الخبيث . والذي يحترم الغني البخيل المرذول من الله والناس فليس باقل رذيلة منه لان الاثنين على حد قول العامة « كما حنا كما حنين »

فالواحد لئيم والآخر مرائي . واذا خلت شرائع الانسان وقوانينه من الفضل فحدث عن تعاسة الارض ولا حرج .

٨ والذي يحترم دينه لمجرد كونه من السماء لا لفضله فلا تسلم بقية الاديان من ان ينظر اليها حنقاً . والذي لا يحترم دينه لمجرد فضله فلا يسلم من الوقوع في قبضة الكفر . والذي يحترم دينه لفضله فانه ليحترم سائر الاديان اذ ليس من دين يخلو من الفضل . والذي ينسب احترام الاديان بأسرها الى اللعب في الدين خليق بقطع لسانه حتى يتعلم ان يحترم الفضل حيثما وجده والذي لا يزن كتب الدين بميزان الفضل لا يستطيع ان يدرك ايها افضل وكل دين يقصر فضله على ابنائه دون الغير هو مذهب منشق من دين . وكل دين لا فضل له وليس على الارض دين بلا فضل هو كذب . وكل خدمة دينيين لا فضل لهم وهم كثار على الارض هم كذبة . واذا كان الدين والانسانية وكل ما نراه من مخلوقات الله ليس الفضل بعينه فحياتنا كذب وخداع .

٩ واذا كان الفضل لا يوزن بميزان فلا سبيل لنا الى معرفة الاله الحقيقي . واذا كان فضل الطبيعة هو المقدار الاعظم فمن الضرورة ان يتخذها الانسان معبوداً لان المقدار الاعظم لهو المعبود الحقيقي بلا اشكال واذا كنا نحن معاشر الرسوليين نعبد الله لغير فضله فالذين يعبدون الشمس مثلا هم افضل منا لانهم يعبدونها لفضلها . واذا كان هذا الفضل الطبيعي هو قوة حيوية فبالاحرى كثيراً جداً ان يكون المقدار الاعظم للاله الحي السرمدي

١٠ واذا كنا نحن معاشر الناس لا نحترم الغني الكريم ولو وثنياً فنحن اذاً لا نعبد الله لفضله . واذا كنا لا نرذل الغني اللئيم ولو مسلماً فيا ارض افتحي

فاهلك وابتلي الانسان . واذا كان خير الناس من نفع الناس فالغني الكريم ولا مراء افضل الناس وسيدهم . واذا كان شر الناس من لا ينفع الناس فالغني اللئيم هو في مقدمة الاشرار الظالمين الذين تلعنهم الكتب المقدسة . وبعد فان لم تترصع شرائع الانسان وقوانينه بحلى الفضل فاية راحة له على الارض وان لم يكن هذا الغني الكريم الذي يسع فضله حاجات الناس ابناً للاله فابن من اذن .

١١ ولا مراء ان من يعبث بالفضل فانما يعبث بالوجود كله والذي يحترم غير الفضل فمثله كمثل شعلة من نار اذا استدرجتها الريح حرقت الارض وما عليها . فهذا الجمال مثلا الذي عده القدماء كمالاً واتخذوه الهاً اذا لم يشف عن فضل فهو الشناعة بعينها . ففي باريس ام الجمال كثير من بنات الآلهة ڤنيس ولكن كثير منهن لا يلقين من فضلها غير اندفاعهن الى بذل زهرة الحياة فيما لا يعقبه بعد الجفاف سبيل الى الراحة غير الانتحار

١٢ ومن المحقق ان كل امة لا ترى في السنن القديمة فضلاً تنزل بنفسها في دركات التعاسة فعدم احترام فضل الزيجة مثلا ليس وراءه غير الانقراض . والشعب الذي لا يدرك اهمية فضل الدين لا يستطيع ان يدرك الفضل الصحيح . والذي لا يحترم فضل القديم يلعب في الجديد كما تلعب الريشة في مهب الريح . وفي الجملة فكل امة تنزع من القديم الى الجديد غير آخذة بما في كل منهما من الفضل دون سواه ليست بامة يُرجى لها طول الحياة

١٣ وأعظم فضل جديد ادركه الانسان هو فضل المرأة . فالامة التي لا تهتم اليوم بتربيتها تخسر فضلا عظيماً هو عبارة عن نصف قوتها . والامة التي لا تعبأ باحياء فضل المرأة فلا يكون لمصالحها العمومية رجال يصح

الاعتماد عليهم . وكل بلاد لا تعرف للمرأة فضلا فالى الشقاء مصيرها . وكل امرأة ولود جاهلة فانما هي أفعى تلد افاعي . واذا كان مهد ابن الانسان كمهد ابن البهيمة فلا ترجو ان تجد على الارض انساناً . واذا رأيت ابن الكريم لئيما وابن اللئيم كريماً وانك لترى ذلك خلافاً لما يزعمون كما سنبين ذلك في الكلام على تربية الاولاد فالى من ينسب هذا التغيير العظيم ان لم يكن الى المرأة . واذا كانت قادرة على تغيير الطبيعة وتحويلها من حالة ادنى الى أعلى وبالعكس فكم هو مقدار قوتها يا ترى . واذا كنا لا نرى الارض محمولة عليها خلافاً لما زعم الاقدمون من انها محمولة على افيالهم وجمالهم وبغالهم وحميرهم أفلا نكون مثلهم . واذا رأيناها تهز الارض كما تهز السرير أفلا تعادل قوتها قوة الزلازل . واذا كنا لا نحكم بصحة شيء من هذا النحو ما لم نره حسياً فهل من فرق بيننا وبين البهائم . واذا كان فضل المرأة بادٍ للعيان فهل يحسب انكاره غير مكابرة وعناد . واذا كانت السعادة على الارض في قبضة يد المرأة فعلى مَ لا تباس تلك اليد لفضلها لا لشيء آخر . واذا كان الفضل هو مدار الاشياء كلها فمن احرى بالفضل الانساني ان لم يكن ربة المهد . واذا كان الاحترام لا يسوغ في الدنيا لغير الفضل فما هو فضل هذا الحجاب المضروب عليها لنحترمه . واذا كانت غاية المرأة من الرجل هي مثل غاية الرجل من المرأة فما فضل الحجاب اذن اذا ضرب عليها وحدها هل ينتفي المحذور اذا هو لم يرها وظلت هي تراه . واذا قيل ان وجه المرأة عورة وكانت غايتها منه كغايته منها بلا خلاف أفلا يكون وجه الرجل عورة ايضاً . واذا لم يضرب الحجاب على كل من الرجل والمرأة على حدة حتى لا يرى احدهما الآخر أفلا يكون ضربه على المرأة وحدها ضرباً من الباطل .

واذا ضرب الحجاب على كل من الاثنين ولم يبق على الارض من يعمل فيها وبدا للعيان خسارة قوة الانسان كلها فلماذا لا نقر ونعترف بخسارة نصف قوته اذا ظل مضروباً على المرأة . واذا لم تكن المرأة عندنا غير بمثابة هذا الحيوان الاهلي الذي نستخدمه ونحرسه فهل يغني علم المنطق عنها والسعادة في قبضة يدها . واذا قيل ان هذا الحجاب هو من عند الكتاب فكتاب الله اغزر فضلاً من ان يجيء بشيء باطل (١) .

١٤ لا جرم ان الفضل قاعدة كل شيء ومقياسه اذ ما من شيء في عالم الكون الا وقيمته بمقدار فضله . فاذا رأيت غنياً لا فضل له وله عند الناس قيمة فاعلم يقيناً ان العمران البشري لمحتاج الى التكميل وان الحقيقة المعول عليها لا تزال بعيدة عن الانسان والانسان بعيد عنها . وهذا المتدين الذي ينبغي ان يكون الفضل دينه اذا هو لم يعرف من كتابه الديني غير تعاليم حملته فلا تسلم عقائده من الباطل والعدم .

١٥ واعلم انك اذا أصبت يوماً بمرض يتوقف شفاؤه على استنشاق الهواء النقي مثلا فلا تضع احترامك لهذا الفضل في موضع العبادة كما كان يفعل القدماء — لان افضال الكون كثيرة وكثرة الآلهة محال — بل فليكن مقدار احترامك لذي فضلٍ بمقدار فضله بلا زيادة ولا نقصان عالماً ان الفضل الاعظم هو لموزع الفضل . فان قلت ان هذا الهواء او هذه الشمس او هذا

(١) سوف يبين كتاب الدليل ان حجاب المرأة ليس من كتاب الله بشيء وسيبين ايضاً اشياء كثيرة مستعملة عندهم والكتاب بريء منها . وهو انما يفعل ذلك لقطع السنة الذين يتخذون الاشياء الباطلة المنسوبة الى الدين دليلا على تكذيبه . وسيأتي هذا كله مقروناً بتفاسير جلية عارية من الاشكال

القمر او غير ذلك من جنود الكون هو اله خالق فانت تجهل مدارج الفضل وان لاحترامه مقادير متفاوتة وان العبادة للمقدار الاعلى . ولعمري ان انساناً لا يعترف بفضل المبدع العظيم لا يستطيع ان يعرف الفضل معرفة صحيحة ولو فيلسوفاً لان من ينكر الفضل الالهي يعبث بالكل

١٦ تأمل يا انسان تجد ان لا شيء في عوالم المخلوقات يتدرج في مدارج الفوقانية غير الفضل . فان قلت ان الشمس فوق والارض تحت مثلا فقولك غير صحيح اذ ليس في الكائنات فوق وتحت البتة . وان قلت ان الذي ينفع الناس هو فوق الناس فقولك هو الحقيقة الابدية بعينها . واذا سمعت قائلا يقول ان الغني لا يكون فوق الفقير ما لم يكن ذا فضل والا فالفقير فوقه فاسأل الاله ان يكتب كلامه على صفحات السماء ليكون مقدساً الى الابد . ولكن اذا لم تسمع من الناس غير ما كان من نحو قولهم الشمس فوق والارض تحت فلا تعجب اذا رأيتهم يحترمون غنياً لا فضل له لان الفضل غير معروف عندهم . واذا لم تر للفضل يداً في اشرف اشياء الانسان واجلها فلا يكون ذلك الشيء الا تحت الاشياء كلها . فالعدل مثلا اذا لم يتخلله الفضل عند الحاجة اليه فلا يكون الا ظلما . والشرائع التي عليها تمشي راحة الانسان اذا لم يرصعها مشترعوها بحلى الفضل فلا راحة بها على الارض . وهذه الحكمة اذا لم يتولاها رجال من اهل الفضل فهي للقوي وحده دون الضعيف . وهذا الحاكم الذي يتولى من قبل الملك مركزاً من مراكز المملكة اذا لم يكن فاضلا فهو مخرب . وفي الجملة فكل ما تراه بعينيك عزيزاً اذا خلا من الفضل فلا يساوي شيئاً .

١٧ واذ كان لا حقيقة في السماء وعلى الارض غير الفضل كان لا

بد وان يسهل به على الانسان ان يدرك لاية غاية ولد في الدنيا وماذا جاء يعمل في الارض . وانما يسهل عليه ذلك اذا ادرك ان الفضل هو مدار الكائنات بأسرها لان من يجهل واجباته نحو الفضل لا يستطيع ان يدرك ماذا جاء يعمل في الارض

١٨ وواضح ان الشعب الذي يحترم الغني البخيل يموت اكثره جوعاً والشعب الذي يرذله فلا يكون غنيه الا كريماً . فان شئت يا انسان احياء الفضل على الارض فاجتنب احترام سواه لان احترامك لغيره يميته . فان لم تفعل فلا ترجو لاجتماعك نظاماً يتكفل ببقائه

١٩ هذا واذا رأيت الارض تدور على محورها دورتها اليومية فاعلم يقيناً انها لم تفعل ذلك الا لتعاقب الليل والنهار حتى لا يستضيء نصفها بشمس لا تغيب ويتخبط النصف الباقي في ليلٍ بهيم لان الفضل هو كما تقدم مدار الكائنات بأسرها . ولكن اذا رأيت المجتمع الانساني يدور على محورهِ (التعاون) دورته اليومية وشمسه لا تشرق الا على قسم صغير منه فلا تسل عن سبب هذا الخلل العظيم فانك لتجده في كل شيءٍ خلا من الفضل

٢٠ تحقق يا انسان ان ليس في عوالم الكائنات غير الفضل وحيث لا فضل فهنالك الظلمة الابدية



الخاتمة

١ لقد طال الامد على هذا الكتاب حتى سئم حضرات المشتركين الانتظار . وقد كان اول عهدهم به موسوماً (بالعصر الجديد) وطبع منه تحت هذا الوسم بضعة فصول مرّ على طبعها حول كامل قضيناه مع صاحب المطبعة بالنزاع بلا طائل بحيث اندفعنا الى اغفاله وجعل كتاب الدليل بديلاً منه . قال الشاعر

وما عن رضى كانت سليمى بديلةً   بدعدٍ ولكن للضرورة احكام

٢ واذ قد أضعنا في سبيل ما طبع من كتاب العصر اكثر ما جمعناه من قيم الاشتراكات لم يطبع من هذا الكتاب الا القليل حتى نفد ما كان باقياً منها اذ كان المجموع قليلاً فالتجأنا الى نشر اعلان آخر كما علم حضراتهم رجاء الحصول على اشتراكات جديدة تفي بالنفقة ولكن عبثاً رجونا فاننا لم نحصل على نتيجة . فكان ذلك باعثاً على عدم مواصلة العمل بطبع الكتاب فحصل التأخير وطال الامد .

٣ والذي نراه هنا من وجوب ايثار الكلام على السكوت خلافاً لقولهم « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » هو اننا قد بعثنا باعلان الاشتراك الى اكثر الثغور السورية وكأن الذين كلفناهم لهذه الخدمة الادبية كأنما كلفناهم لمضرة لاننا لم نجد بينهم من اكترث للأمر بل قد وجدنا منهم من لم يرد علينا كحضرة ابي فلقه افندي بيروت . ولسنا نؤاخذهم بما فعلوا لان الفضلاء قليل على الارض . قال الشاعر

لقد أسمعت لو ناديت حياً   ولكن لا حياة لمن تنادي

٤ ولولا فضل الفاضل عزتلو يوسف بك زحلوط لما طبع هذا الكتاب الا اذا وجد من يتفضل عليه بمثل فضل هذا الشهم القليل المثال وهيهات . فلا بدع والحالة هذه اذا جاء بذكر اسمه الكريم حافظاً له ذكر يؤثر لانه لمن فضله حفظه الله وكثر من امثاله ولا يخطيء امام قرائه اذا توقع من حضراتهم ان يشاركوه في الشكر لجميله ولا يغالي اذا قال فيه — والثناء دونه — انه ارفع من ان يثنى عليه . وكيف لا يكون هذا الفاضل خليقاً بمجيء ذكره في كتاب الدليل وهو آية من آيات الانسانية المنزلة من لدن من شرّف الانسان على سائر مخلوقاته . ومن هو الانسان الصحيح يا ترى ان لم يكن من نحو هذا المثال .

٥ هذا واذ طال الامد على طبع الكتاب الاول من الدليل عنّ لنا في غضون ذلك ان نتوسع في مباحثه اكثر مما كنا قدرناه له وان نلغي كتاب العصر الجديد بان نضيف مباحثه الى الدليل اذ لم نرَ له طالعاً حسناً كما يقول المنجمون — وهكذا فعلنا ولكن بعد ان طبع من هذا الكتاب بضعة فصول كان ينبغي ان تكون بمقتضى التقدير الجديد على غير النسق الذي جاءت فيه

٦ ولما كان ما من عمل يخسر المواصلة فيه الا ويكتسب تحسيناً كان من نصيب كتاب الدليل ان اكتسب تحسيناً يروق للقراء لان مدة تأخيره في المطبعة كانت كافية لاعمال الفكرة في سبيل تحسينه . فبناء على ذلك وعلى ما لحق به من ازدياد المواضيع والمباحث من كل قديم رائق وجديد شائق اضحى كتاباً كبيراً ربما تجاوزت صفحاته الالف . وسنقسمه الى بضعة كتب لا نستطيع الآن تحديد كميتها فقد يمكن ان تكون اربعة او خمسة وقد يمكن ان تكون اكثر لاننا سنجعل حجم كل كتاب منها بمقدار حجم قيم الاشتراكات فيه والمعنى اننا لا نقدر

ان نجعل الكتاب مائتي صفحة او اكثر اذا كانت قيم الاشتراكات فيه لا تكفي لذلك وانما نجعل مقداره بنسبة مقدارها فان لم تكف لاكثر من مائة صفحة مثلاً فلا نزيد عليها لاننا لسنا مكلفين ان نثقل ايضاً على اهل الفضل والمشتركون أولى بالمساعدة . على ان قيمة الاشتراك في كل كتاب من الدليل لا تزيد عن ثلاثة ارباع المجيدي في القطر الشامي ونصف ريال في القطر المصري وهي بالنظر الى مباحثه التي لم ينسج قط على منوالها تعتبر كلا شيء

٧ ويعلم الله اننا لو لم نكن قد وعدنا حضرات المشتركين بجعل هذا الكتاب ثلثمئة صفحة وزيادة لما جعلناه اكثر من مائة صفحة ولكن كان الوعد عن جهل . اما الآن وقد تعلمنا احوال بلادنا فلم نرَ بداً من ايراد ما اوردناه على ان العذر هنا نجده عند اهل الفضل بلا اشكال .

٨ هذا وقد تبين مما سبق ان المقدمة المدرجة في صدر هذا الكتاب قد اضحت لا تنطبق على ما ارتقى اليه الدليل لانه كما تقدم قد تناول الدنيويات فضلاً عن التوسع في الدينيات ومن عزمه بمعونة الله ان لا يترك سبيلاً موصلاً الى معرفة كل مجهول في الدين والدنيا ما لم يسلكه حتى يتبين للعالم الانساني حقيقة كل من الاثنين .

٩ وسيفتتح كتابه الثاني بالكلام عن الوثنية ويستغرق في سبيلها بضعة فصول تشف عن تعميم الخلاص بحيث يتبين للمطالع ان ابواب السماء مفتحة لكل متدين فاضل اياً كان معبوده ويبني براهينه على صحة ذلك من الكتب المنزلة نفسها حتى يتبين للعالم الرسولي ان كتبه لا تزال مجهولة عنده

١٠ وانه ليلتمس من افضال خدمة الاديان الرسولية ان يأخذوه بحلمهم ويعاملوه بآدابهم وان لا يسيئوا به الظن بما يرونه فيه من مظنات

يجيء بطبيعة الدفاع عن الدين — لانه اكثر احتفاظاً باحترامهم واكمل ايماناً من ان يأتي بما يذهب بذرة واحدة من رفيع مقامهم الديني خصوصاً وهو يعلم يقيناً ان رفعة مقامهم مكتسبة من رفعة مقام الدين وبالعكس — ذلك هو المقصد الذي من اجله يندفع الى تذكير حضراتهم لئلا تخسر الارض رفعة المقامين معاً والعياذ بالله . وواضح ان تجرده للاصلاح الديني لا يترك له ندحة عن الذكرى لان الاصلاح يقتضيها اقتضاء لا مفر منه . وواضح ايضاً ان الاصلاح الديني يستلزم تخطئة معلمي الاديان القدماء لان الدين هو صالح بطبيعته غير محتاج الى الاصلاح فان لم يكن اولئك المعلمون قد أخطأوا في التعليم فالدين اذاً غير صحيح والا فلماذا نراه اليوم غير صالح للانسان ان لم يكن هنالك صبغة ارضية قديمة قد طرأت عليه . لا جرم ان أدياننا نحن معاشر الرسوليين هي غير كتبنا المنزلة لان حملتها الاولين قد واروها عنا بحجب تعاليمهم . على ان كتاب الدليل قد صرف كتابه الاول في سبيل تخطئتهم ولكن بدون ان يأتي على مابين وجوه الخطأ . ولذا يعود فيلتمس من افضالهم — وهم لا بد لهم فيما فعله السلف — ان يمهلوه ريثما ينتهي لان الكتاب الاول منه لا يخرج عن كونه مقدمات غير وافية بالمراد لاقتصارها على الاشارة والتلميح فهو لا يستكمل قوته المتكفلة باقناعهم ورضاهم عنه ما لم يبلغ اشده ان شاء الله

١١ والذي رفعناه هنا الى حضرات رؤساء الاديان نرفع مثله الى حضرات الاقوياء من الانسان اذ لا تخلو الحال من ان يكونوا قد رأوا فيه بعض مظنات حدت بهم الى اساءة الظن به . على ان الفضلاء منهم لا يجدون فيه ما يعبث بنزاهته واخلاصه وبكونه مصروفاً في سبيل خدمة الانسان

كله بلا استثناء بدليل انهم لو رأوا فيه اعظم مظنة كما لو قال مثلاً (سوف يُرى دم الغني الاثيم مسفوكاً في الازقة والشوارع والاسواق وحيثما وجد) لما وجدوا في مقاله ما يفيد تنبيه الضعيف على سفك دم القوي لعلمهم انه انما قال ذلك لينبه القوي وحده تحذيراً له من سوء العقبى لعله يبادر الى مداركة الامر بان يلتمس نشر الفضل على الارض . فان لم يفعل أضحى سفك دمه والعياذ بالله من الامور المقدورة التي لا بد من وقوعها سواء نبه الدليل الضعيف او لم ينبهه اذ يستحيل على الضعيف والضغط آخذ بالاشتداد ان يظل راضخاً لاحكام الارض الحاضرة فلا بد وان يتفانى يوماً في سبيل التملص من جوعه الحاضر . نعم ان منه من يتفانى اليوم في هذا السبيل المقدس بمض التفاني كما هو مشاهد في العالم الاروبي الا انه يجهل مكان الوجع فيعمد (قبحه الله) الى مس رجال مقدسين قائمين في الارض مقام الله القدير حاسباً خيره موقوفاً على هدم السلطان الارضي . فلهذا السبب عينه نبه الدليل على مكان الوجع دفعاً للثورات والفظائع الهائلة التي تتهدد الارض بالخراب الابدي لان هدم السلطان الارضي ليس وراءه غير الظلمة الابدية والعياذ بالله . على ان من خرّب السماء حتى لا يكون فيها اله يسهل عليه تخريب الارض حتى لا يكون عليها ملاك .

١٢ وان الدليل لهو الكتاب الوحيد على الارض الذي حمل الاصلاح على منكبيه وجاءها به من طريق السلام لان اصلاحه خال من كل شر فضلاً عما فيه من الراحة للانسان كله بحيث يستريح به الضعيف والقوي معاً . ويتضح ذلك اتضاحاً جلياً اذا عاد فتكلم فيه مرة اخرى وهو لا يفعل الا اذا وقع كلامه فيه موقع الاستحسان . وخلاصة ما نريده هنا هو انه يخالف غيره

مما سلف من كتب الاصلاح التي لم تسفر الا عما نراه اليوم من كل جديد مضر وشر مقر ووجع يزداد ومصير هائل . وانما تأتى له هذا الخلاف لانه شرقي الدار بعيد المزار تربى في مهد الدين وتغذى بلبان الفضيلة وتعلم ان يحترم الفضل حيثما وجده وادرك تماماً ان كل ما سواه باطل

١٣ ومعاذ الله ان ندعى له الكمال او نتطاول فيه على اولئك الاعلام الذين قد مزقت اقلامهم حجب الغوامض ونفذت سهام عقولهم في كبد الجوامد . وانما تلك مزية آثرناها وسجية اقتفيناها والمرء يفخر ببلاده ويجمل في عينيه تخطيط بجاده . هذا واني احمد الله على هذه النهاية كما حمدته في البدايه . واسأله التوفيق الى المنتهى فهو حسبي ونعم المسؤول .

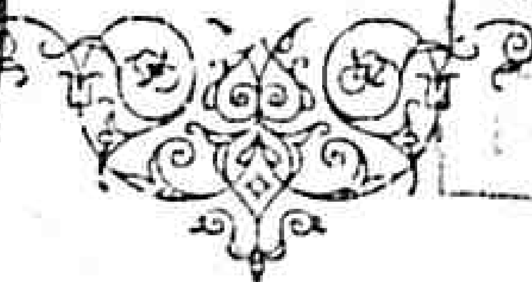


انتهى

الكتاب الاول

وكان الفراغ من طبعه في ٢٤ لوليو سنة ١٩٠٥





اعلانات

اننا نرجو من حضرات مشتركينا الكرام ان يتفضلوا عند استلام هذا الكتاب بتأدية قيم الاشتراكات في الكتاب الثاني ونرجو ايضاً ان تكون الاشتراكات كافية لجعله لا اقل من ٢٥٠ صفحة حتى لا يطول الزمان على طبع الدليل . على ان الرجاء معقود بمكارم اهل الفضل اولئك الذين يولون الجميل ويستولون على الثناء الجزيل .

ونقول لحضراتهم ان من يشترك بخمس نسخات يدفع ثمن اربع فقط او بعشر فثمان . وانما نقول ذلك للترغيب — لان الكريم راغب في كلا الحالين . وانما يسر الدليل — ولا غرض له في الربح — ان يكون له يد في الفضل . فعسى ان يتنازلوا لقبول ذلك كما قبل الانجيل فلس الارملة

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	١٣	بما جئنا به	وانما جئنا بما جئنا به
١٥	١٣	العرش	الوثن
٥٥	٧	يدلك	يدلكم
٨٠	١	خدمتهم	خدمته
١٠٤	١٧	مسؤل	مشغول
١٠٥	١٩	مما لا يخولها	مما يخولها
١١٢	١٨	مقصوداً	مقصوراً
١١٥	٣	لانهم يريدون	لانهم لا يريدون
١١٥	٢٠	باعت	دعت
١٢٢	٢٠	المنظورة	منظورة
١٢٤	٩	وبمقتضى	بمقتضى
١٢٥	١٥	معقول	معقولة
١٢٧	١١	عن الايمان	عن عدم الايمان
١٣٢	٥	هل الذي ينتج	هل ينتج
١٤١	٩	لا يتمكن	لم يتمكن
١٤١	٢٠	لا نرى كونه	لا نرى في كونه
١٤٣	٣	اذن هو	اذن ما هو
١٦٢	٨	اذا	ذا
١٦٦	١٥	من	ما
١٨٧	٣	العدل	هذا العدل
١٨٨	١٣	ايضاً	القوي

ويوجد ايضاً اغلاط اخرى في حروف ونقط لا تخفى على القاري كما ويوجد ايضاً اغلاط تلحق عادةً بهذا القلم الكثير السهو الذي كثيراً ما يغفل عن العبارة فيحسبها وافية بالمراد وهي ليست كذلك كقوله في الصفحة ٢٤ سطر ٢٠ (على انسان مجتمع) والصحيح (على انسان مجتمع في بقعة واحدة من الارض) فظلّ الصحيح في شقه فلم يفطن له ٠